دعوة الحق

شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الرباط، المغرب

البيئة وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي

الزاوية المغربية
كمنتدى للفكر والإشعاع العلمي

من الرسائل المرابطية

● دعوة الحق ● جمادى الأولى 1405 - فبراير 1985 ● العدد 245 ● الثمن 4,00 درهم ●

دراسات في الأدب المغربي

الترجمة العربية لمذكرات جلالة الملك الحسن الثاني

الحسن الثاني

ملك المغرب



التحدي

صدرت عن المطبعة الملكية بالرباط الطبعة العربية لكتاب "التحدي" بقلم جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله
وتضم هذه الطبعة وثائق تنشر لأول مرة.



شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
الرباط - المملكة المغربية



أسسها:
جلالة المغفور له
محمد الخامس
قدس الله روحه
سنة
1376 هـ — 1957م

التحرير:
الهاتف: 601.85

الإدارة و التوزيع
636.93
627.03
627.04
608.10

الاشتراكات: في المملكة المغربية: 70 درهماً
في العالم: 80 درهماً

الحساب البريدي: رقم 55-485. الرباط

Daouat El Hak compte chèque postal 485 - 55
à Rabat

فهرس العدد 245

المسؤولية الجسيمة

افتتاحية

تعتمل في الساحة الثقافية، على المستوى الاسلامي، كما على المستوى العالمي، نظريات ومذاهب يرتفع ويحتد النقاش حولها وحول فائدتها في توجيه المسار الانساني في الاتجاه الذي يحقق الصلاح والفضيلة للبشر، وينقذهم مما هي فيه مجتمعاتهم من حيرة وتمزق حينا، ومن تخلف وتقهقر حينا آخر، ومن سعي بعض هذه المجتمعات، طورا آخر، الى محاولات مستهدفة لبسط النفوذ والزعامة وفرض الهيمنة المتعددة الوجوه والمناحي .

والعالم الاسلامي، بطبيعة الحال، ليس معزولا عن هذا الصراع الفكري الذي تفاقمت مظاهره بعد الحرب الكونية الثانية، بل يمكن القول ان العالم الاسلامي وضع في فترة من الفترات، موضع مراهنة على سلب اجياله العقيدة التي تؤمن بها، والميراث الحضاري الزاخر الذي تتوفر عليه، والارادة المؤمنة التي توجه وتقود هذه الاجيال، بالايمان والعمل والطموح، الى تحقيق الخير والمحبة والسلام في العالم .

ثم ان هذه المراهنة البغيضة، اكتست عدة طوابع حادة وعنيفة، فهي مرة حرب مذهبية ضد الاسلام والمسلمين، وهي مرة أخرى، معركة فكرية ضروس ضد اشكال الاستلاب الثقافي واستراق الوعي الاصيل من روح الاجيال المسلمة، وفي كل هذه الطوابع والمواجهات، كان الفكر الاسلامي المتفتح والمستنير، هو الغالب وهو المسيطر على سائر المعارك والمواجهات، بل وهو المخرج من الازمات التي يعاني منها «الفكر العالمي» .

ومن الانصاف ان نقول، ان سلاح الدعوة، في هذه المواجهات والمعارك، لم يستعمل كاملا، ولم تستثمر كل إمكانياته وطاقاته، ولا تزال قوته كامنة لم تعط ذاتها الحقيقية، باعتبار ان الاسلام نفسه، هو دين الحياة، ودين التجدد والتطور، وكلما مرت الحياة الانسانية والبشرية بمرحلة من مراحلها، مهما كانت معقدة او مكثفة، الا وكان الاسلام الدين الذي يستجيب لها، ويفي بحاجياتها، ويضمن مستلزماتها الحيوية .

ومن هذه الجهة، تتحقق لنا حقيقة بالغة في وضوحها وسطوعها، قررتها الوقائع والاحداث التي تعيشها الساحة الثقافية الاسلامية والعالمية على السواء .

هذه الحقيقة، هي ان مفهوم الاسلام، حين يتم بلاغه وتبليغه الى الوجدان المعاصر، خاصة في المجتمعات والاوساط الثقافية والفكرية التي قلت معرفة افرادها بالاسلام، وشحت ادراكاتهم له، سرعان ما ينفذ وينتشر بقوة لا عهد للاديان والمذاهب والافكار بها، وبتلقائية سريعة يدهش لها اولئك الذين يضمرون السوء للاسلام والمسلمين، ويكنون له العداوة والشر .

ومن هنا، يتضح لنا ان انتصار الاسلام وانتصار الدعاة اليه، لاسيما في الاوساط والمحافل الفكرية والثقافية التي تتفشى فيها الامية العقلية بحقيقة ودور الاسلام في الحياة والحاضر والمستقبل، هما انتصاران مرهونان بقدرة رجال الثقافة والفكر وأرباب الاشتغال بشؤونهما وقضاياهما المختلفة على تنوير العقول والاذهان بهذه الحقيقة وبهذا الدور، وبما ان الاسلام هو منهج حياة أوحاه الله سبحانه وتعالى الى نبيه المصطفى ورسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لتنظيم حياة المجتمع البشري كافة، فقد تحتم ان يكون للمنقطعين الى المعاناة الثقافية والفكرية، رسالة تسمو بالفكر، وتشق له الدروب، وترسم له الافاق البعيدة، وتنير له الطريق؛ ألا وهي رسالة الدعوة الى الاسلام، وتنشئة الافكار المشابة والفتية على تعاليمه ومبادئه السمحة، وتيسير جميع السبل امام الاجيال لكي تعود الى دين الفطرة، ودين الحياة، ودين المستقبل : دين الاسلام .

نعم، ان الرسالة خطيرة، والمهام جسيمة، والصعوبات جمة وغير محدودة؛ ولكن، متى قوي الايمان، وصدق العزم، واستبان الهدف واتضحت الغاية، اصبحت الطريق ممهدة ولله الحمد، وأصبحت المصاعب وما نتصوره عوائق وحوائل مانعة لنا عن الهدف، مجرد متاعب صغيرة يذللها الايمان والعمل والطموح والسعي النبيل الى اداء رسالة الفكر الحقيقية وأمانته في الحياة .

ومن نعم الله سبحانه وتعالى على المسلمين كافة، ان هيأ لشريعته في الارض، وسننه في الكون، الاسباب والمسببات التي بها يستنجح المسلمون ويبلغون رسالة الله الى البشر أجمعين .

ومن بشائر هذا السنن، ان الفئات الواعية والمثقفة في عالمنا الحديث، وفي بلاد كان صوت الاسلام بعيدا عنها وعن شعوبها، بدأت تدرك عظمة الدين الاسلامي وروعته، ومع هذا الادراك، بدأ الاقبال على اعتناق الاسلام والتصديق بمبادئه وتعاليمه

والعمل بفرائضه وشرائعه التي سنها المولى سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، وجاءت السنة المطهرة لنبينا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، مصداقا لها، وعنوانا على صلاحيتها لكل البشر، في كل زمان ومكان، وفي كل حضارة ونهضة تقوم بها أمة من أمم الأرض .

هذه الطبقة الواعية المثقفة التي شرح الله صدرها للاسلام وهداها سبحانه الى طريقه وشريعته، تشكل اليوم احدى طلائع العمل الاسلامي في مواجهة الافكار والمذاهب والنظريات الفاسدة التي تحاول في عالمنا المعاصر، تضليل الاجيال وسلبها القوة التي تدفعها الى الحياة والى التطور في ظل الايمان بالله، وبرسله وملائكته، وبما أنزل بالحق ونزل بالحق على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

على أن هذه الفئة المؤمنة من رجال الثقافة والعلم الذين خفوا الى الاسلام؛ يؤمنون به ويدعون اليه ويعملون على نشره، تحتاج منا حاجة ماسة الى قوة تدعمها، وطاقة تؤيدها وتساندها في المواجهات الفكرية والثقافية التي تقتحمها هذه الفئة، في بلدانها ومجتمعاتها، ضد قوى التضليل والكفر، ومصادر التجهيل والتعصب الاعمى والعداء للاسلام والحقد على المسلمين .

وهذه القوة وهذه الطاقة، لابد من صدورهما صدورا مخلصا ممن يتحملون أمانة التوجيه الثقافي في العالم الاسلامي، وممن يتصدرون واجهة التثقيف والتربية والتكوين الديني والروحي والعقلي على امتداد رقعة هذا العالم، ذلك ان فترة الغربة والاغتراب التي عاشها وعانى الفكر الاسلامي من تجاربها المريرة خلال السنوات والاعوام المنصرمة، هي فترة قد انتهت وانقضت، وحلت محلها فترة جديدة تتسم بالوضوح وبالاشراق في ظهور الاسلام كحقيقة فاعلة في العالم المعاصر برمته؛ حقيقته كدين اوحاه الله الى صفوة انبيائه ورسله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكعقيدة تتضمن بداهة الخلاص النهائي والمحتوم مما يعانيه المجتمع الحديث، شرقا وغربا، من شرور وآفات تتهدد حضارته وتقدمه وتكشف عن قرب انهياره وسقوط حضارته المادية الجامدة .

الفترة التاريخية الجديدة التي اقبل عليها الاسلام منذ اعوام خلت، فترة تتصف، على المستويات الفكرية والثقافية بشكل خاص، بعدة ايجابيات تجعل الاسلام، كما هو واضح، الدين المؤهل لانقاذ البشرية كلها من نذر النهاية، وزلات الطريق، وسوء المصير .

هذه الأهلية للاسلام، على هذا الوجه بالذات، تقتضي من رجال الثقافة والفكر وذوي الاختصاص بالممارسة العقلية، لاسيما على صعيد الابداع الثقافي والابتكار الذهني والابتداع الادبي، دورا مشاركا يزكي في النفوس خاصية السير في الاتجاه العام والمتوافق مع منهج الاسلام في الحياة ومع مفاهيمه ومواصفاته المستمدة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم، والتي تعد وحدها، خصوصا في الظروف الراهنة، هي المنجاة التي يلوذ بها الخائفون، ويلجأ اليها القلقون، ويعتصم بها اولئك الذين زلت اقدامهم عن جادة الصواب .

وفي المغرب، ولله الحمد، طاقات من هذا القبيل، ينتظرها أداؤها لهذا الدور، وقيامها بهذه المسؤولية وبأمانتها في الحياة. فالثقافة بدون رسالة، حديث خرافة، والوعي بغير مسؤولية، وعي مستلب لايقدر على مواجهة الحياة والصمود امام تياراتها العاصفة من كل اتجاه، والعقل الذي يعتمد اعتمادا كليا على قدراته المحدودة، هو عقل مرشح للخطأ والخطل والخطر في آن واحد، لان الوحي الالهي الكامل والمتمثل في القرآن الكريم، وفي سنة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، هو منهاج الحياة، وسنة الكون، وحقيقة الخليقة، وقانون الطبيعة، وكل اعتماد يعتمده العقل البشري على غير الوحي الالهي، هو اعتماد باطل وفاسد ومآله الى الزوال والفشل.

ان الاشكال الثقافية التي ابدعها الانسان بخصب وتنوع، من خلال القدرة المفكرة التي اودعها الله سبحانه وتعالى فيه، وهي العقل، لتتأتى لها افاق وحقول فسيحة كلما استندت الى رسالة سامية تؤديها، ومهمة نبيلة تضطلع بها، وهدف صالح ترومه، وقيم ومثل عليا، في الدين والاخلاق والتوعية والاصلاح، تعبر عنها وتجسدها في القالب الفكري الذي يصغى اليه نبوغ النابغين في مجالات الثقافة والفكر والوعي الحقيقي بكونية الاسلام كحقيقة من الله للانسان.

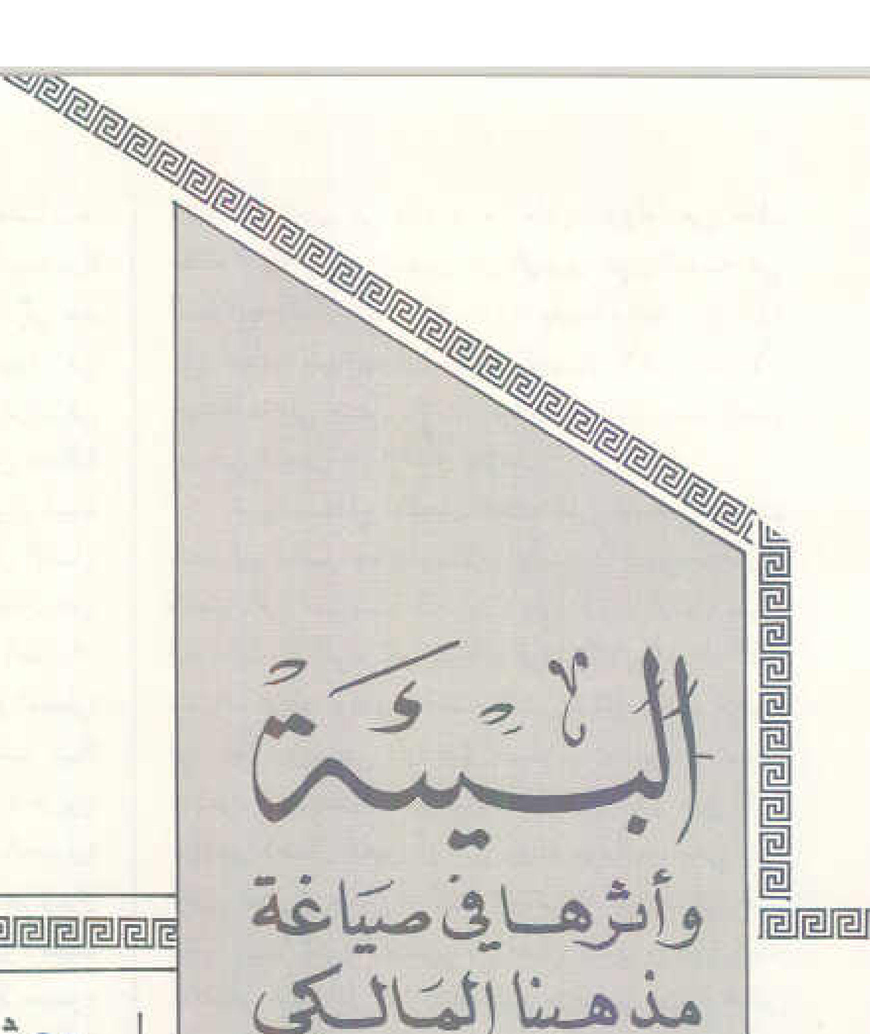
ويتضح من هذا، ان جانبا كبيرا جدا مما يسمى بالصراع الفكري او بالجدل المذهبي والايديولوجي، هو مفتعل في اساسه، بل وعقيم وغير ذي جدوى. فالاقلام والمنابر الثقافية والفكرية التي تتخبط في صميم هذا الصراع، مصورة اياه كأنه الحقيقة الوحيدة في الحياة، انما تتخبط خبطا عشوائيا ليس تحته طائل وليس فيه فائدة، وهي انما تشبه حاطب ليل، لايعرف ما يأخذ وما يدع، ومن المؤسف، ان يكون البعض من

الناشئة الاسلامية، بغير وعي منها، قد ذهب عقلها ضحية هذا الصراع العقيم الذي يصدرونه لها كأنه البديهية التي لابديهية سواها في الوجود والحياة الثقافية والفكرية.

فنتيجة لهذا الصراع الذي طال وامتد في الساحة الثقافية، على المستوى الاسلامي بصفة خاصة، ظهرت قضايا، ونجمت مشاكل، وتولدت أطروحات لم تحصد منها الثقافة الاسلامية الا الشرور والرذائل والافات التي جلبت الضرر والاعوجاج على عالمنا الاسلامي، ولم تجن منها الا ركاما من الضلالات الفاسدة والاباطيل المفرغة من أي معنى أو محتوى ايجابي وسليم في الحياة، وقد آن الاوان لكي ينتهي هذا الصراع ويقف عند حده، فهو علاوة على كونه صراعا مجلوبا من فكر غريب وحضارة مادية جامدة الى الفكر الاسلامي وحضارته النقية الصافية المنابع والمصادر، يمثل داء عضالا يفتك بالقدرات الابداعية، ثم هو يستفرغها من جوهرها الاصيل، ويستنفد طاقاتها، ويأخذ منها ولايعطي.

وقد آن الاوان كذلك، لكي ينتهي هذا الصراع من الساحة الثقافية الاسلامية لتقرير حقيقة اصبحت واضحة وآية مبصرة لكل من يتابع مراحل واهداف وأوجه هذا الصراع واستقطاباته الكثيرة، هذه الحقيقة تتمثل في كون جميع النظريات والمذاهب والاطروحات الوضعية التي زعم دعاتها قدرتها على قيادة المجتمع البشري، قد افلست واعلنت عن موتها بذاتها. وبقيت الحقيقة في هذه الساحة، وفي الحياة والكون، وفي المسار الذي اراد المولى سبحانه وتعالى ان تنتهي اليه عمارة الكون، انها حقيقة الاسلام كدين هاد للبشرية، يقودها على طريق الخير والمحبة، ويوفر لها شروط الامان والاستقرار. وهاهو العالم اليوم، يتطلع الى هذه الحقيقة، ويؤمن بها، ويدعو اليها كذلك والمطلوب في هذه الانتقالة التي حققتها الدعوة الى الاسلام، ان يتفهم الفكر رسالته الحقيقية الصالحة، وان يقدر مسؤوليته في مواجهة ما تضطرم به الساحة الثقافية في العالم الاسلامي من اتجاهات سقيمة، وتيارات شديدة من الفكر الضليل الذي يقود الى المزيد من التصدع والتداعي، والذي — في حقيقته — يتنافى مع الاسلام ومع جوهره ومضمونه الحي والمتطور الذي جعل، طوال التاريخ، حياة البشر، بدون استثناء، تتقدم وتنمو وتزكو وتبلور اهدافهم السامية الرفيعة في حياة كريمة، أسها الايمان، ودعامتها التوحيد، وقوامها الاخلاص والعبودية لله عز وجل.

دعوة الحق



البيئة وأثرها في صياغة مذهبنا المالكي

بحث للدكتور عبد الله العمراني

خلق الله الكون بممالكه الرئيسية الثلاث : مملكة الجماد، ومملكة النبات، ومملكة الحيوان. وجعل من سمات الأخيرتين الحساسية والتطور والنمو المادي والروحي، علاوة على قابلية أفرادها للتلاؤم مع ما حولهم من معالم بيئتهم التي تحيط بهم.

ومما لا يتنازع فيه إثنان، أن الإنسان هو قمة التطور الخلقي، وتاج الكائنات بلا جدال. ذلك أن أية وقفة تأملية، أو نظرة فاحصة في عضو من أعضائه، أو جهاز من أجهزته، لتبهر النفس، وتحير العقل، وتثير العجب والإعجاب في آن واحد. «فتبارك الله أحسن الخالقين !».

لقد أبدع الله الإنسان وزوده بميراث جم حافل، وبقوى مفكرة عاقلة، وبقدرات واستعدادات كامنة تثيرها مثيرات، وتسوقها إلى الإمام - مبرزة إياها إلى حيز الوجود - حوافز وبواعث (دافعة أو غائية)، تجعل الإنسان يسعى حثيثا للاستجابة والتلبية في أوقات خاصة وظروف معينة، يتفاعل فيها مع بيئته، مؤثرا فيها، متأثرا بها عبر مسيرته التاريخية المديدة.

نحو نظرية جديدة

لكن، ما البيئة ؟ البيئة (بكسر الباء لا بفتحها) هي المنزل أو المحيط والوسط، هي مأخوذة من «باء» بمعنى رجع أو أقر، ويتعدى هنا الفعل بالهمزة والتضعيف فيقال : أباءه وبوأه منزلا : أقعده فيه. ومطاوع الفعل «تبوأ»، ومنه الحديث الشريف : «ومن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار».

هذا في اللغة، أما في الاصطلاح، فيمكن تعريف البيئة بأنها : «مجموعة من الظروف والملابسات تواكب الأحياء والأشياء، وتحيط بمقاماتهم وأحوالهم لتتفاعل معهم تأثرا وتأثيرا، سلبا وإيجابا».

اعتاد علماء الاجتماعيات أن يقسموا البيئة إلى قسمين

اثنين لا ثالث لهما : البيئة الطبيعية، والبيئة الاجتماعية، واعتاد الناس القول : إن الإنسان ابن بيئته، وأديب مرآة صادقة تنعكس عليها صورة البيئة التي تحوطه... إلى غير ذلك من الأقوال التي تنم عن تأثير البيئة - بنوعيها - في الإنسان، وتنسى أو تتناسى تأثير الإنسان - الفرد - في البيئة. ومن ثم بدا لي منذ مدة، أن شيئا ما ينقص مسألة البيئة هذه. حقيقة أن الإنسان هو حاصل جمع تأثيري البيئة والوراثة، ولكن ما الفائدة من هذا الجمع إذا ما ظل الإنسان على الهامش كما مهملا، أو عاملا سلبيا يتأثر وينفعل، دون أن يكون عاملا إيجابيا يؤثر ويفعل، ويقوم بردود الفعل ؟

الدلائل المتوافرة لدينا، والمستقاة من تاريخ الحضارة البشرية، تدل على أن الإنسان كافح وكابد منذ نشأة الخليقة في سبيل إثبات الذات ونفعها وإسعاد الآخرين، وفي سبيل التلاؤم مع البيئة وتحديها بوجه عام. فالحضارة البشرية هي بمثابة قصر منيف بناه بنو البشر بجهدهم وعرق جبينهم، والتراث الإنساني بمثابة كنز ثمين، تعبت المجتمعات في جمعه وصيانته. وما المجتمع إلا مجموع أفراد، وما حصيلة ذلكم المجموع إلا نتيجة أعمال كل فرد على حدة.

هنا أجد الفرصة سانحة في هذا المحفل الموقر، لأضيف قسما ثالثا لقسمي البيئة، هو «البيئة النفسية - الفردية». وبهذه الإضافة نتفادى التقصير الذي نلمسه في التقسيم التقليدي القديم. فكما يتفاعل الإنسان مع ما يحيط به من بيئة طبيعية أو اجتماعية، فيؤثر فيهما ويتأثر بهما، كذلك نراه - في الوقت ذاته - متفاعلا مع نفسه، يتأثر بها ويؤثر فيها. النفس - في الواقع - عالم رحب، متعدد الجوانب، بالغ التأثير في تشكيل حياة الإنسان وتوجيه سلوكه : تجمح به نفسه أحيانا، فتدفع به - أو تكاد - صوب هاوية الشر والخسران، ويتمكن أحيانا أخرى من كبح جماحها والهيمنة عليها فيقهرها ويعرج بها على طرق الخير والفلاح. فكأن الحرب بين الاثنين سجال، والصراع بينهما خالد، يتجلى - مثلا - فيما يحكيه كتاب الله عن امرأة العزيز (فوتيفار) حين قالت في سياق اعترافها بفشل مراودتها ليوسف عليه السلام : **﴿وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾** (يوسف : 54)، كما يتجلى في قوله عز من قائل : **﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾** (النازعات : 40 - 41). وفيما قاله رسول الله ﷺ حينما وسم جهاد النفس بالجهاد الأكبر، نظرا لأن جهادها داخلي متصل بالإنسان ومتواصل، بينما جهاد العدو خارجي منفصل عن الإنسان ومؤقت.

ثم إذا استطاع الإنسان التغلب على نفسه، استحالت هذه إلى عامل هدي وصلاح، وأصبحت تلوم صاحبها لتقصيره في ممارسة التقوى، وفي الازدياد من عمل الصالحات، أو تلومه على إفراطه في ارتكاب أعمال الشر، واقتراف الآثام. وكأني بالنفس البشرية تقوم بدور مزدوج في حياة الفرد، فهي تارة تمثل الوسواس الخناس، أو الغواية والإغراء : Temptation فتكون لسان حال الشر حين نكون مزاولين لأعمال الخير، أو على وشك مزاولتها، وهي تارة أخرى تمثل الوجدان أو الضمير الخلقي فتكون لسان حال الخير حينما نكون منغمسين في أعمال الشر، أو على وشك الانغماس فيها. كل هذا يدعونا إلى مزيد من دراسة النفس الإنسانية، ومزيد من التعمق في داخليتها وأعماقها، وانعام النظر في جوانبها المتعددة، لأنها في الواقع، عالم قائم بذاته، أو ميدان فسيح جدير بالعناية والبحث والدرس.

ولا أخفي أو أنكر أن بعض أسلافنا قاموا ببعض واجبهم في هذا المجال، فهذا العلامة أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى سنة 751 هـ / 1350م ألف كتابا قيما سماه : «مفتاح دار السعادة، ومنشور ولاية العلم والإرادة» وشحنه بدراسات حكيمة عن الإنسان وحواسه وأعضائه، وعن الحيوان والبيئة، ولم يغفل ما بين الثلاثة من تفاعل، وما يقوم به الأولان من أفعال وردود أفعال إزاء البيئة الطبيعية... ولكني أريد التأكيد على أن الموضوع هام جدا، ويحتاج إلى دراسات أعمق، وهذا ما يدعو إليه كتاب الله ويحث عليه قائلا :

﴿وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ (الذاريات : 20 - 21) ثلاث آيات كريمات تتحدث عن الأنواع الثلاثة للبيئة : الأرض والسماء، ثم الإنسان، ثم

النفس الإنسانية، كان في الإمكان - في غير القرآن طبعا - أن يقع الاكتفاء بالحديث عن الأرض، فهي تتضمن الإنسان حتما، ولكن النص على النفس البشرية والحث على دراستها والتفكير فيها لأخذ العبرة، كل ذلك يرمز إلى أكثر من معنى. وأهم تلك المعاني لفت النظر إلى البيئة النفسية - الفردية التي كانت وما زالت ولن تزال العامل الفعال في تخطيط المجتمعات، وتكوينها، وتلوينها، وتنميتها، وفي الإنتاج الثقافي وصنع الحضارات المادية والمعنوية على السواء.

وفي هذا الصدد، لا يفوتني أن أشير إلى دراسة حديثة اهتمت ببحث عضو واحد من أعضاء الإنسان، لا يتجاوز وزنه ثلاثة أرطال، ولكنه يكتسي أهمية قصوى في حياة الإنسان، وتطوره، وتاريخه، قامت بالدراسة عالمة أمريكية تدعى (مركَريت أو. هايد Margret O. Hyde) وسمت كتابها الصغير الحجم، الكبير المغزى، الجم الفائدة : (أعجوبة عقلك : The Miracle of Your Mind) تقول المؤلفة في الفصل الأول من كتابها ما معناه : المخ البشري أكثر الأشياء في العالم تعقيدا وعجبا، لا آلة (ماكنة)، ولا حاسبة إليكترونية : Computer تستطيع أن تنجز من الأعمال مثل ما ينجزه، لا من حيث الكثرة، ولا من حيث السرعة. إن النشاط الكهربي والكيميائي الهادئ للمخ، هو الأكثر تعقيدا مما يمكن تصوره. لنفرض أن كل شخص في العالم يمتلك جهاز هاتف، فيتوافر لدينا حينئذ نحو ثلاثة مليارات وثلاثمائة مليون جهاز.

«لقد قدر العلماء أن مهام الربط والاتصال التي ينجزها عقل بشري واحد، هي أكثر إمكانية مما يمكن أن يقوم به نظام موسع للمواصلات العالمية يضم هذا العدد العديد من أجهزة الهاتف !»

وتضيف العالمة الأمريكية قائلة : «الآن، يمكنكم أن تروا لماذا لا يزال هناك الكثير مما يجب أن يعرف عن هذا العضو العجيب !».

روى النعمان بن بشير (ض) أن رسول الله ﷺ قال :

«ترى المومنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

معنى هذا - ولا ريب - أن الإنسان، وبيئته النفسية - الفردية، عالم قائم بذاته، وأن الحديث النبوي الشريف، اعترف للإنسان بقيمته وأهميته، واعتبره كيانا مستقلا، ومجتمعا داخليا مصغرا متماسك الأجزاء متكاملا وشبه به مجتمع المومنين المتكافلين. وكفى «الجسد» الإنساني فخرا هذا التنويه النبوي الكريم !

ويؤكد هذا المعنى العلامة ج.هـ. هادفيلد : J.H.Hadfield في كتابه علم النفس والأخلاق : Psychlogy et Morals حين يقول : «الإنسان في الحقيقة ليس مجرد فرد، بل هو مجتمع وعالم صغير، أقيم بناؤه على غرائز وانفعالات وعواطف وعقد، لا تختلف عما يسود المجتمع من عواطف وانفعالات. وما المجتمع إلا صورة للفرد منعكسة على مرآة مقوسة تظهر فيها الصفات الأساسية بشكل مكبر، وبقوى مختلفة».

ومن الطريف أن الاجحاف بدور الفرد الفعال في مجال البيئة والحياة، وأهماله في التقسيم البيئي، والاكتفاء عنه بدور المجتمع... لم يكن شيئا فريدا كبيضة الديك، بل نجد له قرينا يؤانسه، ويتمثل في تنكر أحد العلماء لكيان الفرد والمجتمع معا، وفي دعوته لإدماج أحدهما في الآخر، واعتبارهما شيئا واحدا، لا هو فرد محض، ولا هو مجتمع خالص.

يقول العلامة تشارلس هورتن كولي : Charles Horton Cooley في كتابه : الفرد والمجتمع : The Individual et The Society «إن الفرد والمجتمع يكونان كلا لا يتجزأ». ومن ثم تطرق إلى تخطئة علم النفس وعلم الاجتماع في اعتبارهما الفرد من جهة، والهيئات الاجتماعية من جهة ثانية، أمرين منفصلين.

نخلص من هذا كله إلى القول بأن اقتصار العلماء على تقسيم البيئة إلى قسميها التقليديين، وإهمالهم للقسم الثالث (البيئة النفسية - الفردية) عمل مجحف في حد ذاته، مخل بنشاط الفرد المنبعث من داخل نفسه. فذلك التقسيم لا يفي بالغرض، ولا يعبر بصدق عن الواقع، ويتجاهل إلى حد كبير، العنصر الفردي الهام، أو هذا المحرك الأول والخلية الأولى في بنية المجتمع البشري، إذ لو لم يكن الفرد، لما كان المجتمع، إن البحث الدقيق - وحتى غير

الدقيق - يرشدنا إلى أن الفرد هو الأصل، والمجتمع هو الفرع، والفرع - كما قيل بحق - لا يقوى قوة الأصل.

أقسام البيئة الطبيعية

تعتبر البيئة الطبيعية، بمثابة خشبة مسرح كبيرة، تمثل فوقها البشرية - أفرادا وجماعات - أدوارها الحضارية من أجل استمرار الحياة على وجه البسيطة. ويمكن أن تقسم البيئة الطبيعية باعتبارات مختلفة منها ذلك الذي نستعيره من علم تقويم البلدان (الجغرافية) فنقول : إن بالعالم خمس بيئات رئيسة، نشير إلى كل منها باختصار فيما يلي :

1 - **البيئة الحارة :** وتتمثل في المنطقة الحارة الممتدة حول خط الاستواء بين مدار السرطان في الشمال، وبين مدار الجدي في الجنوب، وتمتاز هذه البيئة بارتفاع الحرارة الشديد، وبتهاطل الأمطار الغزيرة على مدار السنة، مما يتيح النمو الفارع للنبات والأشجار. وهذه البيئة من شأنها أن تفرض على الإنسان أسلوبا معينا للحياة، يجعله يتصرف طبقا لهذه المعطيات الطبيعية.

2 - **البيئة المعتدلة الشمالية :** وتتفرع إلى فرعين :

أ - فرع مداري مصاقب لمدار السرطان، ويغزر فيه المطر في فصل الصيف.

ب - وفرع شبه مداري، ويقع شمالي سابقه، ويمتاز بقلة المطر أو ندرته، مما أدى إلى تكوين صحاري شاسعة في مناطق معينة تمتد في نصف الكرة الشمالي بقسميه الشرقي والغربي.

وقد استطاع الإنسان أن يكيف نفسه مع هذه البيئة، فساعده ذلك على الدفع بعجلة التقدم والرقي إلى الأمام، فنشأت حضارات متنوعة في جهات متعددة، وظهرت ديانات عديدة. بعضها من وضع بني البشر، وبعضها الآخر سماوي معزز بكتاب إلهي مقدس، أتى به نبي مرسل ليبلغ قومه أو العالم رسالة ربه في التوحيد والتشريع وتنظيم الحياة الدنيوية، وليرغبهم في التزود للآخرة بزاد التقوى.

3 - **البيئة المعتدلة الجنوبية :** وتتفرع - مثل سابقتها - إلى فرعين :

أ - بيئة مدارية تقع مباشرة جنوبي مدار الجدي، وتغزر أمطارها صيفا.

ب - وبيئة شبه مدارية، وتقع جنوبي سابقتها، وتقل فيها الأمطار لدرجة سمحت بنشأة الصحاري. كثر العمران في هذه البيئة المعتدلة الجنوبية مثل مثيلتها في الشمال، ونشأت فيها حضارات، ولو على نطاق ضيق، فعمرت زمنا طال أو قصر، ثم بادت بعد أن سادت.

4 - **البيئة المتجمدة الشمالية :** تقع بين الدائرة القطبية الشمالية وبين القطب الشمالي. وتمتاز في معظم جهاتها بسقوط أمطارها ثلجا، نظرا لشدة البرد. ونتيجة لذلك. تكونت عبر المنطقة صحراء جليدية شاسعة. وبما أن الإنسان مفطور على حب الكفاح لحفظ الذات أو النوع، فإنه صمد لقساوة الطبيعة، فاستطاع بشق الأنفس أن يتكيف مع بيئته، وأن يتحداها فينهج أسلوبا في الحياة ملائما.

5 - **البيئة المتجمدة الجنوبية :** وتقع بين الدائرة القطبية الجنوبية وبين القطب الجنوبي. ويسود في هذه البيئة - مثل سابقتها - الجفاف القطبي، نظرا لأن أمطارها تسقط ثلجا، ولذا كانت عبارة عن صحراء جليدية مترامية الأطراف.

حاجة البشرية إلى التشريع

لم يكد الإنسان يستقر على وجه الأرض، يعمرها ويمشي في مناكبها، حتى ألفى نفسه في حاجة ماسة إلى التشريع كي يهتدي بهديه، ويستنير بنوره، ويستعين بمواده وبنوده، ويستطيع به التلاؤم والتكيف مع بيئته، والتعايش مع لداته وأقرانه في دعة ووئام وسلام.

لم تكن الحياة - بدأة بدء - من التعقيد وتشابك المصالح، وتكاثر المشكلات، بحيث يحس الناس حاجتهم المبكرة الملحة إلى تشريع معقد، متشابك، متعدد الجوانب، ولذا اكتفوا، واكتفت العناية الإلهية بما كان يسد - فقط - حاجتهم من قوانين طبيعية وإلهية.

ولكن عندما تكاثرت السلالات، وانتشرت تعمر دنياها المتعارفة لديها، وتزدحم فوق جنباتها، اضطرت حينئذ إلى الاهتداء بهدي الطبيعة من جهة، وبتشريع السماء عن طريق الأنبياء والرسل من جهة ثانية، وانساقت من جهة ثالثة،

وتحت ضغط الحاجة أو الضرورة، إلى سن قوانين وضعية، وضعها أهل الحل والعقد للمجتمعات، فسارت بمقتضاها فترات من الزمن محدودة، حتى إذا تغيرت أوضاع تلك المجتمعات وتطورت، غيروا قوانينهم، وطوروها حسب ظروفهم وأحوالهم المستجدة.

الإنسان في بيئته البدائية، وفي أولى مراحل تطوره الحضاري ـ مرحلة الصيد مثلا ـ لم يكن في حاجة ماسة إلى استقرار، أو تكوين مجتمعات كثيفة، أو تشريع قانون، لأن حياته الصعبة الشاقة، لم تكن تسمح له بشيء من ذلك، فهي مبنية على التنقل لجمع الثمار، ولصيد ما يتغذى به من فرائس، ولمصارعة الوحوش والحيوانات المفترسة دفاعا عن النفس، وحفاظا على الحياة.

ولكن لما وجد نفسه عرضة للجوع والعطش والمرض، ولاعتداء أخيه الإنسان، وحينما استيقظت فيه غريزة حب الاجتماع اضطر لتكوين المجتمعات، وللاستقرار لتوفير غذاء الغد، وهكذا صاد المزيد من الحيوانات، واستحياها وأبقاها على قيد الحياة، وسعى لتغذيتها وتغذيته هو باستنبات النبات، وبذر وغرس الأشجار، واستقر معها ينتظر النبات حتى يستحصد، والثمار حتى تنضج، فيشبع نهمه وبهيمته. واضطر كذلك لسن قوانين تحفظ له ماله وثروته وحياته، من الغصب أو التلف أو الهلاك.

وهكذا تطورت حياته من حالة الصيد، إلى الرعي، إلى الفلاحة والزراعة، إلى التجارة، إلى الصناعات الآلية الحديثة، وصارت هذه المراحل الحضارية تراثا للإنسانية، وكأنما عز على الناس أن يفارقوه أو يفرطوا فيه، فاحتفظوا به للآن، فهم يشتغلون ويشغلون هذه الحرف جميعا في وقت واحد، لكن في أماكن متفرقة من دنياهم.

وخلال هذه الحقب الطويلة من الزمن، تطورت المجتمعات الإنسانية من البطن، إلى العشيرة، إلى الحي، إلى القرية، إلى القبيلة، إلى المدينة، إلى الأمة. وفي كل مرحلة من مراحل حياتها الاجتماعية هذه، كانت شؤونها تزداد تطورا وتعقيدا، فتحوجها إلى المزيد من التشريع، وإلى المزيد من الاسترشاد بما كانت تسترشد به من قوانين طبيعية أو سماوية.وحيث أن الحكمة الإلهية البالغة،اقتضت أن يتناول التطور الحاصل المستمر حتى الشرائع السماوية.

وبما أن دين الإسلام كان آخر الأديان وأكملها، فإننا سنخصه بالعناية والبحث، وسنأخذ الشريعة الإسلامية نموذجا للقانون السماوي.

أنواع القوانين

زود الله الإنسان بقوانين مختلفة، بغية هديه وتعليمه وتذكيره بواجباته نحو خالقه، ونحو معاشريه وقرنائه من بني جلدته، وبقصد مساعدته وإرشاده إلى نيل حقوقه في طريق تقدمه الطويل.

أولا : القانون الطبيعي :

هو قانون لم يرسل من أجله رسول، ولم ينزل به وحي، ولم يصدر في حقه تشريع معروف. ولكنه عبارة عن قواعد وسنن أوحى بها الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى أجزاء الطبيعة مباشرة، وأودعها مظاهر الكون وعناصره، فجعل للمسببات أسبابا، وللنتائج مقدمات يسير بمقتضاها العباد، فمن باشر منهم السبب، ظهر له المسبب، ومن زرع شيئا حصد غلته، وبالجملة، من طرق منهم أي باب، لم يلبث في الحال أن يسمع الجواب.

من أطاع قانون الطبيعة حفظ حياته وصحته النفسية، وغنم غنما ماديا، لأن هذا القانون لا يرتبط إلا بالتقدم المادي للإنسان، ولا علاقة له مباشرة بالرقي الروحي. أما من خالف القانون الطبيعي، فيمكن أن يتضرر ماديا، لكنه لن يتعرض للعقاب الرباني، لأن من شأن القوانين الطبيعية ألا تثير مقت الله أو غضبه أو سخطه. وكما أن المخالف لا يناله ـ من أجل مخالفته ـ عقاب الله، فكذلك لا ينبغي للمطيع لهذا القانون الطبيعي أن ينتظر من الله أي ثواب مباشر.

للقانون الطبيعي قوى دافعة تحوط هذا الكون وتكتنفه، ومن شأن تلك القوى أن تدفع بالكائن الحي دفعا إلى التصرف حسب مقتضياتها، لا حسب هواه هو، فإن لم يفعل، نال ما يستحق من جزاء. وهذا يعني أن أية مخالفة أو عصيان، أو أية محاولة لصد تلك القوى، تجر حتما إلى عقاب طبيعي مادي مناسب. غير أن هذا العقاب المادي قد لا يفضي إلى خسران مبين، أو هلاك مبيد، كما لا يفضي الاستهتار ـ مثلا ـ بحمية الطعام في فترة معينة، إلى مرض

حتمي لازب، أمـــا إذا استمر المخـــالف في العصيـــان والاستهتار، فإن ذلك قد يؤدي به إلى التهلكة والضياع، بل قد يودي بحياته في النهاية.

ثانيا : القانون الاجتماعي :

فإذا وصل الإنسان في تطوره الحضاري إلى درجة معينة، أمكنه أن يضع لنفسه قوانين على غرار القوانين الطبيعية، قصد تنظيم معاشه، والحيلولة دون اضطراب حياته اضطرابا يعوق سيره في طريق التنمية الحضارية.

القانون الاجتماعي، هو في الحقيقة امتداد لقانون الطبيعة، ومكمل له. وهو - مثله - يعمل على الدوام. كلاهما موجود، وجهل الإنسان أو تجاهله لأحدهما أو كليهما، لا يعفيه من تحمل العواقب، والنتائج المترتبة بما فيها من عقاب صارم عاجل أو آجل.

وإذا أردنا أن نبحث عما يمكن أن يوجد بين هذين القانونين من خلاف وتباين، رغم أن أحدهما امتداد للآخر، فإنا نجدهما يختلفان في أن القانون الطبيعي لا يد للإنسان فيه، فهو مفروض عليه فرضا، ومصنوع أو مصوغ من قبل الله تعالى، وإن كنا نتساهل أحيانا فننسبه إلى الطبيعة التي هي بدورها من صنع الله، بينما القانون الاجتماعي هو من صميم صنع المجتمع البشري، ذلك أن الإنسان هو الذي قام بتشكيله وتأليفه حسب ضروراته وحاجاته، وابتغاء استمرار حياته في إطار من السلامة والسلم الاجتماعيين.

ثالثا : قانون الشرع الإسلامي :

كانت الشريعة الإسلامية آخر القوانين التي زود الله بها بني البشر، وأكملها. وعلى عكس القانون الطبيعي المادي وبعض الشرائع السماوية المغرقة في الروحيات، جاءت الشريعة المحمدية لتنظيم شؤون الحياة المادية والروحية معا، فإذا خالف الإنسان أوامرها ونواهيها، تعرض لسخط الله وغضبه وعقابه الدنيوي والأخروي، وتورط في إعضاب المجتمع الذي يحيط به، فلا يلبث هذا أن يصب عليه جام غضبه، ويوقع عليه من العقاب المادي ما تنص عليه مواد القانون الشرعي أو القانون الوضعي.

بإطاعة الإنسان لقانون الشريعة يمكنه أن ينجح في تنظيم حياته على الوجه المرضي، وفي إنجاز الغرض الذي خلق من أجله، وهو العبادة بأوسع معانيها : **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** (الذاريات : 56). أو هو التصرف في الدنيا كأنه يعيش فيها أبدا، والعمل للآخرة كأنه يموت غدا : **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾** (القصص : 77).

السير على هدى الشريعة الإسلامية، يساعد الإنسان على راحة البال، وهدوء النفس، ويعينه على العروج في معارج الطهر والرقي، والسمو الروحي، ولكن مخالفتها توقع المخالف - كما أشرنا منذ قليل - تحت طائلة العقاب إن عاجلا أو آجلا، لأن الله تعالى يمهل ولا يهمل. ومع ذلك، لا يقفل - سبحانه - باب الرحمة في وجوه عباده، ولا يريد أن يحرمهم أية فرصة لإصلاح سلوكهم، وتحسين سيرتهم، حينما يتوبون إلى الله، ويؤدون فروض الطاعة كما يجب، ويتوبون توبة نصوحا.

رابعا : القانون الخلقي

كما أن القانون الاجتماعي، امتداد للقانون الطبيعي، فكذلك القانون الخلقي هو امتداد لقانون الشريعة، ومرتبط به أشد ارتباط، ذلك أن قواعد الأخلاق هي - في واقع الأمر - محكومة بقواعد الدين الحنيف، وإن كانت بعض تفاصيل القانون الخلقي، قد وقع تركها لاختيارات الإنسان واجتهاداته.

كل من القانونين الديني والخلقي يهتم بمصالح الناس، ويرعى أحوالهم المادية والروحية، يثيبهم على الحسنات، ويعاقبهم على السيئات : **﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره﴾** (الزلزلة : 8 - 9). وكل من القانونين يحاسب الإنسان لا على أعماله الظاهرة فحسب، بل يحاسبه حتى على بواعثه ودوافعه النفسية، وعلى نياته المتوجهة لاكتساب العمل الصالح، أو المنصرفة لاقتراف الإثم والعدوان. قال سيدنا

عمر بن الخطاب (ض) : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه». القانونان معا يأخذان بيد الإنسان نحو مستقبل حياة أفضل، ويقودانه صوب الكمال الإنساني، ونحو السمو الروحي.

ويجدر بالتنويه والإشادة، كون هذه القوانين الأربعة متداخلة فيما بينها بعض الشيء، وغير منفصلة بعضها عن بعض بحدود فاصلة، أو حواجز منيعة، ذلك أن بعض أسس القانون الاجتماعي ترتكز على أعمدة خلقية، وبعض أحكام القانون الخلقي، تقوم على أسس من علم الاجتماع.

إن هذه القوانين مجتمعة، هي في الحقيقة مزيج رائع من الوصايا والأوامر الربانية، ومن الاجتهادات والتنظيمات البشرية. فيها جميعا يلتقي التعاون الإنساني بالتخطيط الرباني، وذلك بغية إحراز أكبر قسط من الخير العام للمجتمعات، وتحريا لسير الكائنات سيرها الحثيث المنتظم الراشد في طريق الازدهار والفلاح، والرقي الروحي، والتقدم المادي، والسلام العالمي، وهكذا، تكون الحياة البشرية على وجه الأرض، سائرة في تلاؤم وتناسق وانسجام تام، مع ملكوت السماء، والمشيئة الربانية السامية.

ولا يتوافر للإنسانية هذا التلاؤم والتناسق والانسجام، إلا حينما يكون السير في اتجاه مواز لما ترشد إليه هذه القوانين جمعاء. أما حينما تسير البشرية ـ أو طرف منها ـ في اتجاه مضاد مخالف، أي حينما ينحرف العقل الإنساني عن الهداية الربانية، حينئذ يحرم الإنسان بركة الله ونعماءه، وينحدر من مستواه الإنساني، إلى مستوى الوحوش الضواري، ويصبح العالم ـ تبعا لذلك ـ فريسة النزاع، والتطاحن، والحروب واللا أخلاقية المدمرة.

مدارس التشريع الإسلامي

يستند التشريع الإسلامي إلى القرآن المجيد الذي أوحى الله به إلى رسوله، منجما خلال ثلاثة وعشرين عاما تقريبا، ويستند كذلك إلى السنة النبوية الكريمة، التي تشمل أقوال الرسول ﷺ وأفعاله، وأفعال صحابته (ض) وأقوالهم التي كان يشهدها ويسمعها، فيقرهم عليها ولا يستنكرها.

ولنزول القرآن باللسان العربي المبين، ولاشتهار العرب بالفصاحة والبلاغة واللسن والإعراب، ولاهتمام الصحابة بكل ما أتى به الله ورسوله، عكفوا على حفظ كتاب الله ووعيه، وعلى تفهم السنة واستيعابها، واستجابوا لأوامرهما، وانصاعوا لنواهيهما. وكانوا إذا حز بهم أمر، وعرضت عوارض خفي فيها حكم الله، هرعوا إلى الرسول يستفتونه. فكان يفتيهم ويشفى غليلهم بآرائه وأحكامه، وبآي الذكر الحكيم تنزل لتوها لتفصل في القضية.

لكن لما التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وازداد الإسلام انتشارا، وازدادت رقعته اتساعا، وأظل لواؤه أرجاء بلاد الشام والعراق وشمالي إفريقية وغيرها من أقطار الدنيا التي كانت تسودها أنظمة تشريعية، وحضارات مختلفة، حينئذ تعين على الصحابة وتابعيهم وتابعي تابعيهم ـ حيثما كانوا ـ أن يبحثوا ويدققوا البحث، وأن يستنتجوا الأحكام، وأن يقيسوا الأشباه والنظائر، فنتج عن ذلك مصدران آخران للتشريع هما الإجماع والقياس. ونتج كذلك بعض الخلاف بين الباحثين والمشرعين، لكنه خلاف في الوسيلة لا في الغاية، لأن الغاية لم تكن لتختلف، فهي دوما تستهدف العمل على تطبيق كلام الله وسنة رسوله ﷺ بطريقة أو بأخرى، وأدى التخالف إلى ظهور وجهات نظر متعددة، وبروز مناهج في البحث والاستنتاج، دعيت فيما بعد بمدارس التشريع أو المذاهب الفقهية.

وتهمنا في هذا المجال بطبيعة الحال، مدرسة الإمام مالك. بيد أن صورتها قد لا تتضح تماما إلا بإلقاء مزيد من الضوء عليها، وعلى سائر المدارس التشريعية، السنية منها والشيعية على حد سواء، وذلك في جدول زمني ننهج فيه الترتيب التاريخي هكذا :

المدارس السنية

المدرسة	منشؤها	إمامها	مصادر تشريعها	انتشارها	ملاحظات
البصرية	البصرة	أبو سعيد الحسن بن يسار البصري الأنصاري (ولاء) (ت 729/110) هو من التابعين.	الكتاب والسنة والاجماع	قل اتباعها ولم تعمر طويلا	
الحنفية	الكوفة	أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى التيمي (ولاء) تابعي، أخذ عن مالك وتوفي قبله بسجن بغداد 767/150.	الكتاب والسنة والاجماع والقياس والاستصحاب والعرف والاستحسان	العراق والشام وتركيا وإيران وأفغانستان وباكستان وآسيا الوسطى ومسلمي الهند والصين. أتباعه نحو 375 مليون.	تجيز أن تتولى المرأة القضاء في المال فقط.
الأوزاعية	الشام (بيروت)	أبو عمر عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي. عربي. تابعي أخذ عن مالك وتوفى قبله (سنة 773/157).	الكتاب والسنة والاجماع	سادت المغرب والأندلس قبل مذهب الإمام مالك	انقرضت بعد القرن 3 هـ.
السفيانية	الكوفة	أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي. تابعي أخذ عن مالك توفي بالبصرة 777/161.	مثل سابقتها	قل أتباعها فلم تعمر طويلا.	
المالكية	مدينة	أبو عبد الله مالك بن إنس الأصبحي الحميري. تابع التابعين توفي بالمدينة ودفن بالبقيع سنة 795/179.	المصادر الأربعة مع عمل أهل المدينة والعرف والاستحسان والمصالح المرسلة والذرائع والاستصحاب.	الحجاز وبلدان المغرب وموريطانيا وإفريقية السوداء وصعيد مصر والسودان والخليج العربي والعراق وبلاد العجم.	لا تجيز أن تتولى المرأة القضاء اتباعها نحو مائة مليون
الشافعية	العراق ثم مصر	أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعي المطلبي القرشي. تتلمذ على مالك وتمذهب بمذهبه أولا توفي بمصر 820/204 وولد بغزة 150 هـ.	المصادر الأربعة مع الاستصحاب (الاستدلال)	مصر والشام والحجاز واليمن والعراق وإيران وباكستان واندونيسيا والهند والهند الصينية وآسيا الوسطى يبلغ أتباعه نحو 130 مليون.	للشافعي مذهبان عراقي تخلى عنه إلى مذهبه المصري، لا يجيز أن تتولى المرأة القضاء، مثل المالكية.
الحنبلية	بغداد	أبو عبد الله أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني. تابع تابعي التابعين تتلمذ على الشافعي وتمذهب بمذهبه أولا. ضرب وسجن ثم توفي 885/241.	المصادر أعلاه مع الاستحسان والعرف والمصالح المرسلة وسد الذرائع.	العراق والشام ومصر والمملكة السعودية يتولها أتباع في الجزيرة العربية. أتباعها نحو 30 مليونا.	لا تبيح هذه المدرسة أن تتولى المرأة القضاء.
الثورية	بغداد	أبو ثور إبراهيم خالد الكلبي البغدادي تابع تابعي التابعين. أخذ عن الشافعي توفي 860/246.	بعد سنة 300 هـ.	لم يكثر أتباعها فانقرضت	
الظاهرية	بغداد	أبو سليمان داود بن خلف الأصبهاني، تابع تابعي التابعين، أخذ على الشافعي. توفى 883/270.	ظاهر الكتاب والسنة، إجماع الصحابة والعلماء معا، والقياس المستند إلى نص. أما الرأي والاستحسان والتقليد وغير ذلك فمرفوض كله.	بغداد وفارس وبعض الأفارقة والأندلسيين كابن حزم الذي دافع عنها دفاع الأبطال	اضمحلت في القرن 8 وكانت تجيز للمرأة أن تتولى القضاء.
الطبرية	بغداد	أبو جعفر محمد بن جرير الطبري كان تلميذا للإمام الشافعي (ت 923/311).		لم تطل مدتها ولكن شهرة صاحبها أبقت على ذكرها.	بادت في منتصف القرن الخامس

المدارس الشيعية

المدرسة	منشؤها	إمامها	مصادر تشريعها	انتشارها	ملاحظات
الإمامية	المدينة والكوفة	أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر. السادس في ترتيب الشيعة أستاذ مالك بالمدينة وأبي حنيفة في الكوفة تابعي توفي 765/148.	الكتاب بتفسير الشيعة والسنة بروايتهم القياس والإجماع مرفوضان لديهم.	ينتشر المذهب بين الشيعة الإمامية. لا يختلف كثيرا عن مذهب الشافعي. يعتبره البعض مذهبا خامسا. تقرر أخيرا في الأزهر وجامعة الدول العربية معهد البحوث التابع لها.	يجيز المذهب زواج المتعة.
الإسماعيلية	المدينة وظهر المذهب في مصر	الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق الإمام السابع في نظر أتباعه الذين رفضوا تبعية موسى الكاظم أخيه. توفي بالمدينة 762/145.	مصادر التشريع مثل المدرسة الإمامية.	تبنى الفاطميون أولا هذا المذهب. لا تنقسم الإسماعيلية إلى طائفتين غربية في بلاد العرب وفي إفريقية الشرقية وسوريا. وشرقية في الهند وباكستان وإيران وآسيا الوسطى. يرأس الجميع اغا خان كريم (الإمام 49 بعد النبي)، ويدفعون له عشر أموالهم.	يبلغ عدد الاتباع نحو 15 مليونا.
الزيدية	المدينة	زيد بن علي بن الحسين بن علي. الإمام الشيعي الخامس. قتل 740/122.	المصادر مثل سابقتيها غير أنها تقرب من مذاهب أهل السنة.	تألفت الزيدية أواخر القرن الثالث الهجري وتمركزت في اليمن. لا يزال المذهب رسميا بعد الثورة.	الأتباع نحو 3 ملايين.

الإمام مالك ومذهبه

ولد الإمام مالك بالمدينة المنورة، وتوفي بها، ولم يغادرها إلا حاجا إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، ففي المدينة كان منشؤه ومرباه، وفيها كان تعلمه وتعليمه، وفي هذا دليل كاف على محبته لهذه البقعة الطيبة، وكيف لا وهي تحتضن رفات أقدس المقدسين رسول الله ﷺ ؟ كيف لا وهي بؤرة الحركة العلمية في صدر الإسلام، ومركز النشاط والبحث المتجدد المكثف في علوم القرآن الكريم وفي فقه السنة النبوية الشريفة ؟ في هذه البقعة الطاهرة برز هذا الفتى سليل «ذي أصبح» أحد ملوك حمير، فصال وجال، وبز أقرانه حتى قيل في حقه : «لا يفتى ومالك بالمدينة !»، ولم يدرك هذه المنزلة عن طريق الحظ أو الجاه أو الصدفة، بل أدركها عن جدارة واستحقاق، وبذكاء وعرق جبين، فها هو ذا ـ رضي الله عنه ـ يقول : «ما أفتيت حتى شهد لي سبعون محنكا أني أهل لذلك».

أحب ـ رضوان الله عليه ـ هذه المدينة، لأنه أحب حديث رسول الله، وأحب سنته، فكان إذا تصدر مجلسه العلمي، تهيأ لذلك من قبل، بالطهور والوضوء، وجلس في وقار وهيبة عظيمين لأنه كان يقول : «أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ»، في المدينة المنورة كان الإمام مالك (ض) يصول ويجول بكل ما تحمله هاتان الكلمتان من معان روحية سامية، أما المعنى الأرضي الدنيوي المادي فلم يكن يخطر له على بال، لأنه كان يوقر ـ كل التوقير ـ التربة الطيبة التي داستها أقدام رسول الله ﷺ من قبله، كان رضي الله عنه ـ رغم شيخوخته وضعفه، يأنف أن يمتطي في المدينة ظهر دابة، لأنه كان يقول : «لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة».

يعتبر الإمام مالك أستاذ الأئمة أصحاب المذاهب، وتعتبر مدرسته أم المدارس الفقهية السنية على الإطلاق، لأن أرباب هذه المدارس لا يخلو أمرهم من أن يكونوا تلامذته أو تلاميذ تلاميذه، عنه أخذ الأئمة : الأوزاعي،

والثوري، وأبو حنيفة، وإن كانوا التحقوا قبله بالرفيق الأعلى، وعلى يديه تخرج الإمام الشافعي، وبمذهبه تمذهب في بادئ الأمر، ثم عن هؤلاء أخذ الجم الغفير من العلماء والباحثين علومهم ومعارفهم.

ويجدر بالملاحظة أن هؤلاء العلماء المتضلعين في العلم، البعيدي الصيت، والواسعي النفوذ، كانوا أحيانا يختلفون فيما بينهم، «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك»، ويتناقشون في مسائل الفقه والعلم، إما بالمشافهة والمناظرة والجدال بالتي هي أحسن، وإما بالمراسلة فكانت مكاتباتهم أحيانا تتسم بسمة الجدل الخشن، والعنف الحاد، وإما بالمجابهة والتقاتل بين الأتباع، فقد ورد أن الشافعيين قاتلوا الحنابلة في شوارع بغداد، وقاتلوا الحنفيين في أصفهان، وقاتلوا هؤلاء والشيعيين معا في مدينة الري بفارس.

وكان علماء المدينة يهاجمون أحيانا أبا حنيفة وأتباعه، ويعيبون عليهم تجاهلهم أو إهمالهم للحديث، وتبنيهم للقياس، ومغالاتهم في الأهمية التي كانوا يولونها للرأي... وعلى الرغم من أن المعاصرة حجاب كما يقال، وأن هجمات المتنافسين بعضهم على بعض، ينبغي دائما أن تؤخذ بحيطة وحذر، فإن «أهل الرأي» - في الحقيقة - لم يهملوا الحديث النبوي، وإنما كانوا يتحرون فيه الصدق مع الشهرة والتواتر، ويخشون الوقوع في مصيدة الوضاعين المفترين على رسول الله.

لقد اتسمت مدرسة أبي حنيفة بطابع خاص يميزها عن غيرها من المدارس التشريعية، هو طابع اليسر والحرية في إبداء الرأي في قضايا الساعة التي لم يكن حكمها منصوصا عليه في كتاب أو سنة، بيد أن هذه الحرية تعدت الحدود أحيانا بإفراط بعض المؤلفين في استخدامها. واتسمت كذلك بطابع البحث والتحري في متون الأحاديث وأسانيدها، ثم قبولها بعد التأكد من صحتها، فإذا لم يقبل أهل الرأي حديثا ما، ورفضوه، فلأنه لم يصح عندهم بوجه من الوجوه.

وقد خطت هذه المدرسة الحنفية خطوة أخرى في طريق البحث العلمي والتشريع الإسلامي، إذ أضافت مصدرا تشريعيا آخر هو (الاستحسان)، ومعناه أن أية قضية إذا ظهر في شأنها دليل آخر أقوى من القياس، كنص قرآني أو حديثي، أو كالإجماع، حينئذ وجب ترك القياس الظاهر الجلي، إلى دليل أقوى هو الاستحسان الذي أخذ به المالكية والحنابلة أيضا، ورفضه الشافعيون.

كانت مدرسة الإمام مالك تولي الحديث أهمية قصوى، وكان الإمام مالك أول من تصدى للتأليف في فقه السنة والجماعة، فخلف لنا كتابه الشهير (الموطأ) الذي اعتبره بعض العلماء أحد الكتب الستة الصحاح في الحديث النبوي، ويمتاز الكتاب بترتيب وتبويب يتمشيان حسب أبواب الفقه المتعارفة، مما سهل على الطلاب والباحثين مهمة الاستشارة والاستفادة. وقد جمع الموطأ بين سنة النبي ﷺ، وبين عمل أهل المدينة، ذلك العمل الذي كان يعتز به الإمام مالك أيما اعتزاز، وكان لا يفرق بين : السنة وعمل أهل المدينة، وهو محق في ذلك إلى حد كبير، لأن الناس هم في واقع الأمر، تبع لأهل المدينة، التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن، وفيها مقر الأغلبية الساحقة من الصحابة الأجلة، فالمدنيون إذن هم أدرى الناس بالسنة، وبالناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يتعلق بالقضايا الاعتقادية والشعائرية، وبالقضايا الشرعية عموما، دينية ومدنية.

كان الإمام مالك يدقق في اختيار أحاديث الرسول ﷺ، لكن لا من الزاوية التي كان ينظر بها إليها الإمام أبو حنيفة وهي زاوية الشهرة والتواتر، فما تواتر من أحاديث، أخذ به، وما لا فلا، بل من زاوية أخرى هي صحة السند وحسنه، فإذا كان الحديث صحيحا أو حسنا، أخذ به الإمام مالك ولو كان فرديا من خبر الآحاد.

ومما يدل على التحري الصادق في اختيار أحاديث الموطأ، قول مالك (ض) :

«لقد أدركت سبعين ممن يقول : قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين - يعني أساطين مسجد رسول الله - فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن».

كانت مدرسة الإمام تقبل (الرأي) وتعتد به، ولكنها لم تكن تعطيه أكثر مما يستحق من أهمية كما فعل أهل

العراق. ولعل من الطريف أن نذكر أن بعض الشعراء انغمسوا في حمأة الخلافات المذهبية، فها هو ذا أحدهم يدافع عن الرأي والقياس فيقول :

إذا ما الناس يوما قايسونا
بآبدة من الفتيا ظريفة
أتيناهم بمقياس صحيح
تلاد من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها دعاها
وأثبتها بحبر في صحيفة

وها هو ذا الآخر يناهضه ويناقضه قائلا :

إذا ذو الرأي خاصم في قياس
وجاء ببدعة هنة سخيفة
أتيناهم بقول الله فيها
وآثار مبرزة شريفة
فكم من فرج محصنة عفيف
أحل حرامه بأبي حنيفة

وكانت المدرسة المالكية تقبل (الاستحسان) أيضا، لكن في دائرة أضيق مما كان يفعل اتباع أبي حنيفة. وكانت تقبل كذلك ما عرف (بالمصالح المرسلة) التي من شأنها أن تكبح من جماح الحرية المطلقة التي يتطلبها (الاستحسان)، والتي تعتبر دليلا أو مصدرا تشريعيا آخر، نعتمده بشأن قضية ما، حينما لا نجد نصا حولها. ويشترط المالكية للجوء إلى هذا المصدر التشريعي ثلاثة شروط :

1) أن تكون المصلحة **قطعية** بحيث ترتكز على مسائل من المعاملات، تكون معقولة المعنى لا تعبدية.

2) أن تكون المصلحة **كلية** بحيث توافق روح الشريعة الإسلامية، ولا تعارض أي دليل من أدلتها المعتبرة.

3) أن تكون المصحلة إما :

أ - **ضرورية** يراد بها الحفاظ على الدين، أو على النفس، أو على العقل، أو على النسل والأسرة، أو على المال والممتلكات.

ب - وإما **حاجية**، بحيث تتعلق بما تتطلبه الحاجة لأجل صلاح المعيشة.

جـ - فإذا لم تكن المصلحة ضرورية أو حاجية، وكانت **كمالية**، تتعلق بالتحسين والتزيين، فإنها حينئذ لا تقوم دليلا شرعيا، ولا تصلح مصدرا للتشريع.

إن المصالح المرسلة عند المالكية - بالمعنى الذي شرحناه - وكذا (الاستصلاح) عند الإمام الغزالي (الشافعي المذهب)، قد يتفقان مع ما يطلق عليه الرومان قولهم : CORRIGERE JUS PROPTER UTILITATEM PUBLICAM ولكن هذا لا يعني صحة ما يزعمه الزاعمون من أن الشريعة الإسلامية عالة على القانون الروماني، أو أنها اقتبست أو أخذت منه بعض أحكامه. إن نظرة واحدة في خريطة التوزيع المذهبي، ونشأة المدارس الفقهية، ترينا أن المنطقة العربية التي كانت خاضعة - قبل الإسلام لحكم الرومان، لم تكد تنتج في ميدان التشريع شيئا يذكر فيشكر، بينما أنتجت بلاد الحجاز، وبلاد ما بين النهرين - منبت الملك حمورابي صاحب القوانين المعروفة باسمه - الشيء الكثير. ثم إن القانون الروماني قانون وضعي، في حين أن قانون الشريعة الإسلامية قانون سماوي إلهي مقدس، فهما مختلفان مصدرا، ومتناقضان في غالب الأحوال، فإذا اتفقا في بعض المواقف أو الأحكام، فذلك إما من محض الصدفة، وإما نتيجة توارد الخاطر الإنساني مع مقتضيات القانون الرباني.

ونختم الحديث عن مدرسة الإمام مالك بمناقشة لطيفة تنم عن شفوف المدرسة المالكية على ما عداها من المدارس الشرعية. جرت المناقشة بين تلميذين من تلاميذ الإمام، كان أحدهما التحق بأبي حنيفة وصاحبه واعتنق مبادئه وهو الإمام أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة 805/189، وكان الآخر - قبل أن يؤسس مذهبه الخاص - يقتدي بالإمام مالك ويعتنق مبادئه وهو الإمام الشافعي.

سأل الشيباني الشافعي قائلا :

- أيهما أعلم ؟ صاحبنا أم صاحبكم ؟ أجاب الشافعي :

- على الانصاف ؟ قال الشيباني :

- نعم. استأنف الشافعي قائلا :

- ناشدتك الله ! من أعلم بالقرآن ؟ صاحبنا أم صاحبكم ؟ قال الشيباني :

- اللهم صاحبكم. قال الشافعي :

- ناشدتك الله ! من أعلم بالسنة ؟ صاحبنا أم صاحبكم ؟ أجاب الشيباني :

- اللهم صاحبكم. أضاف الشافعي :

- ناشدتك الله ! من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله ﷺ المتقدمين ؟ صاحبنا أم صاحبكم ؟ أجاب الشيباني قائلا :

- اللهم صاحبكم. هنا ختم الإمام الشافعي النقاش وحسمه قائلا :

- فلم يبق إلا القياس، وهو لا يكون إلا على هذه الأشياء، فعلى أي شيء نقيس ؟ وكأني بالإمام الشيباني لم يحر جوابا، فألقى السلاح وانتهى الجدال.

أثر البيئة في الصياغة والصيانة

والآن نعرج على ذكر العوامل البيئية التي لعبت دورها الهام في صيغة المذهب المالكي وصيانته وبقائه على وجه الزمن، فنخص بشيء من التفصيل، العوامل التالية :

1) عامل البيئة الاجتماعية الخارجية :

ويتفرع إلى فرعين :

أولهما : يتمثل في الحظوة لدى الخلفاء والأمراء والحكام، فلا شك أن للحظوة أثرها الواضح في إبراز الدعوة إلى المذهب وممارسة شعائره بكل طلاقة وحرية، أما إذا حدث العكس، فالدعوة تتقلص، ويمارس الناس ما يعرف بالتقية. على أن الحظوة إذا تعارضت مع مبدأ سليم يدعو له الإمام، فإنها تصبح غير ذات قيمة، ويصبح الثبات على المبدأ من أكبر الدواعي لنشر المذهب ورسوخه.

وثانيهما : يتمثل في التلاؤم مع حاجيات المجتمع، وفي التجاوب مع إحساسات الشعب وتطلعاته وطموحه. فمتى توافر التلاؤم والتجاوب، حصل الإقبال على مبادئ المدرسة الفقهية، وما لم يحصل ذلك الإقبال، ضعفت الدعوة، واضمحل المذهب.

2) عامل البيئة الطبيعية الجغرافية :

فحسن التوزيع الجغرافي للمدرسة التشريعية، وحسن التخطيط لنشر تعاليمها الفقهية في بيئات مناسبة، يساعد كثيرا على صيانة المذهب وصموده في وجه الزعازع والأحداث، بينما التفريط في هذا العامل الهام، أو إهماله، يفضي - ولا ريب - إلى عدم الاهتمام بتعاليم المدرسة، وإلى تعريض مبادئها إلى التلف والاندثار.

يذكر العلامة تقي الدين أبو العباس المقريزي (تـ 1.442/846) إن اختفاء مدرسة الإمام الأوزاعي، يرجع السبب فيه إلى سوء التوزيع الجغرافي، فقد جاء ذلك التوزيع - وربما بطريقة عفوية - خارج طرق الحجيج إلى الأماكن المقدسة بالحجاز. ومن ثم اندثر المذهب الأوزاعي، لأن مؤسسه وأنصاره لم يوفقوا في اتخاذ «استراتيجية» ملائمة للدعوة، وفي اختيار مواقع مناسبة للممارسة.

3) العامل التاريخي :

وهو ذو أهمية لا تنكر، في إذاعة مبادئ هذه المدرسة أو تلك، وفي الدعاية لها ونشر مبادئها بين الملأ، وليس من باب الصدفة أن المدارس التشريعية الأربع الباقية، صمدت في وجه التقلبات والعوارض، لأن توزيعها التاريخي الزمني جاء مناسبا معقولا، بحيث نستطيع القول إن كل مدرسة من تلك المدارس، إنما جاءت تلبية لمقتضيات جيل من الناس معين. فالفترة الزمنية بين مدرسة من تلك المدارس، إنما جاءت تلبية لمقتضيات جيل من الناس معين. فالفترة الزمنية بين مدرسة وأخرى، تتراوح بين خمس وعشرين وبين سبع وثلاثين سنة، ومتوسط العددين يمثل متوسط عمر الأجيال في تقدير كثير من الباحثين.

فإذا قلت المدة الزمنية عن عمر الجيل، ضاق المكان - بما رحب - على المدرستين، وحصل بين الاثنتين تطاحن مادي، أو صراع معنوي، يروح ضحيته الجانب الذي لا يقوى على الصمود.

4) عامل البيئة النفسية الداخلية :

وتقسم هذا العامل إلى قسمين :

أ - البيئة النفسية المرسلة :

وتتمثل في مجموع الخصال النفسية الحميدة التي يتحلى بها صاحب المذهب، وفي شخصيته وشخصيات

اتباعه ومريديه، مع ما تتحلى به تلك الشخصيات من تقوى وثبات على المبدأ، وثقة بالنفس، وسمعة طيبة، ونفوذ قوي، وجهود طيبة في سبيل البحث والنشاط والإنتاج في ميادين التأليف والتدريس والمناظرة والجدل، مما يروج - عادة - لمبادئ المدرسة، ويمهد الطريق لنشر تعاليمها في الآفاق.

ولا نتوسع أكثر في هذا القسم، لأن كتب التراجم والمناقب تكفلت به، ويمكن الرجوع في هذا الصدد إلى كتاب (ترتيب المدارك) لمؤلفه المغربي القاضي عياض اليحصبي السبتي.

ب - البيئة النفسية القابلة :

ونتناول هذا المبحث من زاويتين :

أولاهما : زاوية الطلاب والمريدين أثناء طلبهم العلم، وقبل أن يصبحوا دعاة للمذهب ومبشرين به، أي قبل أن يصبحوا - بعبارة أخرى - بيئة نفسية مرسلة. ويجمل بنا هنا، وفي إطار المبادئ التي ألمحنا إليها، أن ننوه بالآتية أسماؤهم :

☆) الإمام يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس الليثي المصمودي المغربي الأندلسي (تـ 849/234). مجاهد ابن مجاهد، جاهد والده فكان في جيش طارق بن زياد الليثي - كما يصفه ابن خلدون - وأعتقد أن البطلين منسوبان معا إلى بني ليث بقبيلة بني حسان القريبة من تطوان، وجاهد الولد جهادا علميا مظفرا فرحل إلى الشرق مرتين أخذ في أولاهما عن مالك ولازمه، وروى عنه موطأه، وعاد إلى بلاده لنشر الكتاب والمذهب معا.

بيئة يحيى النفسية القابلة هي التي جعلته يحرص - أشد الحرص - على مجالس الإمام مالك العلمية، ويلازمها حتى في تلك اللحظة الاستثنائية التي ورد فيها على المدينة فيل، وهرع تلاميذ الإمام لرؤيته ما عدا يحيى.

قال الأستاذ لتلميذه :

- مالك لم تخرج فترى، إذ ليس بأرض الأندلس فيل ؟ أجاب التلميذ إجابته الحكيمة :

- إنما جئت من بلدي لأنظر إليك، وأتعلم من هديك وعلمك، لا إلى النظر إلى الفيل.

☆) الإمام أسد بن الفرات بن سنان النيسابوري الأصل القيرواني الدار (تـ 829/213). سمع ابن الفرات من الإمام مالك كتابه الموطأ، وتلقى تعاليمه، ثم رحل إلى العراق ليعمل مع الشيباني صاحب أبي حنيفة في سبيل المزج بين المذهبين والتقريب بينهما. ثم ذهب إلى مصر، ورجع إلى بلاده ليدون فقه مالك وينشره في شمال إفريقية.

☆) الإمام أبو سعيد عبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون (تـ 854/240) استلم «المدونة الكبرى» التي جمعها ابن الفرات، وبوبها ورتبها، واحتج لبعض مسائلها بالآثار، فكان لها فضل كبير في نشر المذهب في أرض العدوتين : العدوة الإفريقية والعدوة الأندلسية معا.

وثانيتهما : زاوية الأفراد والمجتمعات والشعوب التي استقبلت المذهب المالكي ورحبت به، ولم ترض به بديلا. ويحسن هنا أن نشير إلى العوامل الفرعية التالية :

أ - ذلكم الخيط الروحي الرفيع الممتد من بلاد الحجاز، إلى بلاد المغرب العربي، والرابط بين قلوب المسلمين هنا، وبين مقدساتهم هناك. منذ اعتنق دين محمد ﷺ سكان هذا الجناح الغربي النائي من وطن العروبة، ومنذ اقتنعوا بمبادئه السامية، وقلوبهم تحن، وأسماعهم تصيخ، وأبصارهم تشخص، وبصائرهم ترنو إلى تربة الحرمين الشريفين، آملة أن يحث القدر أقدامها على السير والوصل، رغم شحط الدار، وبعد المزار، لتتمكن الشفاه - آخر المطاف - من أن تقبل كل حجر أو مدر أو شجر، مما تحتضنه تلك البقعة الطاهرة، ولكي تتعهد تلك الرابطة الروحية المقدسة فتزيدها متانة وقوة.

ب - الرحلات العلمية : زيادة على رحلات الحجاج كل عام إلى الحجاز بغية أداء فريضة الحج، شمر العلماء عن ساق الجد، وشدوا رحالهم للتبادل الثقافي، ولطلب العلم والرواية بالسند العالي.

جـ - العامل الثالث يسميه العلامة ابن خلدون : طابع البداوة، بمعنى أن هذا الطابع يغلب على أهل الغرب الإسلامي، كما غلب على أهل الحجاز، فتماثلت حياة الشعبين، وتشابهت معايشهم، ومن ثم طابقت أحوال هؤلاء التشريعية أحوال أولئك ولم تخالفها. وكأني بفيلسوف التاريخ العظيم سها عن أن رسالة محمد الخالدة، وشريعته السمحة، إنما جاءتا للناس كافة، وأنهما صالحتان لكل زمان ومكان.

لذا أرى من الأنسب أن نفسر طابع البداوة هذا، ونترجمه إلى الغريزة أو الفطرة البشرية السليمة، التي تجعل الناس يتشابهون في الخطوط العريضة من حياتهم ومعاشهم، ويتماثلون في سلوكهم، لأنهم جميعا ورثة الإنسانية في كل ما خلفته من خصائص وغرائز وميول وانفعالات ونزعات، ومن شأن هذه أن توحد أكثر مما تفرق.

وختاما أقول : إن شعوب الغرب الإسلامي كانت محقة في التمذهب بمذهب الإمام مالك لتبيين :

1 - أن شعوب المغرب العربي اختارت أن تقصد الأصالة، وأن ترد النبع الصافي أو رأس العين، حينما رحبت بالمذهب المالكي، وتشبثت بتعاليمه.

2 - أن المدارس التشريعية كلها تقريبا عالة على المدرسة المالكية، وأئمتها - كما رأينا - تلاميذ لهذا الإمام أو تلاميذ تلاميذه، وفي هذا ما يكفي لجعل المغاربة يسلكون هذا المسلك الفريد الذي وحد بين شعائرهم الدينية وتعاليمهم المذهبية.

الدكتور : عبد الله العمراني

نداء إلى أساتذتنا وعلمائنا

مجلة دعوة الحق مقبلة على تطوير موضوعاتها وتجديد شكلها استجابة للدور المسؤول والهام الذي تضطلع به بلادنا نصرة لقضايا الامة الاسلامية ودفاعا عن توجهاتها المصيرية.

واذا كان الفكر الاسلامي الذي انشأ حضارة انسانية اعطت للعالم ينابيع متدفقة لا ينضب معينها ارشدته الى الطريق الضامن لتقدمه وتطوره في اجواء يهيمن عليها الهدوء النفسي، وتطبعها الفضيلة والاخلاق المثلى، فان من اكاد الواجبات على مثقفينا ومفكرينا ان يوالوا الاسهام الجاد والمبدع في المسيرة التي تنهض بها امتنا الاسلامية في مختلف اصقاع العالم لكي يبقى عالمنا الاسلامي عالما تظلله الحكمة والفضيلة والتعاون والوئام.

ودعوة الحق وهي توجه هذا النداء الفكري الى اساتذتنا وعلمائنا لتنتظر منهم المشاركة المتواصلة على صفحاتها في مجال الفكر والثقافة الإسلاميتين،



الزاوية المغربية كمنتدى للفكر والاشعاع العلمي

للأستاذ
عبد العزيز بنعبد الله

الحلقة الثالثة

77) - زاوية اللمراني : نسبة إلى الأشراف المرانيين حفدة مولاي هاشم بن علي المثنى بن مولاي علي الشريف (حسب صاحب كتاب الأنوار) (الاستقصا ج 4 ص 7).

78) - زوايا ماء العينين : توجد خاصة في الصحراء وقد أسس السلطان مولاي عبد العزيز بمراكش عام 1314 هـ / 1896م عند قدوم الشيخ ماء العينين عليه زاويتين له في كل من مراكش وفاس وبنى أصحاب الشيخ زاوية أخرى في سلا (المعسول ج 4 ص 93).

79) - زاوية الشيخ محمد بن مبارك الزعري وقد ألحقت بها مدرسة تستاوت بعمالة خنيفرة ورد ذكرها بتقييد لمؤلف مجهول في الترجمة المباركية (خع 726 د) أشار إليه الأستاذ محمد المنوني.

80) - الزاوية المختارية بمراكش : كانت مدرسة تنسب لحم يخه مضافة للأحباس الكبرى ثم حولها سيدي محمد بن عبد الرحمن في خلافته الصغرى وجعلها زاوية للكنتيين (الإعلام للمراكشي ج 8 ص 34 - طبعة الرباط).

81) - زاوية المخفية صاحبها أحمد بن عبد الله معن الأندلسي وهي زاوية الفاسيين بفاس (السلوة ج 2 ص 284 / مقامة في مدحه لمحمد الطيب بن مسعود المريني المتوفى عام 1145 هـ / 1732م أو 1142 هـ / 1729 نشر المثاني ج 2 ص 294 (المقصد الأحمد لعبد السلام القادري ص 31) تاريخ تطوان - داود ج 2 ص 44.

82) - زوايا المغاربة في الشرق.

1) زاوية بغداد لعبد الله بن أحمد بن عبد الله المراكشي الهنتاتي جمال الدين الشافعي وهو شيخ زاوية عمر المجرادي توفي بالخليل (895 هـ / 1489 م).

2) زاوية دمشق : أوقفها علاء الدين بن طية عام

802 هـ / 1399م واشترط فيها أن لا يكون نازلها مبتدعا ولا شريرا (الدارس في تاريخ المدارس ج 2 ص 204).
وتوجد بدمشق أيضا خانقاه خاتون التي أشرف عليها عامل مغربي من سلا هو شمس الدين السلاوي (الدارس ج 2 ص 109).
3) زاوية القدس : أوقفها عمر المصمودي المغربي عام 703 هـ 1303م ثم تولاها بعده العلامة جمال الدين عبد الله المراكشي عام 795 هـ / 1392م وقد تحدث عن هذه الزاوية أبو اليمن محيي الدين في (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل).
(الإعلام للمراكشي ج 2 ص 505)

83) - زاوية ملوكة بمدينة (تيمي) وشيخها من أجداد قاضي ملوكة عام 1323 هـ / 1905م وقد أصدر السلطان مولاي إسماعيل في 29 رجب 1089 هـ / 1678م ظهيرا شريفا لإعفاء هذه الزاوية من الجبايات والزكوات والأعشار والغرامات وكانت الزوايا الأخرى تعفى بظهائر شريفة من كل الفروض الموظفة على أهل الصحراء.

84) - الزاوية الميمونية : توجد في الحقيقة طريق ميمونية صاحبها علي بن ميمون الغماري قاضي شفشاون ودفين جبل لبنان (917 هـ / 1511م).
يوجد كتاب في ترجمته لعبد الحي الكتاني اسمه (الوصل الميمون بأخبار الشيخ علي بن ميمون) أشار إليه صاحب دليل المؤرخ عدد 959.
السلوة ج 1 ص 174 شذرات الذهب ج 7 ص 181 الروض العاطر للنعيمي ص 197 / الرقائق النعمانية ج 1 ص 540 / منتخب من تاريخ قطب الدين النهرواني ص 89 / الدوحة ص 23 / مجلة الحزن عن المحزون في مناقب الشيخ أبي الحسن علي بن ميمون) لعلي بن عطية الملقب بعلوان المتوفى بحماة (936 هـ / 1529م)، له عشرة مصنفات أوردنا مجموعها في كتابنا (الموسوعة المغربية للأعلام الحضارية والبشرية ج 2 ص 129).

منها (رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن) حول أحوال فاس في عصره.

85) - الزاوية الناصرية بالصحراء ولي أمرها الشيخ ابن ناصر موسى بن محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن حسين والد مؤلف الدرر المرصعة (راجع زاوية البركة).
(مسيرة الإخوان) : أرجوزة في سلسلة أشياخ الطريقة الناصرية (307 بيت) لأبي محمد بن علي بن سعيد المكالي، (خع 157 د).
(رسالة طويلة لمحمد بن عبد الله الحمري المراكشي مقدم الطائفة الناصرية زمن الشيخ سيدي أحمد بن ناصر بمراكش أجاب بها سيدي أحمد بن عبد القادر عن رسالته المؤرخة عام 1121 هـ (الإعلام للمراكشي ج 5 ص 18 (الطبعة الأولى) ج 6 ص 15 (طبعة الرباط عام 1975).

86) - زاوية النساك بسلا : بناها أبو عنان المريني (راجع رحلة أبي عنان المسماة : «فيض العباب...» لإبراهيم بن عبد الله المعروف بابن الحاج وهنالك زاويتان مرينيتان أخريان في شالة وانملى بتازة ورابعة بناها يعقوب المنصور المريني عام 684 هـ / 1285م بعد قفوله من جوازه الرابع إلى الأندلس على قبر والده أبي الملوك عبد الحق في (تافرطاست) اختط بها رباط (الاستقصا ج 2 ص 32) وزاوية خامسة بناها أبو عنان المريني للغرباء في سبتة (اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار) لمحمد بن القاسم الأنصاري (المطبعة الملكية بالرباط.

87) - زاوية نورباز : تقع فوق وادي درعة في أعلى الفجاج التي ينطلق منها المجرى الأعلى للوادي وقد بني بها سد المنصور الذهبي.

88) - زاوية سيدي يعقوب بإيلغ : رئيسها الشيخ علي بن أحمد السوسي والد الشيخ محمد المختار السوسي.

89) - زاوية سيدي يوسف التليدي : كانت خديجة بنت سيدي عبد الله الحوات الشفشاوني عمة سيدي

سليمان الحوات تعلم النساء المنقطعات بها وهي تقع بقبيلة (الأخماس) شمالي نهر لكوس حاصرها الجنرال الإسباني (سانخورخو) بعدة آلاف من الجند مع الطيران والمدفعية وناضل رجالها رغم وجود معظمهم في حصار (تازروت) بضعة أشهر قبل احتلال الإسبان لها في 19 يونيه 1922 بعد أن سقط كل من قائدي الجيش الأسباني المغير القبطان (يونس إبليو) و(الطنينطي ثولوبطا).

الرباطات :

أما الرباطات فهي أحيانا أصل ونواة للزوايا وقد تحدث ابن مرزوق الخطيب التلمساني (781 هـ / 1379م) في (المسند الصحيح الحسن - الباب 39) عن الربط أو الرباطات التي أنشأها أبو الحسن المريني على سواحل المغرب والجزائر وكانت إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو بعض ليلة وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحوا من شهرين وفي كل محرس منها رجال مرتبون نظار وطلاع يكشفون البحر فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين إلا والتنفير يبدو في المحارس فأمنت السواحل في أيامه السعيدة.

والزوايا والرباطات بسبتة بلغ عددها سبعا وأربعين منها رابطة الصيد القائمة بالهواء ومنها زاوية أبي عنان المريني للغرباء (اختصار الأخبار كما كان بثغر سبتة من سني الآثار) لمحمد بن القاسم الأنصاري (المطبعة الملكية بالرباط) وقد أطلق عمر بن سليمان السياف اسم الرباط على روضة كان يضع فيها التابوت الحامل لجثمان الشيخ سيدي محمد بن سليمان الجزولي صاحب (دلائل الخيرات) (الاستقصا ج 2 ص 161).

وتوجد رباطات أخرى بالمغرب منها :

- رباط أبي محمد صالح أو رباط أسفي هو نواة مدينة أسفي حيث ضريح أبو محمد صالح تلميذ أبي مرين الغوث (الديباج ص 132 / السلوة ج 2 ص 43).
- رباط (اليميس) بأزمور وقد خدم به أبا شعيب السارية يحيى بن ميمون المصمود وزير السلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (601 هـ / 1204م) (روضة النسرين ص 33).
- رباط أوجدام من بلد ركونة ينتمي إليه الشيخ جلداسن بن إسحاق الركوني (الإعلام للمراكشي ج 3 ص 101 (طبعة 1975).
- رباط الأندلس : اسم (حومة السانية) في أعلى (حومة العيون) يتطوان حيث هاجر الأندلسيون عام 1019 هـ / 1610م وقد تم بناء هذا الرباط في حدود 1020 هـ / 1611م وقد أشار المقري إلى هذه الهجرة في (نفح الطيب ج 2 ص 617 طبعة مصر 1302 هـ / الاستقصا ج 3 ص 101).
- رباط تاساط ينتمي إليه إسحاق بن ويفزان التشوف ص 220 / الإعلام للمراكشي ج 6 ص 435 (الطبعة الأولى).
- رباط تانورت انطبير بدكالة.

كان يقيم به زهاد أمثال زمور بن يعلي الهزرجي (الإعلام للمراكشي ج 3 ص 250 (ط. 1975).

- رباط تشومس قرب العرائش (في مدينة ليكسوس التي بناها الفينيقيون عام 1101 قبل الميلاد) ويوجد هذا الرباط في حارة الأحشيش (المغرب للبكري ص 114) طبعة الجزائر 1887م.
- رباط الخير : إحدى جماعات دائرة تاهلة (إقليم تازة وكانت تعرف قبل الاستقلال (1956) بأهرمومو.
- رباط جواز أو مرسى جوز على ساحل المحيط. (الإعلام للمراكشي ج 1 ص 112، الطبعة الأولى).
- رباط دار ابن قريش.

أسس يوم 29 مارس 1913 برياسة شريف تاكزارت وكان ينوب عنه فيه محمد الخراز ومحمد ولده سيدي الحسن المعروف بشريف تاكزارت.

- رباط شاكر هو شاكر بن عبد الله الأزدي دخل المغرب مع عقبة بن نافع له رباط اندثر رسمه في حدود المائة الثالثة (الإعلام للمراكشي ج 5 ص 132 - الطبعة الأولى) وذكر صاحب السلوة (ج 3 ص 239) أن سيدي شيكر ولد سيدي يعلى بن واصل (وقيل مصلين أحد رجال رجراجة وتلميذ الإمام ابن أبي زيد القيرواني وقد أشار التلمساني في حاشية الشفا والافندي في شرح الشفا إلى لقائهم للرسول

عليه السلام وكذلك شرح الرسالة لأبي الحجاج يوسف الرجراجي الذي نص على حملهم لكتاب نبوي ويدعو المغاربة إلى الإسلام فجمع وسيم المصامدة على هذا الكتاب في موضع شاكر وقد صحح محمد بن سعيد المرغيثي أنهم صحابة في كتابه (سلسلة الذهب المنفوذ) وأنكر ذلك سيدي عبد القادر الفاسي الفهري الذي أجاب بذلك عن سؤال للسلطان المولى إسماعيل (راجع محاضرات اليوسي ص 48).
وبين رباط شاكر ومراكش 85 كلم وقد تحدث عنه ابن الزيات في (التشوف) في ترجمة منية بنت ميمون الدكالي المكناسية التي توفيت بمراكش عام 595 هـ فذكر أنها كانت بهذا الرباط الذي زارته ألف امرأة في عام واحد (التشوف ص 313) ونقل المراكشي (الإعلام ج 7 ص 193) نقلا عن الكتاني أنه توجد بقعة على مسافة نحو ميل من مراكش على ضفة وادي تنسيفت هي مدينة نفيس غزاها عقبة بن نافع وبنى بها مسجدا عام 62 هـ وهو موضع رباط شاكر حيث أقام المولى إدريس الأكبر قبل غزو نفيس وقد جرد سيدي محمد بن عبد الله هذا الرباط عام 1187 هـ / 1173م (راجع المسالك المالك ص 160 / الاستقصا ج 4 ص 115) مجلة المغرب - السنة الخامسة 1355 هـ / 1936م (الإعلام للمراكشي ج 1 ص 234 / ج 5 ص 132).
ويسمى رباط شاكر أيضا برباط عقبة (التشوف ص 413) وهو المعروف اليوم بزاوية سيدي شيكر.
- الرباط الناصري يوجد بمراكش كان يتولى أمره العلامة محمد العوني في العشرة الثالثة من القرن الثاني عشر (الإعلام للمراكشي ج 6 ص 133 - طبعة 1975) وقد أسس مغاربة رباطات في الشرق منها (رباط الموفق) أسسه محمد بن موسى بن عائذ الوانوغي الغماري بمكة حيث قدم عام 780 هـ أو قريبها وهو ابن أربع وعشرين سنة ودخل اليمن وكان يحضر مجلس الشريف عبد الرحمن بن أبي الخير الفاسي (توفي عام 827 هـ / 1423م) (الضوء اللامع للسخاوي ج 10 ص 55 - طبعة القاهرة 1355).

المصادر

ذكر معظمها في صلب البحث وتوجد أيضا مراجع أخرى هي :

- (تعظيم المنة بنصر السنة) في البدع والزوايا والطرق لأحمد بن خالد الناصري (فرغ منه عام 1311 هـ / 1893م).
- (سلوة الإخوان في الرد على أهل الجمود والعدوان) لعبد القادر بن عبد الكريم الشفشاوني / رد فيه على منتقد الطرق بالمغرب (طبع بمصر بدون تاريخ).
- (شرح الطريقة الزروقية لمحمد بن علي الخروبي) دار الكتب الوطنية بتونس ق 97 - س 29 - 19.
(وهي طريقة الشيخ أحمد زروق محتسب الصوفية الفاسي (899 هـ / 1493م) له 47 مصنفا معظمها مخطوط توجد نسخه في مكتبات عربية (راجع أسماءها وأرقامها في كتابنا (الموسوعة المغربية.. ج 3 ص 90).
- (الأنوار السنية في الوظيفة الزروقية) لعبد الرحمن بن محمد العياشي (دار الكتب الوطنية بتونس ق 47 - س 14).
- (طهارة الأنفاس والأرواح الجسمانية في الطريقة الزيانية الشاذلية) خع 14 د (73 ورقة).
لمحمد بن المصطفى بن الحاج البصير القندوسي.
- الزوايا والمولى ادريس (السلوة ج 1 ص 231).
- روض الأنفاس العالية في بعض الزوايا الفاسية) لعبد الكبير بن هاشم الكتاني (1350 هـ / 1931).
- (بغية المستفيد، لأبي المواهب سيدي العربي بن السائح.
- (دوحة الناشر) لابن عسكر (ص 23).
- زوايا تطوان في القرن الحادي عشر (تاريخ تطوان - داود ج 1 ص 305).
- زوايا الرباط (تاريخ الرباط - كاييى ص 518).
- زوايا طنجة (الوثائق المغربية م 2 ص 100 (رقم 1).

1) – Michaux Bellaire – Essai sur l' histoire des Confréries Marocaines Hesperis I (1921).

2) les confréries religieuses au Maroc Arch. Mar. T. 27. Paris champion, 1927.

– G. Drague – Esprrisse d'histoire religieuse du Maroc : Confréries et Zaouïas – Peyronnet et Cie (332 p).

– Maldonado Vasquez, Eduardo

الطرق الدينية بالمغرب تطوان 1932 (51 ص).

– Padilla Rodriguez

(الطرق الدينية بالريف ومختلف طوائف الأشراف

والزوايا والأضرحة) سبتة 1930 (68 ص) (مجلة افريقيا).

Probst – Biraben – Une Confrérie musulmane moderne : les Alaouiya – En Terre d'Islam, 3e trim. 1945.

- راجع حول الطائفة اليوسفية لأحمد بن يوسف الراشدي الملياني تلميذ الشيخ زروق 927 هـ / 1520م) الذي غلا أصحابه وادعوا نبوته وهي طائفة الشراقة التي قتل السلطان الغالب بالله بعض أتباعها دوحة الناشر ص 92 / الاستقصا ج 3 ص 24 / درة الحجال ج 1 ص 87 / السلوة، ج 2 ص 11 / الإعلام للزركلي ج 1 ص 261).

وحول الطائفة الأندلسية المنسوبة إلى الشيخ محمد الأندلسي المتوفي عام 1084 / 1673م وهي فرقة من أدعياء التصوف المبتدعة (الإعلام للمراكشي ج 4 ص 317 - الطبعة الأولى درة الحجال ج 1 ص 167 / الإستقصا ج 3 ص 23).

ولأبي القاسم بن سلطان القسنطيني التطواني كتاب في مجلدين زيف فيه أقوال هذه الطائفة مناضلا عن السنة وهو تلميذ أحمد المنجور (ولد عام 930 هـ/1523م) (درة الحجال ج 2 ص 465).

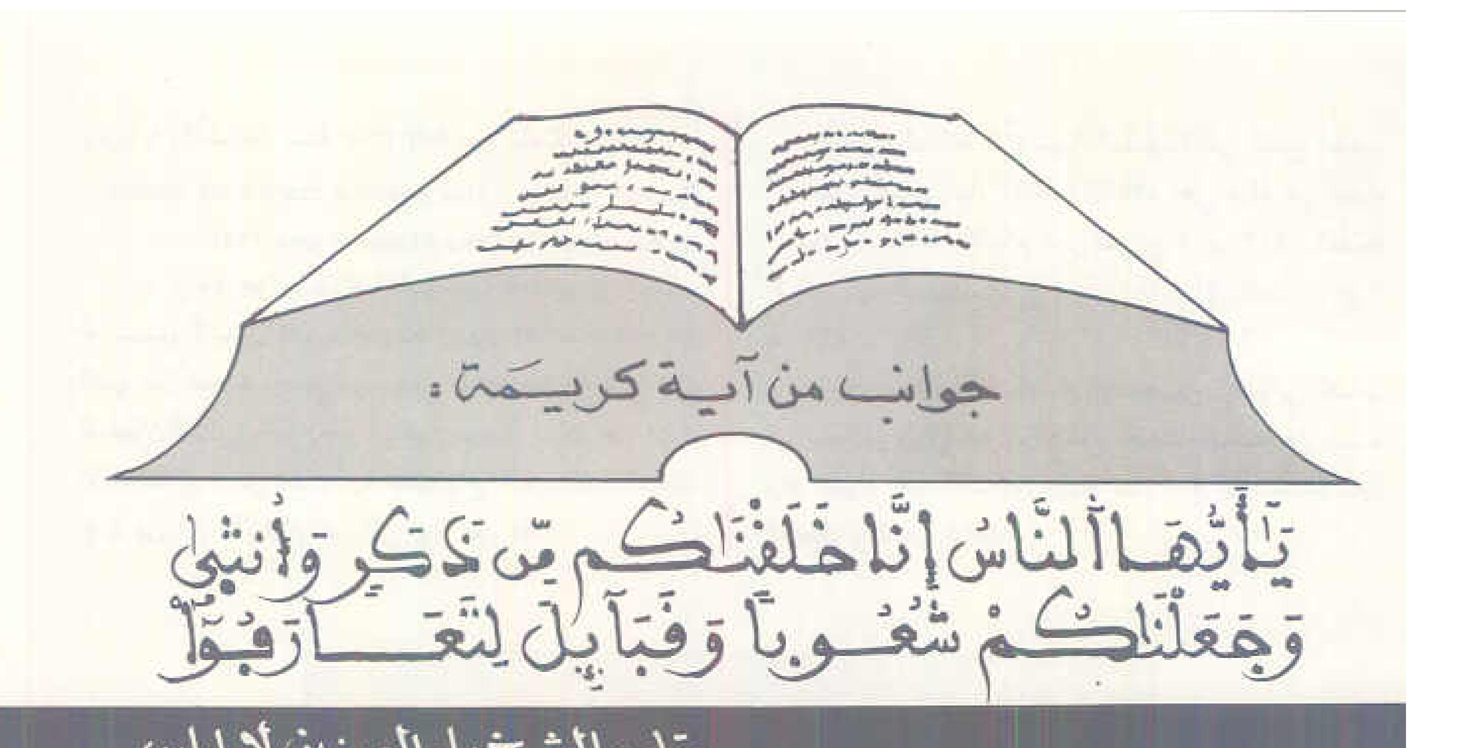
طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

دليل مخطوطات
دار الكتب الناصرية
بتمكروت

إعداد:
الأستاذ محمد المنوني

1405 هـ - 1985 م



بقلم : الشيخ ماء العينين لارابس

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾.

ولما تنطوي عليه هذه الآية كسائر كتاب الله من فوائد جمة اجتماعية وأخلاقية ودينية فنخصص هذا المقال لتفسير البعض من جوانب الآية الكريمة، وقد قسمناه إلى خمسة أقسام هي الآتية :

القسم الأول :

حول ما يتراءى للسامع في صلب الآية من توجيهات إسلامية سامية.

القسم الثاني :

سبب نزول هذه الآية والروايات الواردة في ذلك.

القسم الثالث :

ما يستخلص من سبب نزول الآية.

والأحاديث الشريفة الواردة في تفسيرها.

القسم الرابع :

في بعض ما ورد في فضل التقوى، وذكر درجاته ومعانيه.

القسم الخامس :

استنتاج يبرز بعض ما تدعو له الآية من نشر العدالة والمساوات بين أفراد الأمة.

وما يتضمن ديننا من إيجابيات ويحمل من رحمة ولطف بعباد الله.

فبالرجوع إلى القسم الأول، وهو يدور حول ما يتراءى للسامع في صلب الآية من توجيهات إسلامية سامية : يبدو أن الآية الكريمة تشتمل على ما يدعو إليه الكتاب من روح المساوات، هذا الكتاب الذي يحث الأمة على التراحم فيما بينها. ويركز في أذهانها على أنها من أرومة واحدة.

إذ البشرية من أصل واحد. أبوهم آدم والأم حواء.

كما قال علي كرم الله وجهه :

النـــاس من جهـــة التمثيـل أكفـــاء

أبـــــوهم آدم والأم حـــــواء

نفس كنفس وأرواح مشـــــاكلـــــة
وأعظم خلقت فيهم وأعضــــــــــاء
فـــــإن يكن لهم من أصلهم حسب
يفــــاخرون بــــه فــــالطين والمــــاء

ويتميز فضل البعض على البعض بالتقوى.

فمن تمسك به في حياته فقد ظفر ومن ظهر على سلوكه ظهورا جليا فذلك له مقام السبق، وسمو الكرامة على غيره.

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

وبالرجوع إلى تفسير الآية عند المفسرين يتضح ما تحتوي عليه من أهداف سامية، ومصالح اجتماعية ومعاملات إنسانية، وما تدعونا له من عمل إن نحن طبقناه في مسيرتنا في هذا الوجود، فنحيا حياة طيبة كلها استقامة، وتواضع ومساوات بين أفراد البشر : «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى».

وتحث الآية الكريمة فضائل الناس على التعارف والاتصال وإحياء الروابط الإنسانية من أجل زرع المحبة وتنميتها في النفوس وتقوية التعاون في إطار العلاقات الطيبة البناءة، التي تخلق مجتمعا فاضلا متماسكا متمسكا بدينه، لا كبر فيه ولاكبرياء ولا بغض ولا حسد ولا نميمة ولا تفاخر بأعراق وأنساب.

فضل الواحد من هذا المجتمع المسلم يتلخص في تقواه. فيتق الشر ويجانبه ويصهر نفسه في بوتقة الطاعة والامتثال لولي الأمر. إذ طاعته هي طاعة الرسول، وطاعة الرسول هي طاعة الله وتقواه.

قال عليه الصلاة والسلام : «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعص الأمير فقد عصاني». أخرجه الشيخان.

القسم الثاني : نتطرق فيه للروايات الواردة في سبب نزول هذه الآية، حسبما دون المفسرون.

فأما سبب نزول هذه الآية :

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير﴾.

فقد اختلف في سبب نزولها فقيل إنها نزلت في أبي هند حسبما ذكر أبو داوود في المراسيل، وإليكم القول :

حدثنا عمرو بن عثمان، وكثير بن عبيد قالا : حدثنا بقية بن الوليد قال : حدثني الزهري قال : أمر رسول الله ﷺ : بني بياضة أن يزوجوا أبا هند بامرأة منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ : تزوج بناتنا موالينا.

فأنزل الله عز وجل : **﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا...﴾** الآية.

وبهذا القول قطع الزهري.

وعلى قول آخر أنها أنزلت في ثابت بن قيس بن شماس وقوله للرجل الذي لم يفسح له : أنت ابن فلانة. قال النبي ﷺ :

من الذاكر فلانة ؟

قال ثابت : أنا يا رسول الله.

فقال النبي : انظر في وجوه القوم، فنظر فقال : ما رأيت ؟

فقال : رأيت أبيض، وأسود، وأحمر.

فقال : فإنك لا تفضلهم إلا بالتقوى.

فنزلت في ثابت هذه الآية.

وفي رواية أن سبب نزولها : أنه في يوم فتح مكة المكرمة أمر رسول الله ﷺ بلالا فصعد على ظهر الكعبة، فأذن، وأراد أن يذل المشركين بذلك فلما أذن. قال عتاب بن أسيد :

الحمد لله الذي قبض أسيدا قبل اليوم.

وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا.

وقال سهيل بن عمر : إن يكره الله شيئا يغيره.

وقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئا لتشهدن علي السماء، ولتخبرن عني الأرض.

فأتى جبريل النبي ﷺ وأخبره بما قالوا. فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وفي قول : إن سبب نزولها : أن عبدا أسود مرض فعاده رسول الله ﷺ، ثم قبض فتولى غسله، وتكفينه ودفنه، فأثر ذلك على الصحابة فنزلت هذه الآية.

ذكره الواحدي في أسباب النزول، هذه الروايات

وردت عن أسباب نزول هذه الآية.

القسم الثالث : ما يستخلص من سبب نزول الآية والأحاديث الشريفة الواردة في تفسيرها ويستخلص من أسباب النزول أن القرآن يزجر الأمة على التفاخر بالأنساب وازدراء الضعفاء، وإظهار الكبر الذي جعله الإسلام من كبائر الذنوب.

ويدعو القرآن الإنسان : بأن ينظر إلى أخيه بعين التقدير والإكبار والاحترام، فعلى كل فرد مسلم أن ينقي باطنه من شائبة التسامي على الإخوان وادران الأنانية.

ففي الترمذي عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ، خطب بمكة وقال : «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم الجاهلية وتعاظمها بإبائها. فالناس رجلان : رجل تقي كريم على الله. وفاجر شقي هين على الله».

والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب.

قال الله تعالى : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير**﴾.

خرجه من حديث عبد الله بن جعفر والد علي بن المديني وهو ضعيف وقد خرج الطبري من كتاب آداب النفوس بقوله : وحدثني يعقوب بن إبراهيم. قال : حدثنا إسماعيل. قال : حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة قال : حدثني أو حدثنا من شهد خطب رسول الله ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأباكم واحد ألا لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، ألا هل بلغت، قالوا : نعم.

قال : ليبلغ الشاهد الغائب».

وفيه عن مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم».

وروى البخاري عن أبي هريرة، قال : سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم ؟ قال «أكرمهم عند الله اتقاهم» قالوا ليس على هذا نسألك قال : «فأكرم الناس يوسف بن نبي الله ابن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله» قالو : ليس عن هذا نسألك قال : «فمن معادن العرب تسألوني» قالوا نعم «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا».

هكذا بين الرسول الكريم من خلال الأحاديث السالفة الذكر أن الفضل لا ينال بالنسب ولا بالحسب ولا بالعرق ولا بالمال، وإنما يحصل بالاستقامة والصدق في القول والعمل.

فالناس وإن جعلهم الله شعوبا وقبائل فهم من أصل واحد خلقوا من نفس واحدة، فمنشأهم من طينة آدم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ويتفاضلون في الأعمال الصالحة.

القسم الرابع : بعض ما ورد في فضل التقوى :

لقد نوه القرآن بالمتقين، وذكر الرسول فضل التقوى وما له من مقام سام عند الله في عدة أحاديث متنوعة ألفاظا وأحكاما ووردت آثار كثيرة وسنلمح لذلك باختصار جدا.

قال الله جل جلاله في كتابه العزيز : ﴿**إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون**﴾.

وقال : ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

إلى غير ذلك من الآيات المنوهة بالتقوى والمتصف به وسنورد البعض منها تباعا.

وعنه عليه الصلاة والسلام يحث على التقوى لفضله :

«اتقوا الله. وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم».

أخرجه البيهقي والترمذي عن أبي إمامة، وفي بعض الروايات، وحجوا بيت ربكم، وأدوا زكاتكم طيبة بها أنفسكم.

وعنه عليه الصلاة والسلام : «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة أخرجه أبو داوود والترمذي عن العرباض.

وعنه عليه الصلاة والسلام : «يا أيها الناس اتخذوا تقوى الله تجارة يأتيكم الرزق بلا بضاعة، ولا تجارة، ثم

قرأ : ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية.

وعنه ﷺ : «يا علي إن الإسلام عريان لباسه التقوى ورياشه الهدى، وزينته الحياء، وعماده الورع، وملاكه العمل الصالح، وأساس الإسلام حبي وحب أهل بيتي».

أخرجه ابن عساكر عن علي.

وللتقوى عدة معان في القرآن :

1) فتأتي بمعنى الخشية.
2) وترد بمعنى الإيمان.
3) وتتضمن معنى التوبة.
4) وتارة تأخذ معنى الطاعة.
5) وأحيانا تكون بمعنى ترك المعصية.
6) وتتناول معنى الإخلاص في بعض السياق.

وهذه المعاني وجدتها في كتاب شيخنا الشيخ ماء العينين سهل المرتقى في الحث على التقوى بالطبعة الحجرية.

ففي معنى الخشية قال في أول النساء : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا﴾.

ومثله في أول الحج.

وفي الشعراء.

﴿إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون﴾.

يعني ألا تخشون الله.

وكذلك قال هود، وصالح، ولوط، وشعيب لقومهم.

وفي العنكبوت قال إبراهيم لقومه : ﴿اعبدوا الله واتقوه﴾. يعني اخشوه.

وكذا قوله : ﴿واتقوا الله حق تقاته﴾.

وتزودوا فإن خير الزاد التقوى.

﴿واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا﴾.

وبمعنى الإيمان قوله تعالى :

﴿وألزمهم كلمة التقوى﴾. أي التوحيد.

﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى﴾.

وفي الشعراء : ﴿قوم فرعون ألا يتقون﴾ أي ألا يومنون.

بمعنى التوبة.

ففي قوله تعالى : ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا﴾، أي تابوا ومعنى التقوى هي الطاعة.

فقوله تعالى في النحل :

﴿أن انذروا أنه لا الاه إلا أنا فاتقون﴾.

وفيه أيضا : ﴿أفغير الله تتقون﴾.

وفي المومنون : ﴿وأنا ربكم فاتقون﴾ أي أطيعون.

وأما ترك المعصية فقوله :

﴿وآتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله﴾ أي لا تعصوه.

وأما في الإخلاص :

فقوله تعالى في الحج :﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي من إخلاصها.

وكذا قوله : ﴿وإياي فاتقون﴾.

وهذه المعاني كلها تدعو إلى الطاعة والخشية والإخلاص وقوة الإيمان لسمو مقام التقوى عند الله.

فعن ابن عباس أنه قال : «من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق مما في يده».

وقال علي كرم الله وجهه :

«التقوى ترك الإصرار على المعصية، وترك الاغترار بالطاعة».

وقال الحسن : التقوى أن لا تختار على الله سوى الله، وتعلم أن الأمور كلها بيد الله».

وقال إبراهيم بن أدهم : التقوى أن لا يجد الخلق في لسانك عيبا، ولا الملائكة في أفعالك عيبا، ولا ملك العرش في سرك عيبا».

وقال الواقدي : التقوى أن تزين سرك للحق كما زينت ظاهرك للخلق».

ويقال التقوى : أن لا يراك مولاك حيث نهاك.

والتقوى معناها شرعا : الاجتناب عن مضرة الدنيا والآخرة.

وللتقوى عرض عريض، يقبل الزيادة والنقصان، أدناها الاجتناب عن الشرك، وأعلاها صيانة النفس عما يوجب العقوبة من فعل أو ترك.

وقيل هي اجتناب كل ما يبعد عن الله.

وقال عمر بن عبد العزيز :

«التقوى ترك ما حرم الله، وأداء ما افترض، فما رزق بعد ذلك فهو خير إلى خير».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه :

يريــــد المرء أن يعطى منـــــاه
ويــأبــا اللـــه أفضل إلا مـــا أرادا
يقــول المرء فـــائـــدتي ومـــالي
وتقــوى اللــــه أفضل مـــا استفـــادا

وتتلخص التقوى وتنحصر في :

امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ظاهرا وباطنا وإلى ذلك أشار الإمام بن عاشر رحمة الله عليه بقوله :

وحــاصــل التقـوى اجتنــاب وامتثـــال
في ظـــاهر وبـــاطن بـــذا تنـــال
فجـــاءت الأقـــسام حقـــا أربعـــة
وهي للســـالـــك سبــل المنفعـــة

وفي تفسير بن جـزي درجـات التقـوى خمس : أن يتقي العبـد الكفر وذلـك مقـام الإسـلام، وأن يتقي في المعاصي والمحرمات وهو مقام التوبة، وأن يتقي الشبهات وهو مقام الورع، وأن يتق المباحات وهو مقام الزهد، وأن يتق خطور غير الله على قلبه وهو مقام المشاهدة.

وقـد حضر الشيـخ محمـد العـاقب ابن مـا يـابى الشنقيطي صاحب التآليف المفيدة مجلس شيخنا الحدفي الصارة وهو يعطي درسا حول التقوى ودرجاته وقال ناظما ما سمع :

حضرت مجلس إمــــــام النصحـــــــا
مـــاء العيـون بعــــد أن صلى الضحى
يحـــدث النـــاس بـــدين أحمـــد
وهـو يقـول جـالســا في المسجــد
إن التقى وهـــو أعـــز مـــا اكتسب
ذو عمـــل يـــأتي على خمس رتب
تقي يخلص من الخلـــــــــــودي
وهـو اتقـــاء الشرك بـــالمعبـــودي
ومـــا يقي الـــدخـول في الجحيم
هـــو اتقـــاء الـــزلـــل العظيم
ومـــا ينجي من عـــذاب الملم
في قبره هـــــو اتقـــــاء اللمم
ومـــا بـــه الخير ينـــال في الـــدنـــا
هـــو اتقـــاء الشبهـــات والخنـــا
ومـــا بـــــه تستجلب الأفراح
هـــو اتقـــاء بعض مـــا يبـــاح
فملت مصغيـــا لمـــا حكـــاه
وصـــافحت يـــديتي يـــداه
فعـــاده علي حتى استكمـــلا
حـــديثـــه كمـــا بـــداه أولا

وقـد جـاء في مـدح التقـوى كثير من الأثر لأهميته. ولكونه من أعظم أركان الدين وأجل مقامات السالكين.

وقد كرر الله تعالى في كتابه الكريم الوصية بالتقوى ومدح المتقين في عدة آيات من كتابه العزيز.

فمن ذلك قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته﴾.

وقوله تعالى :

﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾.

وقوله تعالى :

وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾.

وقـولـه : **﴿يـا أيهـا الـذين آمنـوا إن تتقـوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم﴾.**

وقوله تعالى :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

وقوله تعالى : **﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾.**

وقوله تعالى :

﴿سـارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنـة عرضهـا السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

وقـال عليـه الصـلاة والسـلام : «اتـق اللـه حيث مـا كنت».

وقال ﷺ : «اللهم أني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى».

وقال صلوات الله عليه : «عليك بالتقى فإنها جماع كل خير».

القسم الخامس والأخير : يبرز بعض ما تدعو له الآية من نشر العدالة، والمساواة بين أفراد الأمة وما يتضمن ديننا من إيجابيات ويحمل من رحمة ولطف بعباد الله.

أقول : إن من تدبر معنى هذه الآية الكريمة : ﴿**يا أيها الناس إنا خلقناكم...**﴾ وعاش بفكره وجميع حواسه ما كانت تعاني منه سكان الجزيرة العربية وغيرها في كثير من أقطار الدنيا في تلك الحقبة التي نزلت فيها الآية من تخلف في جميع مظاهر الحياة يجد أن الإسلام كان سباقا في نشر المثل العليا والقيم السامية، وفي إرشاد البشرية بأن تعيش في مساواة وحرية يطبعها الاحترام ويسودها التقدير المتبادل مع أن الإسلام ينزل الناس منازلهم كل حسب مقامه، ودوره الذي يقوم به في الحياة وما يسديه لأمته ووطنه ولا يقبل الإسلام من المومن المتشبث بالرسالة المحمدية بأن يكون عنصريا. ولا يرضى منه التزمت على اعراف بالية، ومفاهيم خاطئة لا تقيم للإنسان وزنا.

فالرسول المشرع الهادي إلى الطريق المستقيم نراه زار عبدا مريضا كما سبق ذكره وعندما حضرته الوفاة غسله ﷺ ودفنه.

في بعض الروايات.

والقصد واضح، ليبين عليه الصلاة والسلام لصحابته ما تنطوي عليه هاته الرسالة من هضم النفس وما تدعو له من تواضع، وما تنادي به من إسعاف المسلم لأخيه المسلم، وترشد له من إعانته وإظهار العطف عليه. حيا أو ميتا.

وفي عمله هذا ﷺ، هدم لتلك المخلفات الجاهلية البالية التي تمجد العرق وتحمي روح العصبية التي يمقتها الإسلام وينبذها.

ويبرز أن الفضل في الإسلام ينحصر في التقوى.

﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾.

وقيامه ﷺ، بهذا العمل فيه توجيه للأمة وتربية لها لما يتجلى فيه من نكران الذات وهضم النفس وسمو الأخلاق، ومرونة التربية الإسلامية ليوجه الأمة الوجهة الصالحة ﷺ.

فهو عليه الصلاة والسلام بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وهو ﷺ، خير مثل يحتذى. وهاد يتبع.

وإن لم تفعل فما بلغت، لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ورسالته ﷺ بنت أمة، وكونت حضارة، ونشرت مدنية، وشع نورها في كثير من اصقاع الدنيا شرقا وغربا. وساهمت مساهمة فعالة في نقذ كثير من البشرية. مما كانت تتردى فيه من مساوئ التخلف والانحراف، ومتاهات الزيغ والضلال.

وزيادة على ما في هذا الدين من أخلاق رحمانية وما يحمل من رسالة إنسانية فهو دين لطف وسماحة ورأفة بعباد الله.

قال الله تبارك وتعالى :

﴿**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**﴾. الآية. وقال : ﴿**ومن يعمل سوءا ويظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما**﴾. وقال : ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾. وقد وصف سبحانه نفسه بأنه : غفور - رؤوف - حليم - رحيم - لطيف - عفو - كريم ومن يغفر الذنوب إلا الله.

وفي بعض الأثر عن أبي ذر عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب ولا أبالي. فاستغفروني أغفر لكم».

«يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم».

«يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم».

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد لم ينقص ذلك من ملكي شيئا».

«يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا في صعيد واحد يسألوني فأعطيت لكل واحد ما سأل، لم ينقص ذلك للملك شيئا. إلا كما ينقص البحر إن دخل المخيط فيه غمسة واحدة».

«يا عبادي إنما هي أعمالكم أحفظها عليكم فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثى على ركبتيه.

وقال أحمد بن حنبل : «ليس عند أهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث». وفي الأثر أيضا : «يخرج من النار يوم القيامة من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال ذرة من خير».

وفي جامع الترمذي، قال النبي ﷺ، قال الله تعالى :

«يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك. على ما كان منك ولا أبالي».

«يا ابن آدم إنك لو أتيتني بتراب الأرض ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بترابها مغفرة».

وقال ﷺ : «حياتي خير لكم، وموتي خير لكم.

أما حياتي فأسن لكم السنن، وأشرع لكم الشرائع وأما موتي فإن أعمالكم تعرض علي فما رأيت منها حسنا حمدت الله عليه. وما رأيت منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم».

فعلينا نحن معشر المسلمين أن نستكنه حقيقة هاته الرسالة وندرس أهدافها العالية، ومراميها السامية ونكرس الجهد لمعرفة ما تحتوي عليه من قيم مثلى، وما تتطلبه منا من سعي حثيث لزرع المحبة في النفوس، وصرف الهمم إلى العمل الخلاق والاستقامة في السلوك، والإخلاص في العمل، والطاعة لولي الأمر والتعاون على البر والتقوى، والتضامن والاتحاد والانسجام وتضافر الجهود من أجل البناء والتشييد، وبذل كل الطاقات الحية لنشر الرحمة بين أبناء المجتمع والانكباب على ما يعطي مردودية نافعة والجد في العمل، وحفظ الأمانة، والإخلاص لله ولأمير المومنين والتمسك بواجب النصح لعامة المسلمين وصفاء الود لهم، والحرص على الأخذ بيد الضعيف ومراقبة النفس، وكفها عن محارم الله، والصبر عند الشدة ومعاملة الناس بالتي هي أحسن، والدعوة إلى الله بالأسلوب الشيق.

ففي الخبر (لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم) وقال ﷺ : والذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المومن من الوالدة الشفيقة بولدها.

وقال ﷺ : أحب أن يعلم أهل الكتابين، أن في ديننا سماحة.

ففي الدعوة إلى الله بالأسلوب الإيجابي خدمة للدين ودفع لكثير من الأقوال التي نعت بها أعداء الدين الإسلام فرموه بالتطرف، واتهموه بالتزمت وتقولوا فيه بالتعصب، وهو براء من ذلك كله.

فديننا دين رحمة وعدالة، ييسر ولا يعسر ويبشر ولا ينفر.

روى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ، كان يقنت على المشركين ويلعنهم في صلاته، فنزل عليه قوله تعالى : ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ فترك الدعاء عليهم. وهدى الله تبارك وتعالى عامة أولائك للإسلام.

فلننظر إلى لطف الله بخلقه. ووافر كرمه وعظيم آلائه، ومن أجل نعمه التي لا تحصى على عبيده أن يهديهم للإيمان ويسلك بهم سبيل المسلمين المتقين.

عباد الله

إذا نحن لم نتعارف، ونتواصل ونتذاكر فكيف ينصح بعضنا البعض حتى يؤدي عنه واجب النصح نحو أخيه المومن.

المومن مؤتمن وتجب عليه النصيحة.

ففي تبادل الرأي وطرح الأفكار بين الإخوان بأسلوب يدعو إلى سلوك الصراط المستقيم، وخدمة الدين، والتمسك بالإخلاص للمقدسات الوطنية إنعاش للحركة الفكرية الإسلامية وبعث للسلفية النقية التي يدعو لها سيدنا في نطاق وحدة المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية.

فمن فضل الله علينا نحن أبناء المملكة المغربية بأن جعلنا متمسكين جميعا بمذهب إمام دار الهجرة، وبمعتقد أهل السنة والجماعة، ذلك المعتقد الذي يتبلور في العقيدة الأشعرية، الشيء الذي وحد نظرتنا في الدين وسلك بنا سبيل السلفية الصحيحة بفضل محافظة هذا الشعب المغربي المسلم بقيادة ملوك العرش العلوي الأماجد والجالس عليه باعث النهضة الإسلامية، وناشر روحها في إطارها الصحيح

وفق الكتاب والسنة في كثير من المعمور المجدد أمر هذا الدين سيدنا ومولانا أمير المومنين وحامي حمى الوطن والدين جلالة الملك الحسن الثاني أمد الله في عمره وخلد في الصالحات ذكره.

فلنبقى محافظين سالكين المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، ونقي أنفسنا من التيارات التي تنسب نفسها للدين، وقد أحدثت فيه ما ليس منه.

ونأخذ حذرنا من الإديولوجيات التي تحاول أن تغزو المسلمين في عقر دارهم، لتبعدهم عن السبيل السوى والصراط المستقيم، ولنكن لأولائك المشعوذين بالمرصاد داعين إلى الله بالتي هي أحسن.

إن المسلمين اليوم في أمس الحاجة للرجوع إلى دينهم والتخلق بأخلاق نبينا والتمسك بطريقه.

فالواجب يدعونا بأن لا نترك الوقت يعمل ضد مبادئنا وأصالتنا وقيمنا.

وأنتم المسلمون الواعون أجدر من يتنبه لهذا، فناقوس الخطر دق بما يهدد الدين الصحيح من تفشي الخلاعة والانحلال في كثير من بلاد العالم.

ومن المشعوذين المتطرفين واللادينيين، فعلينا أن نواجه كل أولائك بالتي هي أحسن لنكف شبح خطرهم الذي يناهض القيم الإنسانية، ويهدر كرامتها وينال من حرمتها.

إن المزالق التي نرى عليها ويا للأسف كثيرا من هذه المجتمعات البريئة، والتي أشهر عليها المضللون سلاحا من الأفكار الفتاكة بالأخلاق والفضيلة وسلط عليها أصحاب الأهواء سهاما من سموم أفكارهم الهدامة المنحرفة جعلتها تعاني من أمراض الأخلاق وأوبئة الانحراف.

فلا مناص من مبادرة العلاج باللطف واليقظة الكاملين وحسن استعمال الدواء لاستئصال جذور الداء، ولابد من استمرارية العمل من أجل إصلاح الأمة في جميع مجالات الحياة.

قال سيدنا أعزه الله ونصره في رسالة جلالته التي وجهها لكافة المسلمين بمناسبة مطلع القرن الهجري الخامس عشر :

(إذا أردنا تدارك ما فات والتغلب على المصائب والأزمات فعلينا أفرادا وجماعات أن نستعمل رصيدنا من الوقت أحسن استعمال في جميع الظروف والأحوال).

فمن لم يعمر الوقت بوضع لبنات جديدة في صرح الحضارة والعمران واتكل على جهود من سبقوه من بني الإنسان ولم يحاول أن يكون في تقدم مستمر بفضل طاقته الفكرية ومدخراته من الوقت، لم يلبث إلا قليلا حتى يصبح في تأخر مطرد يهوى به إلى الهاوية.

ونحن كلنا تفاؤل وأمل باسم، إنه بالحرص على تهذيب النفس، وحملها على أن تغير حياتها لما يسمو بها، وبالرجوع إلى تربية الناشئة تربية دينية وأخلاقية باعتبار ما قد سلف من النصائح والعمل به فإننا لا محالة سنصل إلى الهدف المنشود من تقدمنا أخلاقيا وماديا وروحيا، فالمحال لا يوجد إلا في قاموس الجبناء، كما قيل.

وليس درك ما نأمله بعزيز على أمة يقودها ولد الرسول وخليفته أمير المومنين جلالة الملك الحسن الثاني، الذي بعلمه وحصافة رأيه وغيرته على القيم الإنسانية والدين الإسلامي، وبعبقريته النادرة انتزع إعجاب العالم وإكباره على مختلف اتجاهاته وميولاته، ولا غرابة في ذلك فجلالته هو المجدد لدين الرسول الكريم في إطاره الصحيح، وعليه كل الدول الإسلامية تعقد آمالها الجسام في وحدة صفها والتئام شملها ورأب صدعها وإحلالها المكانة اللائقة بها.

فنرجو من الله أن يحقق بجلالته ما تصبو إليه الأمة الإسلامية والعربية من عزة ومناعة وكمال، ويمتع جلالته ببلوغ المأمول حتى يجد الأمة ترفل في ثوب العز والمجد والكمال، متحلية بامتثال ما جاء به الكتاب والسنة، شادة أنظار العالم إليها بما تتحلى به من الأخلاق الحميدة والفضائل الرفيعة والمكارم النبيلة، والشمائل الحميدة، وأن يهزم بجلالته جند الملحدين والطغاة الضالين والصهاينة المتجبرين، ويحرر به وعلى يديه أولى القبلتين وثالث الحرمين، ويقر عينه بولي العهد المحبوب الأمير سيدي محمد وبصنوه الرشيد الأمير مولاي رشيد وكافة الأمراء والأميرات.

إنه مجيب الدعوات، وجالب الخيرات، ودافع المضرات. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

ماء العينين لاراباس



للأستاذ سعيد أحمد أعراب

هنـاك كثير من الرسـائل المرابطيـة، بعضهـا نشر، وبعضها لم ينشر بعد، ومن ذلك رسالتان :

1 ـ إحداهما من قاضي المرية (ابن الفراء) (1) ـ إلى يوسف بن تاشفين.

2 ـ والأخرى من علي بن يوسف ـ إلى أهل المرية في شأن قاضيهم : أبي الحسن ابن أضحى.

وتشير الرسـالـة الأولى إلى أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ـ لما عزم على الجهاد بأرض الأندلس، كتب إلى قضاة الجهات بالبلاد الأندلسية والمغربية ـ يطالبهم بجمع معونة مالية، مساهمة في أداء واجب الجهاد، وتـذكر تلك الرسائل الدورية أن أمير المسلمين استفتى فقهاء العدوتين، فأفتوه بجواز ذلك، لكن قاضي المرية أبا عبد الله محمد بن يحيى بن زكرياء المعروف بـابن الفراء أبى ذلـك، وأجـاب بـالرفض والطعن في فتوى الفقهـاء ـ وهـو من عرف بعلمه ونزاهته، استشهد في غزوة قتندة سنة (514 ـ 1120) (2).

نص الرسالة الأولى :

ونص الرسـالـة ـ وقـد وقفت عليهـا مخطـوطـة في «الجواهر المختارة (3) للزياتي : بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

الحمد لله الذي إليه مآبنا، وعليه حسابنا، أما (بعد) : (4) ما ذكره أمير المسلمين من ابتغاء المعونة،

---

1) تحرف في الاستقصا 53/2 ـ بـ (ابن البراء).

2) انظر في ترجمته الصلة رقم (1261).

3) والعنوان الكامل : «الجواهر المختارة، مما وقفت عليه من النوازل بجبال غمارة» ـ (مخطوطة خاصة).

4) سقطت كلمة (بعد) في الأصل، والمعنى يقتضيها، وهي ثابتة في وفيات الأعيان 118/6، وفي الاستقصا 53/2 (وبعد : فقد بلغني).

وتأخرى عنها، وقوله : قد أفتى أبو الحسن (5)، وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة (والأندلس) (6) - باقتضائها (7)، وذكروا أن عمر بن الخطاب - ض - صاحب رسول الله - ﷺ - ووزيره، وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، - فلست - يا أمير المومنين - بصاحب رسول الله - ﷺ - ولا وزيره، ولا تكون ضجيعه في قبره، وقد شك في عدلك، على أن عمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - ما اقتضاها حتى دخل مسجد رسول الله - ﷺ - بحضرة أصحابه - رضوان الله عليهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك منزلته في العدل، فالله حسيبهم على تقلدهم (فيك) (8).

فليدخل أمير المسلمين الجامع بحضرة أهل العلم (9)، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم (ينفقه) (10) عليهم (11)، والله على ذلك شهيد والسلام.

وقد أورد هذه الرسالة كل من ابن خلكان في وفيات الأعيان (12)، والناصري في الاستقصا (13)، مع اختلاف يسير، وقد أشرت إلى ذلك في الهوامش.

ولم يشر واحد إلى تاريخ صدورها، وربما يدلنا سياق الحديث الذي أوردها فيه ابن خلكان على أن كتابتها كانت بعد وقعة الزلاقة - مباشرة - أي في حدود سنة (479 - 1086) (14).

5) ولعله يعني به أبا الحسن علي بن حمدين، من كبار فقهاء قرطبة ومفتيها (ت 482 - 1079) ترجمته في الصلة رقم (900)، وفي المصدرين السابقين (أبو الوليد الباجي)، وربما كان غير مناسب، فالباجي توفي سنة (474 - 1081) - أي قبل موقعة الزلاقة بنحو خمس سنوات، ولم يكن يوسف بن تاشفين استولى - بعد - على الأندلس حتى يخاطب قضاتها في شأن المعونة - كما لا يخفى.

6) سقطت كلمة (والأندلس) في الأصل والمعنى يقتضيها وهي ثابتة في المصدرين السابقين.

7) في الاستقصا : زيادة (فالقضاة والفقهاء - إلى النار دون زبانية).

8) سقطت كلمة (فيك) في الأصل.

9) في الوفيات : (هناك بحضرة أهل العلم) وفي الاستقصا : (بحضرة من هناك من أهل العلم).

10) كلمة (ينفقه) ساقطة في الأصل.

11) في الاستقصا زيادة (وحينئذ تستوجب ذلك).

12) الوفيات 118/6.

13) الاستقصا : 54/2.

14) الوفيات 118/6.

ويذكر صاحب الاستقصا من نتائج هذه الرسالة أنه لما بلغ أمير المسلمين كتاب قاضي المرية هذا اقتنع بذلك، ولم يفكر - بعد - في شأن المعونة، أو على حد تعبيره : (وعظه الله بقوله، ولم يعد عليه في ذلك قولا - والأعمال بالنيات) (15).

ولعل ذلك ما جعل صاحب القرطاس يقول - في معرض الإشادة بأعمال يوسف بن تاشفين - واللمتونيين بعامة، وفي جملة ذلك : الاقتصار على الموارد الشرعية من زكوات، وأعشار، وجزية أهل الذمة، وأخماس غنائم المشركين : (...لم يجر في عملهم طول أيامهم - رسم مكس، ولا **معونة**، ولا خراج لا في بادية ولا في حاضرة) (16) - عكس ما كان يجرى بعدوة الأندلس في عهد ملوك الطوائف، فعظم ثراء يوسف بن تاشفين وكثر ماله، فقد جبى من الأموال ما لم يجبه أحد قبله، فلما مات، وجدوا في بيت ماله ثلاثة عشر ألف ربع من الورق (الفضة)، وخمسة آلاف وأربعين ربعا من دنانير الذهب (17)، حتى قال بعضهم : إن هذه الثروة الطائلة من الذهب والفضة تقوم بعدة ملايين (18).

أما الرسالة الثانية، وقد أوردها السلفي في معجمه - السفر (19)، فهي رسالة علي بن يوسف إلى أهل المرية - وقد عزل قاضيها أبا الحسن علي بن أضحى الذي ولي بعد وفاة سلفه (ابن الفراء) - الآنف الذكر.

نص الرسالة الثانية :

ونص الرسالة - بعد البسملة - كتابنا - زكي الله أعمالكم، وكفر عنكم سيآتكم وأصلح بالكم، من حضرة مراكش - حرسها الله - بعد أن نمي إلينا، وتقرر لدينا - أن الجهول ابن أضحى أجهل بأحكام القضاء من العلجوم (20)، إذ قد أظهر فيكم أحكاما يترحم فيها على سدوم (21)، وقد

15) الاستقصا 54/2.

16) انظر روض القرطاس 94/2 - طبع الرباط.

17) انظر السعادة الأبدية 89/2.

18) انظر يوسف أشباخ 119/1.

19) مخطوط خزانة (عارف حكمت) - بالمدينة المنورة ص 121 - 122 وانظر أخبار وتراجم أندلسية لإحسان عباس ص 78.

20) العلجوم : الثور المسن، أو الحمار.

21) سدوم قاضي يضرب به المثل في الجور والظلم.

جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم، وقلدناه خطة الشوم (22)، ونبذناه ـ دون أن تدركه نقمة من ربه ـ بالعراء وهو مذموم، ولعل متعسفا يتعسف، وجائرا لا ينصف (23)، يلومنا في تقديمه، وينالنا من العتب بأليمه، فقد (24) اختار رسول الله ـ ﷺ ـ لوحي الله لعين (25) بني سرح، واغتر عثمان بحمران (26)، ولسنا أول من خانه القياس، ومن لم ياته من الغوير باس (27)، والله يعصمنا من الناس ـ إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأورد ابن عذاري (28) نفس الرسالة في ابن ملجوم ـ قاضي فاس، ويحدد تاريخ صدورها بسنة (528 ـ 1143).

فالتاريخ يحتملهما ـ وقد عاشا نفس الفترة، وولي كل قضاء بلده، وعزل على يد علي بن يوسف بن تاشفين، لكن سيرتهما المثلى، وشهرتهما بالعلم والنزاهة، تجعل الرسالة لا تنطبق على أي منهما، فكتب التراجم مطبقة على التنويه بهما، والإشادة بعلمهما وفضلهما، ولنقتصر على ما يقوله في حقهما ابن عبد الملك المراكشي ـ وهو من هو في تحريه ونقده النزيه ـ يقول في ابن ملجوم ـ وهو أبو محمد عيسى بن يوسف الأزدي الفاسي : (... كان محدثا حافظا، راوية مكثرا، **عدلا ثقة، ضابطا، فقيها ذاكرا للمسائل**، عارفا بالنوازل، مقدما في علم الفرائض، جماعا للدواوين العتيقة... استقضي بمكناسة الزيتون، ثم فاس، ثم صرف ـ وأريد على معاودة القضاء فامتنع، واستعفى فأعفي، وأقبل على نشر العلم وتدريسه، واستمر على ذلك ـ إلى أن توفي بفاس (543 ـ 1148) (29).

وقال في ابن أضحى ـ وهو أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى الهمداني ـ (...كان فقيها متقدما في حفظ المسائل، درس الفقه مدة، أديبا شاعرا مجودا ذا ارتجال، واستقضي بالمرية ـ بعد أبي عبد الله بن الفراء ـ سنة (514 ـ 1120) ثم صرف وعادَ إلى غرناطة فاستقر بها، وصارت إليه رئاستها وتدبير أمرها...) (30). (ت 540 ـ 1145) (31).

ونرجح أن يكون هذا الأخير هو المعني بالأمر ـ لما يلي :

1 ـ مر بنا أن ابن ملجوم ـ بعد أن صرف عن القضاء أريد معاودته لها فأبى، ثم استعفى فأعفي، مما يدل على أنه عزل عن غير سخطة، فلا داعي للكتابة في شأنه.

2 ـ إن السلفي الذي أورد الرسالة في ابن أضحى، دعم ذلك بتوثيق الذي رواها عنه، بخلاف ابن عذاري، فإنه ذكر ذلك هكذا اعتباطا.

3 ـ يبدو أن ابن أضحى ربما كان فيه نوع صلف وزهو، فاستثقله المرابطون، ونبذوا شأنه، ويدلنا على ذلك، قصته مع علي بن يوسف عندما دخل عليه في قصره بمراكش ـ والجمع حافل ـ فلم يأبه به، فجلس في مؤخرة المجلس، فحضره بيتان، فاستأذن الأمير في إنشادهما، فأذن له فقال :

نحن الأهلة في ظلام الحندس
حيث احتللنا ثم صدر المجلس
إن يذهب الزمان الخئون بعزنا
ظلما، فلم يذهب بعز الأنفس

22) في البيان المغرب (اللوم).
23) في البيان (أو مكلفا يتكلف).
24) في البيان زيادة (ولا قدح).
25) يعني به عبد الله بن سعد بن أبي سرح، كتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم ارتد مشركا، ولكنه أسلم ـ بعد ـ فحسن إسلامه. انظر الاستيعاب ص 918 ـ 920.
26) هو حمران بن أبان مولى عثمان وصاحب إذنه وكاتبه.
27) الغوير ماء بني كلاب ومنه قول الزباء : (عسى الغوير أبؤسا) أي يأتي بالبأس والشر.
28) البيان المغرب 92/4 ـ تحقيق إحسان عباس.
29) الذيل والتكملة ـ السفر الثامن (قسم الغرباء) 258/1 ـ 259، وانظر ترجمته في التكملة رقم (1930) وصلة الصلة رقم (93) وجذوة الاقتباس رقم (570).

30) الذيل والتكملة ـ السفر الخامس ق 1 ص (270 ـ 271).
31) ترجمه في صلة الصلة وذكر وفاته وقال فيه : كان من أهل الورع والفضل، انظر ص 90.
32) انظر الحلة السيراء لابن الأبار 215/2 ـ 216.
33) المصدر السابق.
34) المصدر نفسه.
35) انظر القلائد ص 313.
36) كانت وفاته سنة (529 ـ 1134) ألفي قتيلا بأحد فنادق مراكش ـ وقد ذبح وعبث به.
انظر معجم ابن الأبار ص 300، والوفيات لابن خلكان 194/3، والنفح للمقري 29/7 ـ 35، والإعلام لعباس بن إبراهيم 2118/10.
37) وأورد في النفح 34/7 ـ 35 ـ رواية تذكر أن قتله كان بإشارة من السلطان علي بن يوسف بن تاشفين.

فابتسم له الأمير ابتسام سخرية، وأمر بترفيعه في المجلس، وهي أبيات لا تليق بمقام أمير المسلمين، فالشاعر لم يزد على أن مدح نفسه، وتظلم من الزمان الذي سلبه عزه، والملوك ما زاحمهم أحد في سلطانهم، أو جاذبهم عزهم، إلا ذل ونزل به الهوان، فابن أضحى لم تكد تطأ قدمه أرض الأندلس، حتى سبقه عزله، فأقصي عن المرية، وكتب في شأنه ما كتب، فارتحل إلى غرناطة ـ بلد سلفه، وموطن عزه ـ يحمل بين حناياه هما دفينا، وعداء خفيا للمتونيين، ولم يلبث أن كشف عن حقيقته، فقاد ثورة عنيفة ضدهم، وألب عليهم كل الجهات، لكنهم ألحقوا به هزائم منكرة، وحاول أن يستعين بابن هود، فوقع في فخ نصبه هو بنفسه، ومات شر موتة، جزاء غدره وخيانته، وكأني به ـ وهو يردد قوله ـ يخاطب نفسه :

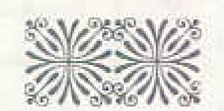
علي قـــد آن أن تتـــوبـــا
مـــا أقبـح الشيب والعيـــوبـــا
شبت ومـــا تبت من بعيـــد
ســوف ترى نـــادمـــا قريبـــا
تركب للهـــو والمعـــاصي
ـ صعبـــا وتستهـل الــذنــوبـــا

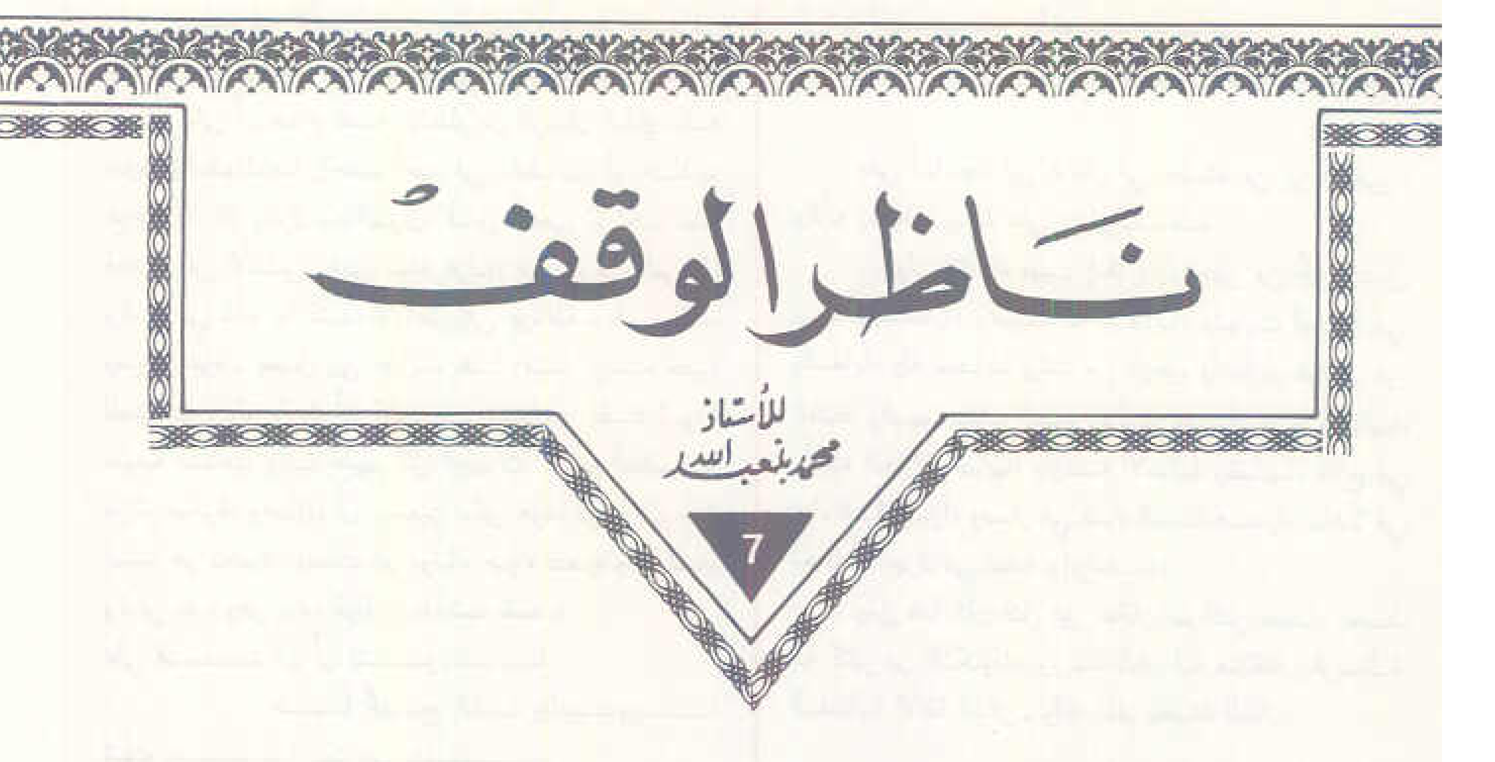
على أننا نجد ابن خاقان في حديثه عن ابن أضحى ـ وكأنه يعارض رسالة علي بن يوسف هذه :

... ولي القضاء فهيب إنكاره، وانجلى من أفق الدين غيمه واعتكاره، وحييت به الرعايا، ولويت ألسن البغي والمعايا، وله سجايا برئت من الزهو، وأحكام عوفيت من الغلط والسهو، سقته العلوم زلالها، ومدت عليه ظلالها، وأرقته الجلالة هضابها، وأرشفته الأصالة رضابها، فلاح في سماء العلا بدرا، وصار في فناء السنا صدرا، عدلا في أحكامه، جزلا في نقضه وإبرامه...).

ومن هنا كان قتل ابن خاقان بمراكش ذبحا، يحيط به كثير من الشكوك، وربما كان له علاقة بالرسالة السلطانية الآنفة الذكر ـ والله أعلم بحقيقة الحال.

تطوان : سعيد أحمد أعراب





أجرة ناظر الوقف...

للناظر، مقابل إدارة الوقف، والعناية بمصالحه، وتدبير أموره، واستثمار رباعه من عمارة وإصلاح وتنمية، أجرة مناسبة يستحقها لما يقوم به من جهود وأتعاب، ويبذله من قدرات وطاقات، وتفريط، أحيانا، في وقته لإدارة الوقف ومؤسساته، تلك الجهود المضنية المتعبة المتلاحقة التي لو أنفقها في إدارة أمواله، وتدبير شؤونه، لأدرت عليه ثروة وافرة، وغنى واسعا، ورزقا كثيرا (1)....

وإن شرط جواز أخذ الأجرة من الوقف، القيام بالوظيفة، وصحة الولاية، بأن تكون ممن له النظر في ذلك من حاكم وناظر، فهذا الأجر لا يجوز أخذه إلا بشرطين : أن يكون عن أمر من ولاه الله النظر في مصالح المسلمين، وأن يقوم بالمصلحة التي جعل المرتب عليها، كما في جواب السيد عبد الله العبدوسي...

ولما بنى السلطان صلاح الدين الأيوبي، رحمه الله، عام 572 هـ المدرسة الصلاحية بجوار الإمام الشافعي، والتي يقال لها : «تاج المدارس»، وهي أعظم مدارس الدنيا على الاطلاق، جعل التدريس والنظر بها للشيخ نجم الدين الخبوشاني، وشرط له من المعلوم في كل شهر أربعين دينارا، معاملة صرف على كل دينار ثلاثة عشر درهما وثلث درهم عن التدريس، وجعل له عن معلوم النظر في أوقاف المدرسة عشرة دنانير، ورتب له من الخبز في كل يوم ستين رطلا بالمصري، وراويتين من ماء النيل (2)...

وقد درج الذي يجبي عائدات جامع القرويين، ويشرف على نظارته، قديما، بأن يتقاضى دينارا واحدا، في

---

1) انظر موضوع أجرة الناظر صحيح الإمام البخاري ص : 2/93، ط : الخيرية بحوش عطى بجمالية مصر 1304، وبهامش الفتح ص : 259 ـ 5/260، سنن الدارقطني ص : 503 ـ 2/504، أحكام الأوقاف، للخصاف ص : 345، والدسوقي على الشرح الكبير ص : 4/88، وأحكام الأوقاف : للدكتور محمد شفيق العاني ص : 48، مواهب الجليل ص : 6/40.

2) «حسن المحاضرة»، للسيوطي ص : 2/140 ـ قال المقريزي : وقد ولي النظر، وتدريسها عام 678، تقي الدين بن رزين الشافعي، وقرر له، نصف المعلوم، ثم تقي الدين بن دقيق العيد،... ونجم الدين الخبوشاني كان فقيها فاضلا تفقه على محمد بن يحيى تلميذ الإمام الغزالي (انظر ترجمته في حسن المحاضرة ص : 1/170) (ت : 587 هـ).

اليوم، تعويضا عن هذه الوظيفة الرفيعة، ويجعل معه ستة أمناء، أجر كل واحد منهم ستة دنانير شهريا، بالإضافة إلى ستة رجال يحصلون أموال إيجارات البيوت والدكاكين والعائدات الأخرى، وينال كل من هؤلاء خمسة بالمائة من الجبايات لقاء أتعابه، وفضلا عن ذلك، يعمل تحت إمرة الناظر مقدار عشرين موظفا، مكلفين بالذهاب للضواحي كي يقدموا للفلاحين، ولأرباب الكروم والبساتنة ماهم بحاجة إليه، ويرتفع أجر هؤلاء الموظفين إلى ثلاثة دنانير بالشهر (3)...

ولقد كان مبلغ المساجد بقرطبة، أم المدائن، وقاعدة الأندلس، ثلاثة آلاف وثمانمائة وسبعة وثلاثين مسجدا... وعدد الحمامات المبرزة للناس سبعمائة حمام (4)...

وإذ اعتبرنا أن كل مدينة كانت تتوفر داخل كل حي من أحيائها على عدة مساجد، بلغت المنشآت، أحيانا، بأوقافها حدا لمسنا معه ضخامة الثروة الحبسية في المغرب... ويكفي أن نعلم أن في مدينة فاس وحدها، أحصى زمن المنصور والناصر الموحديين : 785 مسجدا، و42 : دارا للوضوء، و80 سقاية عمومية، و43 حماما كما في «زهرة الآس» للجزنائي، وكلها حبسية...

وقد لاحظ ابن القاضي (5) أن هذا العدد من المساجد تزايد في القرن العاشر أي العصر السعدي، حيث بلغ عدد الحمامات وحده ثلاثة وسبعين...

بل إن فاسا، هي البلد المغربي الوحيد الذي لفتت أحباسه نظر ابن الخطيب، فذكر (6) أن أوقافها جارية... وهذا يعني أن هذه المدينة تحتل الصدارة، في هذا الميدان على بقية جهات المغرب الأخرى بما فيها مدينة مراكش التي يسجل، في «المسند الصحيح»، وفرة أحباس خارجها.

ولقيام المسجد بوظيفته الدينية على أحسن ما يرام يحتاج إلى عدة خدمة وقومة لتسيير مرافقه كي يؤدي وظيفته على الوجه المطلوب... فلقد كان عدد من يخدم الجامع بقرطبة في دولة ابن أبي عامر، ويتصرف فيه من أئمة، ومقرئين، ومؤذنين، وأمناء، وسدنة، وموقدين، وغيرهم، من المتصرفين مائة وتسعة وخمسين شخصا (7)، والمشرف على هؤلاء جميعا هو ناظر الوقف، وهو من أجل ذلك يستحق أجرا مقابلا لتلك الرعاية والعناية والاهتمام بشؤون المسجد...

فهذه المجموعة من المساجد الكثيرة التي تزخر بها حظيرة المدينة الإسلامية تحتاج إلى جهاز إداري ضخم، وطاقم من الموظفين الساهرين على حياة المسجد واستمراره لأداء رسالته الخالدة، تحت إشراف ناظر ديناميكي متمرن، يبقي للمسجد بهاءه ورواءه، ويتيح للمسلمين راحة واطمئنانا بتوفير الماء وفرش المساجد وتنويرها وتوظيف المؤذنين والقومة...

مشروعية أجرة ناظر الوقف :

نستأنس بعدة أحاديث وآثار يمكن الاستدلال بها على حق الناظر في الأجر والثواب لقاء جهوده ومسؤلياته والتزاماته ولعل أبرز تلك الآثار والأدلة حديث سيدنا عمر رضي الله عنه الذي يقول : أصاب عمر بخيبر أرضا، فأتى النبي ﷺ فقال : «أصبت أرضا لم أصب مالا قط أنفس منه، فكيف تأمرني به، قال : إن شئت حبست أصلها. وتصدقت بها، فتصدق عمر، أنه لا يباع أصلها، ولا يوهب،

3) «وصف إفريقيا» للوزان ص : 231. ط : السعودية.

4) «أزهار الرياض» للمقري ص : 2/272. ـ وتحيط بقرطبة ثلاثة آلاف قرية، في كل قرية منبر وفقيه (من خطبة وزير الأحباس الفقيه الأديب محمد بن عبد القادر بن موسى في الحفلة التي أقيمت تدشينا لمجلس الأحباس العام بتطوان في : 1939/3/8).
وقد حول مسجد قرطبة إلى كنيسة، وبني على صحنه كاتدرائية ضخمة فرناند الثالث عام 1236، وهو اليوم أشبه بمزار يحيط الكاتدرائية أضيفت إليه تماثيل ولوحات زيتية وزخارف معدنية هي من أعمال الفنانين من أمثال : أروفة، والونصوكاتو، وبالومينو وغيرهم. ـ ويطلق عليه اليوم إسم «المسكيتا». ـ

5) جذوة الاقتباس ص : 28.

6) معيار الاختيار، ص : 48... «... وفي فاس قرابة ستمائة جامع أو مسجد (ص : 229 «وصف إفريقيا» ليون الإفريقي) «...ولكل من هذه الجوامع مئذنة يصعد إليها المكلفون بالآذان لإعلان الأوقات المعينة للصلوات العادية» (نفس المصدر السابق ص : 229).

7) «نفح الطيب» ص : 549 ـ 1/551 تحقيق إحسان عباس، «أزهار الرياض، في أخبار عياض» للمقري ص :5.118 تحقيق الأستاذ سعيد أعراب، والدكتور عبد السلام الهراس، وانظر «البيان المغرب» ص : 287 ـ 288... ولقد كان عدد المؤذنين والقومة للقرويين في غالب الأوقات أربعين شخصا... ولهم على ذلك فوائد وعوائد مختلفة على مر الأعوام («جنى زهرة الآس» : للجزنائي ص : 80).

ولا يورث، في الفقراء والقربى والرقاب، وفي سبيل الله، والضيف وابن السبيل، لا جناح على من وليها، أن يأكل منها بالمعروف، أو يطعم صديقا غير متمول...» (8).

وقد جعل الإمام علي كرم الله وجهه نفقة العبيد ـ الذين وقفهم مع صدقته ليقوموا بعمارتها ـ من الغلة مما يستأنس به لاستحقاق الناظر أجرته لقيامه بإدارة الوقف والنظر عليه...

وقد استدل العلماء على مشروعية أجرة ناظر الوقف. بالحديث الذي رواه الإمام مالك في الموطأ والإمام البخاري وعقد له بابا بعنوان: «باب نفقة القيم للوقف»: عن مالك، عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «لا يقتسم ورثتي دينارا، ما تركت ـ بعد نفقة نسائي، ومؤونة عاملي ـ فهو صدقة»، فدل هذا الحديث على مشروعية أجرة ناظر الوقف، ومرا العامل في هذا الحديث كما قال الباجي في المنتقى : «كل عامل يعمل للمسلمين من خليفة أو غيره، فإن كل من قام بأمر المسلمين وبشريعته فهو عامل له ﷺ، فلا بد أن يكفى مؤونته، والالضاع (9)...

وفي «الإحياء» للإمام الغزالي في كتاب : «الحلال والحرام» : «كل من يتولى أمرا تتقوى به مصلحة المسلمين، ولو اشتغل بالكسب، لتعطل عليه ما هو فيه، فله في بيت المال حق الكفاية... قال : «ويدخل فيه العلوم كلها، أعني التي تتعلق بمصالح الدين كعلم الفقه والحديث والتفسير، والقراءة حتى يدخل فيه المعلمون، وطلبة هذه العلوم يدخلون فيه، فإنهم أن لم يكفوا لم يتمكنوا من الطلب...

وقد جرت العادة. كما قال القرطبي (10)، بأن العامل يأكل من ثمرة الوقف، حتى لو اشترط الواقف أن العامل لا يأكل منه، يستقبح ذلك منه...

8) البخاري ص : 2/96، ط : 1 ـ المطبعة الخيرية بحوش عطا بجماليه مصر 1304 وانظر أيضا البخاري : «باب هل ينتفع الواقف بوقفه، وقد اشترط عمر : لا جناح على من وليه أن يأكل» ومسلم بشرح النووي ص : 1/85 والبيهقي ص 6/258 والدارقطني ص 2/503، ومسند أحمد ص 7/164، والترمذي 3/397، وسنن أبي داود : 3/116.

9) «تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك» للسيوطي ص : 3/155، فتح الباري ص : 5/260، وانظر : باب «نفقة القيم للوقف» البخاري ص : 2/96 ط : الخيرية، بحوش عطى بجمالية مصر عام 1304 هـ.

بل، إن رسول الله ﷺ قال : «من ولي لنا شيئا، فلم تكن له امرأة، فليتزوج امرأة، ومن لم يكن له مسكن، فليتخذ مسكنا، ومن لم يكن له مركب، فليتخذ مركبا، ومن لم يكن له خادم، فليتخذ له خادما. فمن اتخذ سوى ذلك كنزا أو إبلا جاء الله به يوم القيامة غالا أو سارقا كما أخبر بذلك أبو بكر عن رسول الله (11)...

أخرج أبو داود عن ابن الساعدي، قال : استعملني عمر على الصدقة، فلما فرغت أمر لي بعمالة (12)، فقلت : إنما عملت لله... فقال : «خذ ما أعطيت، فإني عملت على عهد رسول الله ﷺ، فعملني»، أي أعطاني عمالتي...

قال الكنكو هي (13) : فيه جواز أخذ العوض من بيت المال على العمل العام، كالتدريس والقضاء وغيرهما، بل يجب على الإمام كفاية هؤلاء ومن في معناهم عن بيت المال...

وظاهر هذا الحديث وغيره مما يبين وجوب قبول ما أعطيه الإنسان من غير سؤال ولا إشراف نفس، وبه قال أحمد، وغيره... وحمل الجمهور على الاستحباب والإباحة (14).

وهذا سيدنا عمر رضي الله عنه، يفرض لولاته ما يكفيهم ليتفرغوا لمصالح الناس العامة... ولاشك أن سيدنا عمر كان يضمن للوالي هذه المطالب الضرورية ومن ثم كان يعتبر الزيادة عنها باتخاذ الولاية سبيلا لجمع الأموال غلولا كما قال الرسول عليه السلام...

لذا من حق ناظر الوقف، ومن يتولى أموره من المهام أن يأخذ أجره المعلوم بالمعروف، فلا يحل له أن يمديده إلى الحرام، أو أن يستغله لفائدته، وجلب الربح إليه، لأن ذلك يعد سرقة وغلولا، ففي حديث أبي داود

10) فتح الباري ص : 5/260.

11) الأموال، ص : 265، لأبي عبيد بن القاسم بن سلام (ت : 224 هـ) تصحيح محمد حامد الفقي، والحديث بالسند والمتن في ابن كثير، وقد روى هذا الحديث أبو داود عن المستورد بن شداد، انظر تفسير القرطبي ص : 4/262 : السياسة الشرعية ص : 49 ـ و59.

12) ما يأخذه العامل من الأجر.

13) في «التعليق المحمود، على متن ابن داود عليه».

14) انظر : الباب 49، سراج الملوك.

والحاكم عن بريدة رفعه : «أيما عامل استعملناه، وفرضنا له رزقا، فما أصاب بعد رزقه فهو غلول (15).

وتعليقا على هذا الحديث يقول الشيخ عبد الحي الكتاني (16) : «وقد وجدت أبا داود بوب عليه أبواب الخراج والامارة، باب في أرزاق العمال، ثم أخرج بلفظ : «من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقا، فما أخذ بعد ذلك فهو غلول» ثم أخرج عن المسور بن شداد رفعه : «من كان لنا عامل، فليكتسب زوجته، فإن لم يكن له خادم، فليكتسب خادمه، فإن لم يكن له مسكن، فليكتسب مسكنا، قال : قال أبو بكر : أخرجت أن النبي ﷺ قال : من اتخذ ذلك فهو غال أو سارق...

وفي «عون الودود» على الحديث الأول سكت عنه أبو داود والمنذري، ورجاله ثقات، وفيه بينة على جواز أخذ العامل حقه من تحت يده، فيقبض من نفسه لنفسه، ثم نقل عن الطيبي على الحديث الثاني : فيه أنه يحل له أن يأخذ مما في تصرفه من بيت المال قدر مهر زوجته ونفقتها وكسوتها... وكذا ما لابد منه من غير إسراف ولا تنعم...

ولقد كان رسول الله ﷺ ينهى في مغازيه عن النهب والمثلة، وقال : «من انتهب نهبة فليس منا... وأمر عليه السلام بالقدور التي طبخت من النهب، فأكفيت...!!

وذكر أبو داود عن رجل من الأنصار، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ، في سفرنا، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنما، فانتهبوها، وأن قدورنا لتغلي، إذ جاء رسول الله ﷺ، يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمي اللحم بالتراب، ثم قال : «إن النهبة ليست بأحل من الميتة، والميتة ليست بأحل من النهبة» !!

وكان رسول الله ﷺ، يشدد في الغلول جدا... ويقول : «هو عار، ونار، وشنار على أهله يوم القيامة !» ولما أصيب غلامه عليه السلام مدعم (17)، قالوا :» هنيئا له الجنة، فقال : كلا، والذي نفسي بيده، أن الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا، فجاء رجل بشراك أو شراكين لما سمع ذلك، فقال عليه السلام : «شراك أو شراكان من نار».

قال أبو هريرة : قام فينا رسول الله ﷺ، ذات يوم، فذكر الغلول فعظمه، وعظم أمره، ثم قال : «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول : يا رسول الله : «اغثني» فأقول : «لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك... لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول : يا رسول الله : اغثني، فأقول : لا أملك لك شيئا قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول يا رسول الله : «اغثني»، فأقول : «لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك»... لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق (18)، فيقول : «يا رسول الله : أغثني»، فأقول : «لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك...» لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول : «يا رسول الله : أغثني»، فأقول : «لا أملك لك شيئا، قد أبلغتك...».

وقال عليه السلام لمن كان عليه ثقله، وقدمات هو في النار، فذهبوا ينظرون، فوجدوا عباءة قد غلها...».

وقالوا في بعض غزو اتهم : فلان شهيد... وفلان شهيد، حتى مروا على رجل، فقالوا : وفلان، شهيد، فقال : كلا، إني رأيته في النار، في بردة غلها أو عباءة، ثم قال رسول الله عليه السلام : «اذهب يا ابن الخطاب... اذهب... فناد في الناس أن لا يدخل الجنة، إلا المومنون... وتوفي رجل يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال عليه السلام : صلوا على صاحبكم، فتغيرت وجوه الناس لذلك... فقال : إن صاحبكم غل في سبيل الله شيئا، ففتشوا متاعه، فوجدوا خرزا من خرز يهود، لا يساوي درهمين...!!

فالغلول كبيرة من الكبائر، وامتناع النبي عليه السلام من الصلاة على من غل دليل على تعظيم الغلول... وتعظيم الذنب فيه، وأنه من الكبائر، وهو من حقوق الآدميين، ولابد

15) أصل الغلول : الخيانة في المغنم، قال ابن عرفة، سميت غلولا، لأن الأيدي مغلولة منها، أي ممنوعة، وفي الحديث : «لا إغلال ولا إسلال» أي لا خيانة ولا سرقة. ويقال : لا رشوة...

16) التراتيب الإدارية ص : 1/265.

17) مدعم : عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد لرسول الله ﷺ عام خيبر.

18) الرقاع : ج : رقعة.. وهي التي تكتب، وأراد بها عليه السلام، ما عليها من الحقوق المكتوبة... وخفوقها : حركتها.

فيه من القصاص بالحسنات والسيآت... ثم صاحبه في المشيئة...

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : «فقدوا قطيفة يوم بدر، فقالوا : لعل رسول الله ﷺ، أخذها !! فأنزل الله : ﴿**وما كان لبنيء أن يغل**﴾ (19)... وعن ابن عباس أيضا : أن هذه الآية نزلت في قطيفة حمراء فقدت يوم بدر، فقال بعض الناس : لعل رسول الله ﷺ، أخذها، فقد أكثروا في ذلك، فأنزل الله : ﴿**وما كان لنبيء أن يغل، ومن يغلل يات بما غل يوم القيامة...**﴾.

هذا تنزيه له صلوات الله وسلامة عليه من وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة، وغير ذلك... قال تعالى : ﴿**ومن يغلل يات بما غل يوم القيامة، ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون...**﴾ وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لمن كسب سيئة الغلول، وأحاطت له خطيئة...

قال الإمام أحمد : «حدثنا عبد الملك، عن ابن مالك الأشجعي عن النبي ﷺ، قال : أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض، تجدون الرجلين جارين في الأرض - أو في الدار - فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعا، فإذا قطعه، طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة».

وعن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ، بعث سعد بن عبادة مصدقا، فقال : يا سعد، إياك أن تجيء يوم القيامة ببعير تحمله، له رغاء، فقال : «لا آخذه، ولا أجيء به»... فأعفاه...

وعن أبي بريدة عن أبيه عن النبي عليه السلام قال : «إن الحجر يرمى به في جهنم، فيهوي سبعين خريفا ما يبلغ قعرها، ويوتى بالغلول، فيقذف معه، ثم يقال لمن غل به، إئت به، فذلك قوله : «ومن يغلل يات بما غل يوم القيامة».

وقد ذكروا أن من غل شيئا في الدنيا يمثل له يوم القيامة في النار، ثم يقال له : «انزل إليه، فخذه، فيهبط إليه، فإذا انتهى إليه حمله، حتى إذا انتهى إلى الباب سقط عنه إلى أسفل جهنم، فيرجع إليه فيأخذه... لا يزال هكذا ما شاء الله (20)...

والغال يأتي يوم القيامة، وهو يحمل على ظهره ورقبته ما غل، معذبا بحمله وثقله، مرعوبا بصوته، موبخا باظهار خيانته على رؤوس الاشهاد، وهي فضيحة توقع بالغادر في أن ينصب له لواء عند استه بقدر غدرته وغلوله... وقد جعل الله هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه...

وكانت العرب في جاهليتها ترفع للغادر لواء، وكذلك يطاف بالجاني مع جنايته، فشاعرهم العربي يقول :

أسمي، ويحـــك، هــل سمعت بغــــدرة
رفـع اللــواء لنـــا بهـــا في المجمـع !!

☆ ☆ ☆

وقد عرف أهل الفضل والاستقامة، والنزاهة والأمانة، في كل زمان ومكان، في المملكة الإسلامية الذين يقفون عند حدود الله، فلا يمدون أعينهم، ويبسطون أيديهم بسوء إلى ما حرم الله عن طريق الختل والغلول والغدر وخيانة الأمانة... ولا سيما في أموال الوقف التي توعد المشرع بالعقاب الشديد لمن سولت له نفسه التلاعب بها أو السطو عليها، أو تفويتها وتحويلها عما رصدت له...

كما عرف المغاربة كغيرهم من الأمناء، بصفة خاصة، بتحري الحلال، واختيار أطيب الرزق، وخشية الله... وهو أحق أن يخشى، في مال الوقف ومصالح الجماعة الإسلامية... فهذا أبو سالم العياشي يحدثنا في رحلته (21) بأنه لقي «بتوزر» صاحبه سيدي أحمد بن عبد العاطي، وهو

19) أي يخونون «سورة آل عمران» ويغل بضم الغين، قراءة ابن كثير المكي، وأبي عمرو والبصري، وعاصم، يقول في الشاطبية :

«............... وضــــــم فــي
يغل، وفتح الضم إذ شاع كفلا»

20) القرطبي ص : 4/258.

21) «ماء الموائد» ص : 2/408، وضمن السلسلة التي يقوم بأعدادها الباحث السعودي الأستاذ حمد الجاسر، والتي تنشرها دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض، صدر كتاب مقتطفات من رحلة العياشي بطبعته الأولى لعام 1984. وقد لجأ الأستاذ حمد الجاسر إلى إعادة طبعها بهذا الشكل الحديث لندرة كتاب العياشي، وتوفيره للقراء أولا، ثم لصعوبة قراءة الطبعة الأولى من قبل المشارقة، والتي جاءت بالخط المغربي.

من أصحاب شيوخه أحمد بن ناصر، قال : «وأدخلني إلى داره، وأضافنا، وأراني عقد حبس عتيق عنده، بخط الإمام ابن مرزوق، وتاريخه سنة كذا وعشرين وثمانمائة، وفيه خط الإمام العقباني رضي الله عنهما، وقد أعطاني نحوا من صاع من تمر ذلك الجنان المحبس، فقلت : «آخذه على وجه البركة، وبقي عندي إلى أن دخل شهر رمضان، وكنت أفطر منه كل يوم بتمرات تبركا بالحلال، وأي حلال يوجد اليوم، أحسن من ملك بقي صاحبه نحو الثلاثمائة سنة وشهد فيه الأئمة الاعلام بصحة الملك...

وكانت الولاية الوقفية في بلادنا لا تسند إلا لمن عرف قدره واستقامته وجاهه، بحيث لا يسعى إلى شرائها بالمال أو بشتى الوسائل المعروفة، كالبراطل والرشا، بخلاف ما عرف في جهات أخرى.

بل أن المقرر والمعهود عند الثقات، وأفاضل الرحالين، كما نص الشيخ زروق في قواعده على أن الغيرة الدينية عزيزة في المشرق، ولا توجد إلا في أهل الخصوصية من أهله (22).

وقد تحدث أبو سالم العياشي عن الرشا التي كانت ضاربة برواقها في البلاد الشرقية فقال : «بأن المناصب الشرعية كلها في البلاد المشرقية حجازا ومصرا وشاما من إمامة وخطابة وأذان وإقامة وقضاء وفتوى وشهادة، بل ووقيد المساجد، إنما تنال بالشراء من الولاة، فإذا مات صاحب خطة أو عزل دفع الراغب فيها مالا للولاة، فيولونه مكانه على أي حال كان من صلاحيته لذلك أم لا... فعظم الخطب على المسلمين والإسلام في ذلك خصوصا منصب القضاء، فما رأينا ولا سمعنا في البلاد المشرقية كلها بقاض يقارب الحكم بما يشبه أن يكون شرعا وإنما مدار أمرهم على الرشا (23) جهارا... فينقض الحكم الواحد في اليوم الواحد مرارا متعددة بحسب كثرة الرشا وقلتها (24)...

وهكذا لم تسلم الوظائف الدينية من البرطلة (25) والرشوة، وقد كان قاضي القضاة الشافعي أيام حكم المماليك هو الأجل... يليه قاضي القضاة الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي... وقد حدث أن تولى المنصب الأول، محي الدين بن النقيب ست مرات في مدة نحو العامين، وهو ما قال عنه ابن إياس :

يا أيها الناس : قفوا واسمعوا، صفات قاضينا التي تطرب
.. .. ينتشي، يرتشي، ينم، يقضي بالهوى يكذب !

وقد تمكن أيضا بدر الدين بن صلاح الدين المكيني في شهر ذي الحجة عام 915 هـ من أن يجمع بين قضاء الشافعية، ومشيخة الخشاينة والشريفية ببذل ورشوة قدرها ثلاثة آلاف دينار للسلطان الغوري قام بها شهرين فقط... ثم عزل، فكان كما قيل : (26).

تولاها، وليس له عدو، وفارقها وليس له صديق..!!

وقد تحدث عن هذا الداء الذي استشرى في الشرق، وعمت به البلوى، فأصبح كل من أراد وظيفة دينية أو غيرها يقدم في سبيلها رشى للحاكم، أبو القاسم الزياني (27) فقال : «وهذه عادة قضاة الشرق كلهم، نسأل الله السلامة والعافية من هذه الورطة التي وقعوا فيها، فقد عمت البلوى في هذه الدولة العثمانية في القسطنطينية وبلاد الترك كلها ومصر والشام والعراق وخراسان وما وراء النهر، وباعوا آخرتهم بدنياهم، متفقين على ذلك من غير توقف ولا تأمل، ولا تخوف ولا استحياء ولا تستر، فليس

22) الاتحاف : ص : 1/183. وانظر : «انتصار الفقير السالك، لترجيح مذهب الإمام مالك» لشمس الدين محمد بن محمد الراعي الأندلسي ص : 307، تحقيق الصديق : محمد أبو الاجفان...

23) صدر بالقاهرة كتاب شائق بعنوان : «البذل والبرطلة، زمن سلاطين المماليك» دارسة عن الرشوة، حوى الرسالة العلمية التي تقدم بها أحمد عبد الرزاق أحمد لنيل درجة الدكتورة، وهو يذكر في هذه الرسالة أن الرشوة وجدت منذ القرون الأولى للإسلام حيث شاعت بين الحكام والوزراء والولاة والعمال والقضاة والكتبة.

24) ماء الموائد ص : 1/288. وكما قال ابن الطراوة :
إن جئتهم فارغا لزوك في قرن
وإن رأوا رشوة أفتوك بالرخص

25) البرطلة : الرشوة، ويقول الزمخشري في «درره اللوامع، وحلله السوابغ» : «البراطيل، تجلب الأباطيل». والبرطيل لغة : هو الحجر المستطيل فاه. (مجموع فتاوي أي تيمية ص : 31/286).

26) قاله الوزير أبو شجاع ظهير الدين محمد بن الحسين حين عزل : (حسن المحاضرة للسيوطي ص : 2/114).

27) الترجمانة الكبرى ص : 279، تحقيق الأستاذ عبد الكريم الفيلالي.

للوعظ فيهم عمل ولا تأثير، فإنها عندهم جباية من أصول، ويسونها بالمحصول، فتجد القاضي يناضل على قبضه، ويصول من غير ارتياء ولا استحياء ولا حشمة، ولا اعتبار شنعة أو وصمة، كأنه حق واجب، ويزاد للجليس والحاجب، فإن كانوا مع اظهارهم لهذا الأمر حلية معتقدين حليته، فقد باؤا بالصفقة الخاسرة، وجوه يومئذ باسرة... فيا حسرة على الأحكام الشرعية المرضية المرعية، فقد ضاعت حقوقها، وساغ عقوقها، ولا حول ولا قوة إلا بالله... وكان هناك قاضي مكة ورد من الاصطنبول متوجها لها، فتعلق به هذا المفتي يشفع عند القاضي الانطاكي في هذا الذي استجار به، وكتب له أبياتا، فباللاتي والتي أسقط له نصف حقه، واستخلصه بالمشقة من رقه، بعد أن علق بأظفاره مثل ما علقت أظافر سنور بفاره، وبقي ينهق تحسرا مثل حمار فاره، من كثرة ما هو شارة...

وهذا سيدي صالح بن محمد بن عبد الله بن احرازم الفاسي المغربي الذي كان مقيما ببيت المقدس يتجلى ورعه وزهده في القصة التالية، فقد انقطع بقرية قريبة من القدس، فقدمه أهل تلك القرية للصلاة بهم في مسجدها - فأقام هنالك إلى أن أقبل الإمام أبو حامد الغزالي في جماعة من تلاميذه، وكان في المسجد عريش عنب (28)، فقال بعض التلامذة للغزالي، اشتهينا أن نأكل من العنب، فأجابهم شيخهم، أسألوا إمام المسجد على من حبس عنب هذه الشجرة (29).. ؟ أعلى الإمام ؟ أم على المؤذن ؟ أم على المسجد ؟ أم على جهة رابعة ؟ فسأل التلاميذ سيدي صالح، فقال : لا أدري على من حبس، ولا تعرضت، ولا أكلت منه قط، فأخبروا أبا حامد الغزالي بذلك، فقال لهم هذا مغربي له أعوام في هذا المسجد، ولم يتعرض لهذا العريش، ولا عرف خبره... وأنتم في ساعة واحدة لم تملكوا أنفسكم...

ويحكى أن سيدي يحى بن عبد الله التملي المعروف بأنه شيخ «يربي المريدين، ويرشد السالكين وهو من أهل القرن العاشر، والذي لازم خدمته سيدي عبد الله بن سعيد التهالي يحكى أنه وكله على غرس بستان من الرمان، فقام عليه منذ الغرس حتى أثمر، وبعد ذلك أمره أن يأتيه برمان لا ضياف عنده، فأتاه به، فإذا به مر، فقال له : ما هذا ؟ أو ما تعرف أننا أردناه للأكل، فقال له : «إنني لا أعرف مذاقه !!.. فقال له الشيخ : أو لا تعرف الحلو من غيره في البستان، وأنت القيم عليه من أول يوم ؟ فقال سيدي عبد

---

28) موضوع جواز غرس الأشجار في الصحون وعدم جوازه تناقش فيه الفقهاء طويلا وانتهى الأمر بإقراره. والموضوع - على أي حال - ليس موضوع فقه وفقهاء. فالأشجار لا دخل لها في الصلاة، ويستطيع أي مسلم أو أي جماعة من المسلمين أن يقيم صلاة مفردة أو جامعة تحت الشجر...
وقدس العثمانيون سنة حميدة، وهي إحاطة المسجد بحديقة يدور عليها سور، فهذا من شأنه أن يصون المسجد وحرمه، ومن شأنه، أيضا، أن يضفي عليها جمالا، ما بعده من جمال، وجدير بالذكر أن لكل مساجدنا القديمة ساحات كبيرة من الأرض حولها داخل في زمام وقفها، وقد عدا عليها الناس، وبنوا فيها وادعوا ملكيتها مما أضاع جانبا كبيرا من بهاء المساجد.

29) من المسائل التي خالف فيها أهل الأندلس مالكا، غرس الأشجار في المساجد، وأباحة الأكل منها لكل مار، كما قيل :

وشجر بمسجد أو مقبرة
يأكل من مر بتلك الشجرة

وغرس الأشجار بصحون المساجد من تأثير الأندلسيين في بلادنا، وهي من بقايا مذهب الإمام الأوزاعي... وبنوازل العلمي في جواب عبد الله القوري عن غرس الأشجار بالمسجد قوله : قال ابن عبد البر في تاريخه : «وفي أيام صعصعة بن سلام الشامي غرست الشجرة في الجامع، وهو مذهب الأوزاعي والشاميين، ومالك وأصحابه يكرهونه (إعلام الساجد، بأحكام المساجد» ص : 341، للشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي (741 - 794 هـ) «حسن المحاضرة للسيوطي ص : 1/185» ثم نقل العلمي فتوى أحمد الونشريشي (نوازل العلمي ص : 2/72 في باب مسائل الحبس) وقد سئل الأستاذ سعيد بن لب عن الغراسة في المسجد، فأجاب : «مذهب مالك المنع من ذلك، وأن غرس فيه شيء قلع... ومذهب الأوزاعي جواز ذلك... فأما ثمرها، فلم يتكلم المتقدمون عليها، ووقع في نوازل ابن سهل أقوال : أحدها : أنه يكون لجماعة المسلمين. الثاني أنه يكون للمؤذنين وشبههم من خدام المسجد... الثالث : أن ذلك للفقراء والمساكين، وهذه إحدى المسائل الست التي خالف الأندلسيون فيها مذهب مالك (ص : 12 ج : 11، المعيار) وقد نظم هذه النظائر الشيخ ابن غازي في باب الجهاد من تكميل التقييد ناقلا لها عن الوثائق الصغرى للغرناطي فقال :

قد خولف المذهب في الأندلس
في ستة، منهن سهم الفرس
وغرس الأشجار لدى المساجد
والحكم باليمين، قل والشاهد
وخلطة، والأرض بالجزء تلى
ورفع تكبير الأذان الأول

وقد أخذ بهذه المسائل فقهاء غمارة من المغرب (انظر : «العرف والعمل في المذهب المالكي، ومفهومها لدى علماء المغرب» ص : 347، للأستاذ عمر الجيدي). وقد علل الإمام التالي ذلك بقربهم من الأندلس ولمجاورتهم لهم. (نوازل الشريف العلمي ص : 2/45).

الله بن سعيد : «إنك يا سيدي لم تأذن لي في الأكل منه ! فكان ذلك أول ما لاحظه الشيخ ملاحظة خاصة (30)...

ومثل هذه الحكاية توثر قبل ذلك بين الشيخ التباع وبين تلميذه الغزواني... وقد تحدث أبو سالم العياشي (31) عن العلامة الجليل المحدث المتفنن فرد الدنيا في العلوم كلها الجامع بين منطوقها ومفهومها محمد بن محمد بن سليمان بن طاهر السوسي الروداني المراكشي المالكي نزيل الحرمين (تـ 1099 هـ) الذي كان ميمون النقيبة، وله ورع تام، قال عنه العياشي : «ما رأيته في عصرنا لأحد لا يقبض من أحد شيئا إلا قليلا ممن علم وجوه مكاسبه، وتحقق استقامته فيها... وقد انتهى به الورع إلى ترك أكل ثمار المدينة بالجملة لفساد معاملة أرباب الحوائط لعمالها في الغالب فإن رب الحائط يعامل المساقي على أسوق معلومة في كل سنة يدفعها له، وهذا فاش عندهم، قل من يعامل المساقي بالجزء المشاع السائغ شرعا...

وكان الإمام النووي (تـ 676 هـ) لا يأكل من فواكه دمشق طيلة حياته، لأن أكثر غوطتها وبساتينها أوقاف قد اعتدى عليها الظالمون...

وقد أخبر أحمد بن محمد الفاسي (تـ 1213 هـ) في رحلته الحجازية، التي لم تطبع بعد، والتي تمتاز بوصف دقيق لجميع المراحل التي قطعها مع إشارات مهمة للعلماء والأدباء في مختلف البلاد التي زارها، فحكى بأنه لما خرج الركب من القاهرة مرض رجل سوسي، فأوصى بما له لأحد رفاقه، وله ورثة بالمغرب، فلما توفي، أخذ شيخ الركب المصري المال الذي تركه ذلك الشخص فعلق على ذلك صاحب الرحلة بقوله : «فانظر، أيها الأخ، هذه القضية، وهل مثل هذا بمغربنا ؟ فحاشا وكلا... (32).

وبعد أن تكلم الزياني في كتابه (33) على محاورته للرجل الأعمى المعتزلي الذي اجتمع به بمكة المكرمة، ويظهر تمسك المغاربة بالسنة يقول : «هذه إحدى المسائل

30) «المعسول» للمختار السوسي ص : 1/80.

31) ماء الموائد : ص : 2/38.

32) «دعوة الحق» ع : 4/س : 2/ص : 24.

33) الترجمانة الكبرى ص : 323.

التي فضل بها المغرب المشرق، والثانية هذه المناصب الدينية من القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والتوريق والخطابة والشهادة لاتباعُ ولا تشترى كعادة أهل المشرق. وكلهم ببلاد الروم والشام والعراق ومصر والحرمين فإنها تباع، فإذا مات صاحب خطة، يشتريها من الولاة غيره على أي حال كان، وما رأيت قاضي ببلد من هذه الأقاليم كلها يقارب ما يشبه أن يكون شرعيا، ومدار أحكامهم على الرشا وقبض المال في الحق والباطل، وينقض الحكم في الأمر الواحد مرارا، ولاحياء، ولا من يرده عن هواه...

وفي نطاق التنظيمات الإصلاحية للجهاز الإداري المغربي التي اتسمت بها وزارة المفضل غريط، في بداية هذا القرن، أن وزراءه حاولوا أن يضفوا على مجلسهم نوعا من الجدية، فاتفقوا فيما بينهم على أن لا يختص أحد منهم بإبرام شيء أو نقضه، إلا بعد اجتماعهم عليه، وحظروا على أي منهم قبض رشوة أو قبول هدية...

وعزز الوزراء اتفاقهم بالحلف منهم في المصحف على عدم ارتكاب شيء من ذلك...

كما سنوا قانونا بأن كل من تقلد ولاية، يقسم يمينا مغلظة بالمصحف الشريف أن لا يخون فيما تولاه، ولا يطلع على كتمان شيء عن ولي الأمر، ولا يغشه ولا يقبل رشوة ولا هدية (33) (مكرر).

☆ ☆ ☆

ولعل من الأسباب التي أدخلت الفقه الإسلامي، بعد تفتحه وازدهاره وانتشاره، إلى طور الكهولة في القرن الرابع عدة عوامل، أبرزها ظهور فساد الأخلاق من التكالب على الدنيا بالرشا، وبيع المناصب، والزور، وضياع الحقوق، بل كانوا يضمنون المناصب الشرعية كالحسبة والقضاء والنظارة، بمعنى أنهم يولونها من يضمن أن يدفع قدرا من المال كل سنة أو كل شهر، كما فعلوا في بقية الولايات (34)...

33) (مكرر) «الحلل البهية» للمشرفي ص : 142، «مظاهر يقظة المغرب الحديث»، ص : 80 ـ 81 ـ 82 ـ 83 ـ 84 2/63.

34) أول من ضمن القضاء عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب عام 350، أيام معز الدولة بن بويه، سماه قاضي القضاة في بغداد على أن يؤدي مائتي ألف درهم كل سنة ثم صار ذلك أجرا مألوفا، كما صاروا يضمنون الحسبة، فمن هنا ابتدأ خراب الفقه، بل الإسلام، وفساد الدين، الطمع، وصلاحه الورع.

وقد أجاب الإمام أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل القفال الكبير الشاشي (35) عن القصيدة التي وردت من «نقفور» عظيم الروم، تلك القصيدة التي شقت على المسلمين لما كان اللعين أجرى إليهم فيها من التثريب والتعيير والتشنيع، وضروب الوعيد والتهديد، والتي يقول في مطلعها :

من الملك الطهر المسيحي رسالة
إلى قائم بالملك من آل هاشم

إلى أن قال :
ملكنا عليكم حين جار قويكم
وعاملتم بالمنكرات العظائم

قضاتكم باعوا جهارا قضاءهم
كبيع ابن يعقوب ببخس الدراهم

شيوخكم بالزور، طرا، تشاهدوا،
وبالبز، والبرطيل في كل عالم

سأفتح أرض الشرق، طرا، ومغربا
وأنشر دين الصلب نشر العمائم

وقد أجابه الإمام القفال بقصيدة فاخرة رائعة طويلة من أحسن ما يرد به، تمتاز بالصراحة، والوضوح، وصدق اللهجة والاعتراف بأن ما قاله نقفور (36) صحيح، وهو عين الصواب، ولذلك ابتلي الإسلام والمسلمون بما ابتلوا به من التدلي والانحطاط والتدهور، وتداعي الأمم عليهم، بسبب انحرافهم وازورارهم عن الحق فقال مجيبا نقفور، على القول المذكور بقصيدة طويلة يقول في مطلعها :

أتاني مقال لامرئ غير عالم
بطرق مجاري القول عند التخاصم

ثم يقول :
وقلتم ملكناكم بجور قضاتكم
وبيعهم أحكامهم بالدراهم

وفي ذاك إقرار بصحة ديننا
وانا ظلمنا...! فابتلينا بظالم..!

فالشاشي القفال لم يجب بالمنع، بل بالتسليم والاعتراف الصريح (37)...

وصدق الله العظيم : **﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا...﴾.**

☆ ☆ ☆

من يقوم بإدارة الوقف تبرعا...

من النظار من يقوم بإدارة الوقف تبرعا منه بذلك، لا ينتظر ثوابا ولا أجرا... ولا يرتجي شكرا ولا ثناء... مثله في ذلك كمثل أقرانه من ذوي القدر والشأن، وعلو المكان... الذين تعلو هممهم على أخذ أجرة على أمثال القيام بعمل خيري يراد به وجه الله تعالى...

ويرى فقهاء الحنابلة أن من النظار من لا يأخذ أجرا على توليه لشؤون الوقف، إذا القاضي لا يقدر له أجرة عمله في إدارة الوقف، فهو يسهر عليها تبرعا منه وحسبة...

وقد عف كثير من النظار المومنين عن أخذ الثواب والأجر، مقابل أعمالهم وجهودهم لرعاية الوقف، بل كانوا يستنكفون من كل ما كان يقدم إليهم من الهدايا الموظفة لفائدة تسيير شؤون المسجد...

35) رحل عن الشاش (طشقند) طلبا للعلم، فتفقه، وعاد إليها، وكان أوحد أهل الدنيا في الفقه والتفسير واللغة، سمع أبا عروبة وأبا بكر بن خزيمة، ومحمد بن جرير الطبري، وأبا بكر الباغندي، وأبا بكر بن دريد، روى عنه الحاكم أبو عبد الله، وأبو عبد الله السلمي.

36) نقفور هو الدمستق تملك عام 352 هـ فتح المصيصة MOPSUESTE، (مدينة على شاطئ نهر جيحون قرب طرسوس) بالسيف، ثم سار إلى طرسوس، فطلب أهلها الأمان، ودخلها، وجعل الجامع اصطبلا لدوابه، وصارت بأيديهم إلى عام 761 هـ، بعدما فتحها الأمير سيف الدين بيد مر الخوارزمي حال نيابته بحلب.

37) انظر نص القصيدتين بتمامها في : «طبقات الشافعية الكبرى» ص : 179 ـ 2/189 وقد أجاب الفقيه أبو محمد ابن حزم الظاهري عن القصيدة المعلنة التي نظمها نقفور فأجاد كل الأجادة، وكأنه لم يبلغه جواب الإمام القفال... وقد زرت ضريح الإمام القفال الشاشي الذي يوجد قبره قرب الإدارة الدينية لمسلمي آسيا الوسطى وقازقستان قرب ضريح عبد المجيد والد المرحوم ضياء الدين بابا خانوف... رئيس الإدارة الدينية رحمه الله بطشقند.

وقد أتى أهل الذمة ليلة العيد إلى القاضي أحمد ابن (38) الحاج بكسوة القاضي، الموظفة عليهم، والتي يخطب بها خطبة العيد، فضرب بها وجوههم، وأبى قبولها منهم، فانهوا الأمر لشيخهم بعد أن كان عزم على عقوبتهم أشد العقوبة. ولقد أخبر الناظر رضوان المولى إسماعيل، أن أحمد بن الحاج امتنع من قبض ما كان يقبضه من قبله من الأوقاف، وإنما قبل من ذلك شطره (39).

قال القاضي الشيخ محمد الطالب بن حمدون ابن الحاج (40)، في كتابه : «رياض الورد» ما نصه : «ولما عرف الفقيه الضابط أبو العباس سيدي أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني (41) بالإمام العلامة سيدي محمد بن أحمد المسناوي (42) وعن جماعة أشياخه منهم صاحب الترجمة سيدي أحمد بن الحاج، قال : «كان عالما فاضلا، ولي القضاء بفاس الجديد، وبعد وفاته، وجد ما كان يقبض من الأحباس موفرا، أوصى أن يرد إلى محله، ولم يتلبس بشيء منه، اقتداء بسيد العارفين سيدي محمد بن عباد (43)...

☆ ☆ ☆

ولقد تحدث التاريخ الأمين عن نظار أمناء، سبقوا في هذا المنصب الخطير، عرفوا بالنزاهة والعفة والورع والاستقامة وطول النفس في القصد، فقضوا هواجر أيامهم الطويلة، وَبُكَرَهَا الجميلة ولياليهم المتوالية، في العمل الدائب، والجهد الناصب، وساروا في الطريق المعبد الحافظ، لرعاية الوقف مشتغلين عن كل ذلك عن مطارحة الأحباب، ومحادثة الأصحاب، وعن دعة التنعم بمغتسل بارد وشراب، وذلك كأبي زكرياء يحيى بن محمد السراج الحميري الفاسي الذي ولي نظارة أحباس الضعفاء والمساكين في عهد السعديين (44) (ت : 1008 هـ) وأبي عبد الله محمد بن قاسم القيسي الغرناطي الشهير بالقصار (ت : 1012 هـ)... كما قام لهذه الوظيفة أبو شامة بن إبراهيم المشترائي شيخ الافتاء بالمغرب (ت : 1241 هـ) وأبو محمد ابن الفقيه العدل السيد أحمد غازي الذي كانت له رئاسة وزارة الأوقاف المغربية في سائر الايالة، والنظر التام، والتصرف العام (45)... والحاج الطيبي ابن السيد ابن القاسم (46) (1202 هـ) في عهد المولى محمد بن عبد الله ناظر أحباس مكناس، والسيد الحاج محمد بن عمرو الصنهاجي المكناسي (47)، الذي كانت له ولاية النظر على

---

38) أحمد بن العربي بن الحاج السلمي الفاسي قاضي فاس الجديد (1042 - 1109 هـ 1632 - 1697) وهو نجل أبي إسحاق ابراهيم بن الحاج البلفيقي السلمي دفين مراكش ينتهي نسبه إلى العباس بن مرداس (الإعلام للمراكشي - أزهار الرياض - لو في بروفينصال : شرفاء : ص : 277، فهرس الفهارس ص : 79 - 80 - 1/276، ع : بن سودة : دليل : 2/316.

39) انظر نص الظهير الإسماعيلي الذي ينوه بمقام ابن الحاج في كتاب : «العز والصولة» ص : 2/10.

40) المؤرخ النسابة قاضي فاس ومراكش (ت : 1273 هـ) له : «رياض الورد، إلى ما انتهى إليها هذا الجوهر الفرد» عرف فيه بوالده الشيخ حمدون بن عبد الرحمن بن الحاج (ت : 1232 هـ) وله : عقد الدرر والآل، في شرفاء عقبة بن صوال» «والأشراف، على من فاس من الأشراف» وروض البهار، في ذكر شيوخنا الذين فضلهم أجلى من شمس النهار».

41) أحمد بن عبد الوهاب الوزير الغساني الفاسي الأندلسي الأصل الفقيه الأديب كان بارع القلم في الوثائق والخطب والرسائل والتأليف... له : شرح البردة والهمزية للبوصيري، جلاء القلب القاسي، بمحاسن سيدي المهدي الفاسي... «حاشية على الكلاعي، «المقباس، في محاسن سيدنا أبي العباس» تقييد في التعريف بسيدي عبد السلام القادري - تقييد في التعريف بالشيخ المسناوي (ت : 1146 هـ) (سلوة الأنفاس ص 2/299، نشر المثاني - التقاط الدرر - الزهر الباسم.

42) محمد بن أحمد المسناوي الدلائي الفاسي أحد أركان جامع القرويين، وممن نفخوا فيها روح التجديد، حافظا متقنا، وعارضة قوية في الفتون (1072 - 1136 هـ - 1661 - 24 - 17) انظر : شرفاء لوفي، تاريخ الأدب العربي بروكلمان ص : 2/608، تبوغ : 286 - 287 «البدور الضاوية» 375 - 380، مخطوط ضمن مجموع رقم : 2055 حرف د.

ع. بن سودة - دليل : 79 -80 و88 - 1/110، شجرة النور الزكية : ص : 333 - 334.

43) محمد بن ابراهيم بن عباد النفزي الحميري نسبا، الروندي مولدا، الفاسي إقبارا، الفقيه الخطيب الصالح، من كبار أصحاب ابن عاشر الأكبر، وخيار تلاميذه - شارح حكم ابن عطاء الله، له تآليف كثيرة، جلها في التصوف من مشايخه : الإبلي، والمجاصي، والشريف التلمساني، تولى خطابة جامع القرويين خمسة عشر عاما (ت : 792 هـ).

44) لما توفي يحيى بن محمد بن محمد السراج مفتي فاس، وخطيب مسجديها الأعظمين، كان القصار بمدينة مراكش، فكتب له مولاي أحمد المنصور الفتوى والأمامة، وأحباس سيدي يحيى كما كانت، فجاء رحمه الله عام دخول الفيل مدينة فاس (الإعلام : للمراكشي ص : 5/212).

45) الاتحاف : ص : 3/90.

46) المصدر السابق : ص : 194 - 198 - 1/341.

47) كان من رؤساء مكناسة، وذوي الوجاهة بها، والصيت الذائع، والثروة ذات البال، تقلب في عدة وظائف مخزنية، منها ولاية رياسة الأمانة على الأملاك المخزنية، ومنها الولايات على البنات السلطانية الحسنية...

عموم الأوقاف المكناسية والزرهونية، ماعدا الزاوية الإدريسية، فقد كان لها ناظر مستقل، اتفق في نظارته أن مات القيم، وحين رام من له النظر في الأمور الشرعية بمكناس وقتئذ إقامة خلف للقيم المذكور، وأمر الناظر أن يجري له من الأحباس، مثل ما كان لمن قبله، قال إن القيم السابق لم يكن له راتب معين في الوقف، وإنما كان متطوعا (48)...

ومن نظار المولى إسماعيل في الأوقاف السيد محمد بن محمد الكاتب القيسي، ذو المآثر الخالدة والتالدة، ويدل لعموم نظارته بسائر الإيالة المغربية أنه كان يولي ويعزل، ويحسن ما شاء على ما شاء من المساجد من غير توقف ولا احتياج لإذن... وهذه درجة لم يصلها ويلحقها وزير العدلية في وقت المؤرخ مولاي عبد الرحمن بن زيدان كما قال (49)...

ومن نظار مولاي إسماعيل، أيضا، أبو الحسن علي بن أبي القاسم المنوني الحسني ولاه نظارة أوقاف الولي الصالح عمرو بن عوادة (50)...

وبظهير سليماني في عام 1232، عين السيد المهدي بن محمد بن الطاهر بن التهامي المنوني، وتسلسلت النظارة في أعقابه الذين صاروا يتولون جميع أوقاف الأرحى الموقوفة من قبل جده حتى أوائل عام 1354 حيث تولاها بعد هذا التاريخ السيد عبد الملك بن عبد السلام بن عبد الرحمن المنوني، كما تولى هذه النظارة السيد السعيدي بن محمد المنوني أوقاف جده الولي الأشهر سيدي علي منون، ومولاي عبد السلام المنوني ناظر أوقاف جده...

48) الاتحاف : ص : 1/109.

49) «المنزع اللطيف» الباب : 14، ص : 289. مخطوط.

50) المصدر السابق ونفس الصفحة... و«وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته» ص : 111، للأستاذ العلامة سيدي محمد المنوني.

51) «وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته» ص : 51 - 73 - 76 - 123، انظر ترجمة المجاهد في المغرب والجزيرة الأندلسية سيدي ابن الحسن علي بن منون في الكتاب الذي أصدره الأستاذ البحاثة سيدي محمد المنوني بعنوان : «وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته» المطبعة الملكية.

وأسند المولى محمد بن عبد الرحمن بظهير، نظارة أحباس المساجد الصغيرة بالحضرة المكناسية للطالب محمد المنوني بدلا من العربي القصري عام 1289 هـ.

وفي عهد المولى يوسف بن الحسن أسند نظارة أحباس الزاوية الإدريسية بجبل زرهون، وأحباس مساجد مداشره إلى السيد الحسن المنوني عام 1333، بدلا من الحاج عبد السلام الحلو بمكناس (51).

ومن النظار بالحضرة المكناسية الفقيه السيد الطاهر البصري، والناظر، في عهد المولى عبد الرحمن بن هشام السيد الطاهر بن عثمان، ومنهم السيد عبد الوهاب بن محمد حجاج، والسيد محمد بن العربي بن مومو البراحي، والقاضي بردلة...

وكان السيد علي مرسيل الرباطي ناظرا بالمسجد الأعظم بالرباط، ومازال توقيته بيد أحفاده إلى اليوم (52)، والحاج التهامي بن يحيى السوسي السلاوي الذي كان ناظرا في سائر مساجد مدينة سلا وأوقافها (53) والسيد المكي بركاش الذي تولى نظارة الرباط عام 1185 في إبان المولى محمد بن عبد الله (54)، وسعيد ابن الحاج العربي بن الصغير الفيلالي (55) ومحمد بن أحمد الشامي المدعو النقيب الذي كان ناظرا على مسجد القرويين، والذي ورد ذكره، كذلك، بدفتر الأحباس المكناسية أيام المولى محمد بن عبد الله(56)، وأبي مدين الفاسي الذي كان ناظر زاوية جده سيدي عبد القادر الفاسي (57)، وكذلك ناظر الزاوية القادرية الطيب بن علي القادري في عهد المولى عبد

52) الاتحاف ص : 3/353، وكان تلميذ علي مرسيل في التوقيت السيد الحاج محمد التريكي (انظر : «اتحاف أشراف الملاء والاغتباط، ص : 1/192) كما كان بالرباط الموقت السيد عبد الرحمن بن عبد الله لبريس (ت 1307 - 1890م) (انظر : الفصل الثالث عشر الذي عقده الأستاذ محمد المنوني تحت عنوان : «موضوعات فلكية جديدة» في كتابه القيم الذي صدر أخيرا بعنوان : «مظاهر يقظة المغرب الحديث» ص : 206 - 1/236، عن دار الغرب الإسلامي...

53) المصدر السابق ص : 3/354.

54) المصدر السابق ص : 3/350.

55) المصدر السابق ص : 3/352.

56) المصدر السابق ص : 3/356.

57) المصدر السابق ص : 3/356.

الرحمن بن عبد الله، ثم الحاج محمد والزهراء، ومحمد بن الجيلاني الغسال في زاوية سيدي امحمد بنعيسى بمدينة طنجة في خلافة المولى عبد الرحمن، والحاج الطيب ابن عبد الرحيم غريط بمدينة مكناس، والحاج المهدي بناني بفاس، والحاج احمد غنام بالرباط، والحاج عبد القادر بناني الذي تولى أحباس القرويين في خلافة السلطان عبد الرحمن بن هشام، والأمين أبي العباس أحمد عواد السلوي بمدينة سلا، والأمين الحاج عبد الله حصار في عهد المولى الحسن وكذلك حم بن الجيلاني، والحاج محمد السويسي بالرباط عام 1239 هـ (58)، وامحمد بن أحمد بن مسعود الرباطي يعرف بطريدانو، (ولد : 1269 ـ 1335 هـ) الذي تولى نظارة أحباس الرباط، فضبط شؤنها، وقد بقي بالمدينة المنورة نحو خمسة وأربعين عاما بباب حجرة مولاتنا فاطمة الزهراء (59) وأحمد الصبيحي الشاعر الذي تولى نظارة مكناسة، والسيد إدريس الفيلالي ناظر أبي الليوث بمدينة الدار البيضاء...

وتزخر المنطقة الخليفية بالشمال، سابقا، بنظار أمناء قديرين، عرفوا بالضبط والحزم، والصدق ومراقبة الله كالسيد محمد بن محمد المسناوي نائب وزير الأحباس بناحية «بياسانخورخو» والسيد عبد السلام بن الحاج محمد ابن عمراشن نائب وزير الأحباس بالناحية الشرقية، والسيد أحمد بن عبد السلام الخلطي ناظر أحباس الخلوط، والسيد محمد بن عبد السلام البقالي ناظر أحباس بني أحمد... كما رشح رئيس الوزراء الصدر الشريف سيدي أحمد الغنمية، السيد محمد بن محمد البقالي لوظيفة ناظر أحباس قبيلة بني أحمد بناحية اغمارة، والسيد أحمد بن عبد السلام عليلش لوظيفة ناظر أحباس قبيلة بني خالد، والسيد محمد المراكشي ناظرا للقصر الكبير، ومحمد بن محمد بن حمو ناظر أحباس قبيلتي كبدانة، وأولاد ستوت، والسيد الطاهر ابن الفضل الشلي السريفي ناظر أحباس بقبيلة أهل سريف خلفا للسيد المختار بن محمد الخراز، والسيد ميمون بن محمد بن حموش الكبد اني خلفا للسيد بن حمو لقبيلتي كبدانة وأولاد ستوت، والفقيه السيد محمد بن عبد السلام الناصري بمدينة أصيلا، والسيد محمد بن سلام بن محمد ناظر أحباس بقيوة، بدلا من الفقيه السيد أحمد بن الحاج أحمد البو يعقوبي،.. والسيد المختار بن الحاج المقدم ناظرا لقبيلة شيكر وقبيلة بو يفرور، خلفا للسيد عيسى شنا علال، والسيد أحمد بن علي البقالي ناظر أحباس قبيلة «أنجرة» بالناحية الجبلية وبقرار وزيري من رئيس الوزراء السيد أحمد الغنمية، عين الفقيه الأديب امحمد بن عبد الرحمن الزكاري كاتبا أولا بوزارة الأحباس بتاريخ 1937/4/20. وكذلك السيد عبد الله بن الحاج محمد الخطيب عين كاتبا ممتازا خلفا للسيد محمد بن محمد بن تاويت.

بل إن حماة المنطقة الشمالية وكماتها من العلماء العاملين، والزعماء المخلصين كانوا يرعون شؤون الوقف، ويذودون عن حماه، وينافحون دونه، ويعملون على تنمية مداخله ولقد تأسس «مجلس الأحباس العام» بالمنطقة (60) الشمالية تحت رآسة الخليفة السلطاني في قصره، بحضور الهيأة الوزارية، رعيا ومحافظة على شؤون الوقف...

وقد ألقى الزعيم الفذ السيد عبد الخالق الطريس الوزير السابق للأحباس، والعضو في «مجلس الأحباس العام» خطابا رائعا جامعا وطنيا تناول فيه مادة الوقف، وأهمية الأحباس في تركيز روح الإسلام في بلاد المسلمين...

ثم تلاه الشاعر الصحراوي سيدي ماء العينين ابن العتيق، فألقى قصيدة عصماء أشاد فيها بالدور الخطير الذي تقوم به مؤسسة الأحباس في رحاب الساحة الإسلامية... ثم خطاب وزير الأحباس العلامة الأديب سيدي محمد بن عبد القادر بن موسى، وتلاه وزير العدلية، وقاضي القضاة الشريف العلامة سيدي محمد بن التهامي أفيلال...

ثم خطب الصدر الأعظم الشريف سيدي محمد الغنمية وكان مسك الختام خطبة صاحب السمو الملكي.

58) الاتحاف ص : 5/230.

59) الإعلام، للمراكشي : ص : 7/216. كان رحمه الله فقيها مشاركا نبيلا، ذا أخلاق حسنة، زوارا للصالحين، محبا لأهل العلم والمنتسبين...

60) دشن «مجلس الأحباس العام» صباح الأربعاء 16 حرم 1358 ـ 1939/3/8.

وقد عين الفقيه العلامة وزير الأحباس السيد محمد بن موسى عضوا عاملا بذلك المجلس في 1939/2/25، ومثله لرئيس المجلس الأعلى للتعليم الإسلامي الفقيه العلامة سيدي الحاج أحمد الرهوني، والشيخ العلامة السيد محمد المرير والفقيه السيد أحمد الحداد رئيس المحكمة العليا للاستئناف المخزني، والذي أصبح فيما بعد صدرا أعظم... والفقيه السيد محمد بن المكي الريسوني مدير الأملاك المخزنية، والأستاذ السيد عبد الخالق الطريس، والأستاذ محمد المكي الناصري، والسيد محمد الطنجي، والسيد محمد داود، والوجيه السيد محمد السلاوي الذي كان وزيرا فيما سبق...

كما عين الفقيه العلامة الشريف سيدي أحمد الزواقي عضوا مستشارا بذلك المجلس، ومثله للفقيه العلامة السيد الحاج أبو عبد الله محمد الفرطاخ محدث تطوان، الذي تقلب في عدة وظائف، وكان مستشارا شرعيا بوزارة الأحباس، والفقيه السيد محمد الصفار، والفقيه السيد عبد السلام الفاسي، والكاتب السيد العربي اللوه، والفقيه السيد الحاج أحمد المربطو، والسيد مولاي علي الخمليشي، والفقيه السيد محمد بن علي العبد لاوي، والفقيه السيد محمد الصنهاجي، والفقيه السيد الحاج محمد بن عباد، والحسن العمارتي، ومحمد بن العربي اليملاحي، والسيد امحمد بن العربي الزكاري الزياتي... والفقيه السيد عبد السلام بن الخضر الجباري، والفقيه السيد أحمد الطود، والفقيه العربي الورياشي، والفقيه السيد أحمد مشبال، والسيد محمد التوزيني، والفقيه إبراهيم بن المامون، والفقيه محمد بن المختار الغرباوي، والفقيه ميمون بن محمد حموش...

صفوة مختارة... وأطر عالمة...

عرفت وزارة الأوقاف، في المملكة المغربية، وفي مختلف عهودها الزاهرة أطرا عالية من موظفيها، وصفوة مختارة من العلماء والفقهاء والأدباء كانت تسند إليهم مهام بهذه الوزارة، ومناصب سامية يزدان عقدها بوجودهم... فكان منهم العالم والفقيه والزعيم والمصلح والشاعر والأديب والطبيب.

والمجال لا يسمح بإعطاء نظرة موجزة عن كل العلماء الأفذاذ الذين تعاقبوا على مناصب سامية بوزارة الأوقاف المغربية، ويكفي أن نشير، باختصار، في هذه العجالة إلى أننا عرفنا شخصيات أسهمت في الحركة الفكرية، والحقل الأدبي، إسهامات تركت بصماتها على الساحة الفكرية والأدبية في هذه البلاد...

لقد عرفنا من هؤلاء الصفوة الرائدة القاضي الحاج أحمد ابن الحاج العياشي سكيرج الخزرجي الأنصاري الأندلسي الفاسي ناظرا لأحباس فاس الجديد، فأقام بها خمسة أعوام، ثم توجه، برسم النيابة عن الحضرة الشريفة لتهنئة شريف مكة بالاستقلال بالملك على القطر الحجازي، وتأسيس المعهدين المغربيين، بمكة والمدينة، ثم سمي عضوا عاملا بجمعية أوقاف الحرمين الشريفين... السيد سكيرج هذا، رحمه الله، له قصائد وطنية طنانة، وله من التآليف ما يناهز المائة في موضوعات متنوعة، وقد طبع منها نحو العشرين، وترجم منها للغة الفرنسية تأليفه المسمى : «إيقاظ المتعلم والناسي، في صفة إشكال القلم الفاسي».

وممن عرفنا من موظفي وزارة الأوقاف العلماء، الأديب أحمد الصبيحي ناظر أحباس مكناس، ونظارة أحباس الحرمين الشريفين، والذي أظهر في وظيفته مقدرة كبيرة، وأمانة نادرة، ونزاهة عجيبة حتى لفت ذلك نظر جلالة الملك، فأنعم عليه بالوسام العلوي، له من المؤلفات العلمية والتاريخية ما يربو على العشرين، ويكفي أنه تلقى علمه بجامع القرويين على أحمد بن الخياط، وخاتمة المحققين سيدي محمد القادري والفقيه الكبير الحاج محمد كنون وله أشعار كثيرة...

وممن عمل بوزارة الأوقاف الفقيه العلامة السيد محمد البكاري المفتش على أحباس مكناس، والكاتب بوزارة الأحباس، ومن شعره في وصف مراكش :

مراكش البلد الحمراء طبت فطب، الأنس منك، بأهل الفضل والأدب
من أم ربعك حل الزهو ساحته وزال عنه الذي يخشاه من تعب

والفقيه الكاتب السيد الطايع بن إدريس القادري أحد العدول الثقاة بنظارة الأحباس من مدينة فاس، ومن شعره

في الربيع يخاطب الأديب البكاري، الآنف الذكر في قصيدة مطلعها :

وافى الربيع، فهل يدنى مواعدكم
طيب الوصال، وهل للوصل إنجاز
وهل أراني راح الوصل أمزجها
صرف الوداد، وما إذ ذاك لماز

والفقيه حليف الأدب والأدباء، وسلالة الوزراء السيد محمد بوعشرين الذي عين ناظرا لعموم أوقاف الأندلس، وكاتبا بقسم مراقبة الأحباس بإدارة الأمور الشريفة، ثم مراقبا عاما لنظارات الأحباس بمكناس وزرهون ثم وزيرا عاما للأوقاف...

وكان السيد بو عشرين من الروافد الأولى للوطنية المغربية الذين نشأوا أو أقاموا ـ طويلا ـ بالشرق العربي،ثم عادوا ـ في تلك الفترة ـ إلى وطنهم، كمحمد بن مصطفى بن محمد ابن سعد التلمساني، ثم التازي (61)، والحاج علي زنيبر السلوي الأديب الشاعر، صاحب القصائد، والذي عاش بمصر ثلاثة وعشرين عاما (تـ 1332 هـ) والشاعر المطبوع عبد الله القباج الذي كان من سامي موظفي وزارة الأوقاف، وكلا الأديبين محمد بن ادريس بوعشرين المكناسي، وعبد الله القباج، من تربية الحجاز بعد ما كان مولد بوعشرين بالمدينة المنورة، والقباج بمكة المكرمة (62)...

كان الأديب بو عشرين شاعرا مبدعا، ومن شعره في تقريظه مسامرة المرحوم السيد الطاهر المعاوي الذي كان موظفا بالإدارة الأهلية بفاس :

سمير العلم إذ ألقى بفاس
مسامرة لتهذيب وحذق
فكان كأنما ألقى علينا
فرائد «حافظ» وبديع «شوقي»
وما ساد الأماجد في البرايا
سوى بالعلم، ثم سليم ذوق

ولقد كانت أول وزارة للأحباس لدى تأسيسها تحت إشراف الوزير السيد أحمد الجاي تضم نخبة من العلماء والأدباء كالفقيه الأديب الشريف السيد أحمد بن الغالي العراقي الموظف بإدارة الأحباس من فاس، ومن شعره في وزيرها أبي العباس أحمد اللجائي :

فاس تبسم ثغرها إذ زرتها
وكذاالرياض تفوح بالأزهار
وكذا البطاح يزينها، ويزينها
من غيث كفك صيب الأمطار

والفقيه الأديب السيد محمد بن محمد قصارة، ومن شعره في الوزير المذكور مهنئا إياه بحلول عام 1340 :

وزير به شمس الوزارة أشرقت
على قضب الأفراح في روضة الورد
وزير تسامى بالمحامد مفردا
وخرت له الأطواد راغمة الخد
وزير به الأوقاف شيدعرشها
على فلك الإقبال وافرة النقد...

والفقيه الأديب السيد العربي بن سودة الكاتب بوزارة الأوقاف وإمام مسجد باريس، له تهنئة للوزير المذكور بمناسبة توسيمه بوسام البلجيك المنعم به عليه من قبل ملكها، إشعارا بالتكريم، منها :

ومنها وسام لبلجيكة
أتاك، وهمه أن تقبلا
فقابلت مقدمه بالرضى
وبالفخر قلدته فاعتلى
ولازلت في كل آونة
رداء المفاخر مشتملا
ولا برح المجد يخدمكم
ومن شأنه خدمة الفضلا

ومن الأدباء الذين عملوا في رحاب الوقف الأديب السيد أحمد النميشي الذي عين على أحباس المساكين بفاس لما اشتهر به من الحزم والضبط والشغف بالنظام والحنو على الضعفاء والمساكين والفقراء... كان شاعرا وطنيا وممن أثاروا الحماس، وأوقدوا جذوة الوطنية في النفوس، والهبو المشاعر والوجدان، كما كان من الرعيل الأول الذين طالبوا

61) انظر ترجمته في «معجم الشيوخ» لسيدي عبد الحفيظ الفاسي ـ ص : 61 ـ 1/63.

62) «مظاهر يقظة المغرب الحديث» ص : 2/308.

بإصلاح التعليم بجامع القرويين... ومن المفاخر التي ازدانت بها وزارة الأوقاف، إسناد هذه الإدارة في عهد المغفور له المولى محمد الخامس، إلى العلامة الوطني المجاهد مفخرة هذه البلاد الوزير الأستاذ محمد المختار السوسي صاحب التآليف العديدة، والوزير الأستاذ الخطيب العالم الضليع الشيخ محمد المكي الناصري، والوزير الطبيب النطاسي الأستاذ أحمد رمزي...

كما كانت إدارة الوقف تتوفر على صفوة من رجال الفكر والوطنية كالكاتب العام السابق العالم المحدث الضليع الشاعر المرحوم الحاج عبد الرحمن الدكالي الذي ولد بمكة المكرمة، وتوفي بالمدينة المنورة، والباحث القدير الأستاذ عبد العزيز بنعبد الله، وأخينا الأديب الناقد المحقق الوزير الأستاذ عبد القادر الصحراوي، والأستاذ العالم الشهيد محمد التائب، والأستاذ الجغرافي الأديب المجاهد الطاهر بن أبي بكر زنيبر، رحم الله الجميع... والوطني الشهم الصامد المومن. من مؤسسي جريدة العلم الراقية ومديرها الأول السيد عبد الجليل القباج حفظه الله الذي كان مفتشا عاما لوزارة الأوقاف، والعالم السلفي الوطني الصادق الأستاذ السيد محمد الطنجي الذي كان مديرا لقسم التوجيه والإرشاد الديني، والمرحوم الأستاذ عبد الرحمن عواد الذين كان ناظرا بمدينة الدار البيضاء والذي له وَلُوعٌ بالأبحاث الدقيقة.

فهؤلاء، جميعا، كانوا أحرص الناس على حياة المؤسسة الوقفية، وديمومتها، منفذين ما في كتب الوقفيات، وملبين رغبات الواقف.

☆ ☆ ☆

وتسير بنا شجون البحث إلى ما يتعرض له الناظر من نقد لاذع، وتعرض ساخر لشخصه من بعض الفضوليين الذين يتعقبون نشاطه، ويتسقطون أخباره، ويغتنمون أية فرصة للتشهير به، والتشنيع عليه، وذلك مثل ما وقع لناظر المدرسة المؤيّدية وعمارتها السيد بهاء الدين البُرْجي... فقد انتهت هذه العمارة عام 819 هـ حيث بلغت النفقةُ عليها أربعين ألف دينار، واتفق بعد ذلك بسنة مَيْلُ المِئذنة، (62 مكرر) التي بنيت لها على البرج الشمالي بباب زُويلة...

وقد أنشد تقي الدين بن حجة أبياتا يُعَرِّض فيها ببهاء الدين البُرْجي :

على البُرج من بابي زويلة أنشئت
منارةُ بيتِ الله للعمل المُنجي
فأخْفَى بها البرج اللعين أمالَها
ألاَ صَرِّحُوا، ياقومُ باللعن للبُرج...

وقال شعبان الآثاري :

عَتَبْنَا على ميلِ المنارِ زويلةً
وقلنا : «تركتِ الناس بالميل في هرج»
فقالت : «قريني، بُرجُ نحسٍ أمالَني»
بلا بارك الرحمنُ في ذلك البُرْج !

وقال الحافظ ابن حجر يعرِّض بالعيني شارح البخاري :

لجامع مولانا المؤيدِ رونقٌ
منارتُه بالحُسْنِ تزهو، وبالزّينِ
تقول : وقد مالتْ عن القصدِ : «أمهلوا،
فليس على جسمي أضَرُّ مِنَ العينِ»

فقال «العيني» معرِّضا بابْنِ حَجَر :

منارةٌ كعروسِ الحُسن، قد جُليتْ
وهدمُها بقضاءِ الله، والقدَر
قالوا : أُصيبت بعينٍ قلتَ : «ذا غلطٌ
ما أوجبَ الهدمَ إلا خِسّةُ الحجر»(63)

☆ ☆ ☆

62) مكرر : انظر بحثا عن : «نشأة المِئذنة» للدكتور عبد المنعم عبد العزيز رسلان. مجلة : «الدارة» السعودية ع : 1/س : 11، يونيو عام 1985.

63) «حسن المحاضرة» للسيوطي ص : 146 ـ 2/147.

الذين تَنَازَلوا عن مُرتباتهم :

وهكذا نجد الناظر في كتب الوقفيات، تنفيذا للشروط، يجدد وينفذ بدقة أوجه المصاريف المشار إليها في شروط الواقف، لذلك، نراه، لا يتعدى، مثلا، المقادير المخصصة لأجور الأئمة والمؤذنين والخطباء، والشيوخ ومنح الطلبة، والمكافآت العلمية، وشراء الحصر، والأدوات والأوراق والحبر والأقلام... وغير ذلك من وجوه البر والعرف والإحسان المنصوص عليه في الوثيقة الوقفية...

وقد ذكر محمد حسن الوزان أن من وظيفة الإمام إدارة إيرادات جامعه إذ عليه أن يمسك حسابا دقيقا، وأن يوزع الإيرادات بين مستخدمي الجامع، كأولئك الذين يتعهدون المصابيح التي توقد ليلا، وكذلك الذين يقومون بحراسة الأبواب، والمؤذنون الذين يؤذنون ليلا، داعين إلى الصلاة من أعلى المئذنة... ولكن الذين يؤذنون في أوقات صلاة النهار لا ينالون أي أجر، وإنما يعفون من ضريبة العشر، ومن جميع الضرائب الأخرى (63 مكرر).

وإننا لنجد في تاريخنا الإسلامي وحضارته الرائدة بعض الشيوخ الأجلاء من وقف كتبه لدور العلم، وتنازلوا عن مرتباتهم الدينية لصالح مكتباتها، كما فعل الإمام النووي (64) الذي كان مديرا لدار الحديث الأشرفية وناظرا مدة طويلة، ولم يثبت أنه استغل نفوذه الروحي في تسييره. من متاعها، ولا بحث عن مقابل مادي لأعماله، بل كان يترك مرتبه يجتمع لدى الناظر، حتى إذا تجمع منه مبلغ لا بأس به اشترى به أملاكا وكتبا، ووقفها على دور العلم... وكان يرى أن أخذ الأجرة عن الأمور المتعينة مكروه في نظر العلماء الورعين...

وكذلك نجد من وقف أعماله في سبيل الله، أبا عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن محمد الهندي (65)، وأبا العباس أحمد شمس الدين أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبد الجبار بن صلحة الحلبي (66).

وهكذا كان العلماء، فيما مضى، ومنذ الصدر الأول لفجر الإسلام، يتورعون حتى عما يحل لهم أخذه من الأجور، واستعمال المواقف المباحة... وقد ثبت عن القائم أبي محمد بهاء الدين ابن عساكر - وهو من شيوخ دار الحديث النورية - أنه كان لا يتناول من مرتبه شيئا، وأنه جعله كله لمن يرد على المدارس من الطلبة والعلماء، وأنه فوق هذا لم يثبت عنه أنه شرب من مائه ولا توضأ منه (67).

الجهة التي لها الصلاحية في تقدير أجرة الناظر :

إذا كان للناظر أجرة يتقاضاها مقابل ما يبذله من جهد واتعاب، في سبيل تنمية الوقف ورعايته... فمن هي الجهة التي لها الحق والصلاحية في تقدير الأجرة والثواب ؟

هل يقدرها القاضي ؟

هل يقدرها ويحددها الواقف ؟

وهل لهذه الأجرة حد معين ؟ أو تختلف باختلاف حال الناظر ونشاطه، وتقدير الواقف ؟... أو يأخذها من بيت المال ؟

هناك من رجال الفقه من يرى أن تقدير الأجر يتم عن طريق الواقف، إذ الوقف تم بإرادته، وصيغ بعبارته وكتب شروطه، وحق المستحقين قرر بشرطه، فكذا أجر الناظر...

والمالكية يقررون، أن للناظر، بشرط الواقف، ما عينه له المحبس، ولو أكثر من أجر المثل (68)، وأن ما زاد على أجر المثل، إنما يستحقه الناظر، لا باعتبار إدارته للوقف، والنظر عليه، بل باعتباره مستحقا في الوقف (69).

---

63) وصف إفريقيا ص : 230.

64) تذكرة الحفاظ، للذهبي ص : 4/252.

65) كما ذكره في كتاب : الدارس من المدارس ص : 1/130.

66) المصدر السابق ص : 2/141.

67) أسعد طلس «مجلة المقتطف» عدد : 104/ عام : 1944.

68) الدسوقي على الشرح الكبير ص : 4/88.

69) «فتح الجواد، في شرح الإرشاد» ص : 1/464، لأبي العباس أحمد شهاب الدين بن حجر الهيثمي المكي الشافعي (ت : 972 هـ) ط : الميمنية. س : 1347، والمال المشروط للناظر مستحق على العمل المشروط عليه. فمن عمل ما عليه يستحق ماله (فتاوي ابن تيمية ص : 75/ج : ٦-).

وهناك بعض الفقه من يرى أن للقاضي أن يقدر، ويقرر للناظر المنصوب من قبله أجرا مقابل قيامه وإدارته الوقف، والنظر عليه، والاهتمام به... والأجر المقدر من طرف القاضي يجب أن لا يزيد عن أجرة المثل، إذ لا يجوز للقاضي بخلاف الواقف، من التصرف الا ما فيه الغبطة والمصلحة، وفائدة الوقف...

فالواقف يتصرف في وقفه كيف شاء، ويفرض للناظر ما يريد ويشاء، بل ويسوغ له أن يجعل كل الغلة للناظر...

وفي المذهب المالكي، يأخذ الفقهاء بأن للقاضي الحق في تقدير أجر الناظر، والأجر المقدر من القاضي هو أجر المثل، فإن زاد رد الزائد، «فإن لم يجعل الواقف لوقفه ناظرا، فالحاكم يولي عليه من شاء، ويجعل له أجرة من ريعه» (70)... وينقل الرعيني المعروف بالحطاب في كتابه العظيم : مواهب الجليل لشرح مختصر أبي الضياء خليل» ما يلي : «قال ابْن عرفة عن ابن فتوح : «للقاضي إن يجعل لمن قدمه للنظر في الأحباس رزقا معلوما في كل شهر باجتهاده في قدر ذلك بحسب عمله وفعله» (71).

وقد سئل العبدوسي، كما في المعيار، عمن كان يؤم بمسجد، ويقوم باحباسه خمس سنين، فطلب أن تفرض له الإجارة على فعله في المدة الماضية، ويفرض له في المستقبل ؟...

فأجاب : «... أما طلب أجرته على نظره في المستقبل، فإن كان المحبس سمى للناظر شيئا، فيعطاه فقط، وإن لم يسم له شيئا، فجرى العمل أن تفرض له أجرة مثله على قدر نظره وكفايته، بل وتصرفه في ذلك، ولا يجوز ذلك بعشر ولا غيره...

ويقرر الفقهاء من المالكية وغيرهم أن الناظر يأخذ أجره المقدر له من قبل القاضي، من بيت المال، لا من غلة الوقف، فقد نقل ابن عات (72) في الطرر عن المشاور : «إن أجرة الناظر إنما تكون من بيت المال، لا من الأحباس، وأفتى بذلك ابن ورد (73)، وخالفه عبد الحق بن عطية، وقال ذلك جائز، لا أعلم نص خلاف فيه...

وقد علل القائلون بهذا الرأي مسلكهم هذا، بأن إعطاء الناظر من غلة الوقف تغيير للوصايا، فكأن الواقف حين حبس ماله، ولم يعين شيئا للناظر، منع بفعله هذا من إعطاء الناظر شيئا من غلة الوقف (74).

وقد نسب الرعيني في كتابه الانف الذكر، هذا الرأي، لابن عتاب، وابن ورد، حيث يقول (75) ما نصه : «الأئمة ابن عتاب عن المشاور : لا يكون أجر الناظر إلا من بيت المال، فإن أخذها من الأحباس، أخذت منه، ورجع بأجره إلى بيت المال، فإن لم يعط منها، فأجره على الله، وإنما لم يجعل له فيها شيء، لأنه تغيير للوصايا، وبمثل قول المشاور، أفتى ابن ورد، قال : «لا يجوز من الأحباس، إلا أن يحمل على من حبس».

وقد حمل بعض الباحثين قول ابن عتاب ومن وافقه وشايعه من فقهاء المالكية على اعتبار أن إدارة الأوقاف من المصالح التي يجب على الدولة القيام بها، وبالتالي يجب دفع مرتبات العاملين عليها من النظار وغيرهم، لأن الكثير من هذه الوقوف خصصت ابتداء لأعمال البر والعرف والإحسان والنفع العام كبناء المساجد والمستشفيات، ومساعدة الفقراء ورعاية الإيتام (76)...

---

70) حاشية الدسوقي، والشرح الكبير ص : 4/88.

71) مواهب الجليل ص : 6/40.

72) أحمد بن محمد بن هارون بن عات النفزي الشاطبي، كان أهل شاطبة يفخرون به، وبابن عبد البر، إذ كانا على سنن الصالحين، وكان يستظهر عدة كتب» قال ابن نذير : حضرته في الموطا والبخاري يقرأ منهما كل يوم نحو عشرة أوراق من لفظه عرضا، لا يتوقف في شيء من ذلك... فكان من كبار الحفاظ الجامعين بين الفقه والحديث والأدب، وهو بالحديث أشهر، وكان مجيدا للنظم والنثر، له تصانيف، ولقد رحمه الله في وقعة العقاب بناحية جيان غازيا عام 609 هـ (الفكر السامي ص : 4/64 انظر الديباج ص : 59، أزهار الرياض : ص : 4/108).

73) أبو القاسم أحمد بن محمد بن عمر بن يوسف التميمي المعروف بابن الورد، الفقيه الأصولي المفسر الحافظ، انتهت إليه رياسة الأندلس في مذهب مالك، له شرح على البخاري، (ت : 540 هـ) (شجرة النور الزكية، ص : 1/134).

74) الكبيسي : ص : 2/229.

75) مواهب الجليل ص : 6/40.

76) محاضرات في الوقف للشيخ أبو زهرة ص : 348.

يخلص مما سبق، أن لناظر الوقف تفرض له مقابل اتعابه أجرة المثل والمرتب على قيامه، وإن لم يكن مرتب في الحبس...

فقد سئل سيدي عبد الله العبدوسي عن حبس مسجد لنظر إمامه، زاد ريعه على ما كان عليه، وعجز الإمام عن النظر، وأريد تقديم ناظر ليقوم به، ويتفقد أحواله على مرتب من فائدة الحبس ؟

فأجاب : يجوز له أخذ المرتب على ذلك وإن لم يكن مرتب في الحبس، هذا المختار من القول، وبه مضى العمل».

وقد أجمل هذه الأقوال صاحب العمل المطلق فقال (77).

وناظر الأحباس، قد جرى العمل
أن لـــه تفرض أجرة المثل

وقد تحدث، بتفصيل، وفي سبعين بيتا عن «علم النظارة» سيدي الرحمن الفاسي في منظومته : «الأقنوم، في مبادئ العلوم» (78) فبسط القول في نظارة حبس جامع القرويين، ونظارة حبس المدرسة المصباحية بفاس، ونظارة حبس المدرسة العنانية بفاس، أيضا، ونظارة أحباس مدرسة العطارين، ونظارة أحباس مدرسة الوادي بفاس، وذكرما ينوب الناظر من الأجر، والقابض والفارض، ومن بيده الزمام فقال :

علم بمـا يفعل في الأحباس
وطرفها بأمرها السياسي
وقد جرى بما يضاف لنظر
ناظرنا بفاس فيها واشتهر
جمع خراج الشهر من ذاك الحبس
بالقرويين... فيوخذ الخمس
ونصف ذا الخمس للقباض
وخمس خمس البـاقي للفراض
وباقي ذا الخمس يعطى للـذي
بيده الزمام الأكبر خذي
وخمسا ذى النصف للشهود
ومثلـه للناظر المعهود
بيانه القباض عشر المال
وخمس الخمس في المثال
لناظر، كذا الشهود والزمام
مع فارض عشر خمس باقتسام
لنائب في الفرض عنه خمس ذا
أي خمس عشر خمس قد أخذا...

وهذا ما يتعلق بنظارة جامع القرويين بمدينة فاس...

تفقد... ورعاية...

ولقد كان الولاة الساهرون على أعيان الوقف وأمواله يتابعون تحركات الوقف بنشاط دائب، وحماس كبير، وعناية ورعاية، فيتفقدون شؤون الأحباس، ويتعهدونها بحزم وجد وإخلاص، ويعاقبون من قام بإهمال أو تقصير، ممن بدد أموالها في حمق وسفه وتبذير، وشره واختلاس...

وبين أيدينا رسالة عزيزية إلى ناظر الدار البيضاء أبي شعيب ابن المعطي في 16 جمادى الثانية 1312 تمثل حرص ملوكنا على أموال الوقف، ومصالح الأحباس، تقول الرسالة :

«... وبعد، فقد وصل كتابك باتمامك المحاسبة مع أمناء مرسى ذلك الثغر على داخل وخارج مستفاد الأوقاف المذكورة حسبما بالورقة الواردة متضنة لذلك... ذاكرا أنهم أسقطوا لك من الخارج المائتي مثقال التي أخرجتها في أجرة الغياظ عن عدة رمضانات، وأن العادة في محاسبة النظار اسقاط ثمن عشر الداخل في مقابلة الكسر الذي يقع في سكة الفلوس.
وصار بالبال...

77) محمد بن قاسم السجلماسي ص : 155 / ملزمة : 7/32.

78) انظر دراسة دقيقة ومفصلة ومبوبة عن «الأقنوم» في كتاب «التراتيب الإدارية» للشيخ عبد الحي الكتاني ص : 2/195.

أما أجرة الغياط (79)، فلا وجه لإدراجها في الصائر، إذ لا مستند لها في الشرع، ولا في العرف المبني على أصل من أصوله، وأما العرف الذي لا أصل له، فلا يعتد به، على أن هذا الغياط إنما يترتب هنالك لأجل مجاورته للعامل...

وأما الاسقاط من الداخل في مقابلة الكسر، فلم يعهد تسليمه لأحد من النظار، ولا تشوف أحد منهم إليه إلا من يروم إضاعة مال الحبس بغير وجه، اذ كل ما يقبل العد، فكما يدخل به، يخرج به كذلك...

اهتمام المسؤولين برعاية وتكريم الموظفين الدينيين...(80).

كان رؤساء الدولة المغربية وولاتها وملوكها يوسعون على الخطباء والأئمة وباقي الموظفين الدينيين، ويحثون النظار على مؤازرتهم ومساعدتهم والزيادة في أجورهم، ويقفون بأنفسهم على ماتم من منجزات وقفية، ويشرفون على شؤون الوقف في مختلف مراحله، قال صاحب الجذوة : «حكي أن السلطان أبا عنان المريني صعد الصومعة بالقرويين ليعتبر المدينة وترتيبها، ووقف على المنجانة، وما اتصل بها، فاستحسن ذلك، وأنعم على الناظر فيها بمرتب، وسع عليه فيه ليستعين به على القيام بشعائر الإسلام، وذلك في عام 749، قال : وأمر أثر ذلك بأن ينصب بأعلى الصومعة صاري من خشب، وينشر فيه علم الأوقات التي يصلى فيها، وفنار فيه سراج مزهر في أوقات صلاة الليل، ليستدل على ذلك من بعد، ومن لم يسمع النداء... وفي ذلك اعتناء بأمور الأوقاف، وما يتعلق بها من وجوب الصلوات، ويترتب عليها من وجوه الحقوق في العادات والعبادات... ولقد لخص ابن الخطيب رحمه الله تعالى في «رقم الحلل» سيرة السلطان أبي عنان، فقال :

وخلص الأمر لكف فـــــــارس
بـــاني الـزوايـــا الكثر، والمــدارس...

وهذه رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى عامل تطوان تتعلق بصلة العلماء والطلبة والمؤدبين والمؤذنين والوعاظ وغيرهم... حيث كان العلماء يتقاضون رواتب شهرية قارة، بالإضافة إلى ما كان يصلهم من عطاآت السلاطين، وينوبهم من الأحباس الموقوفة عليهم... كما كان ملوك المغرب وولاته يصلون طلبة العلم ومعلمي الأطفال، وكل الذين يشرفون على عمل من أعمال الدين كالمؤذنين والموقتين والحزابين ومقدمي المدارس العلمية... فقد بعث السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى عامله بتطوان الحاج عبد القادر أشعاش تبين عدد العلماء والفقهاء ببلده وطبقاتهم، ومبلغ الصلة المخصصة لكل واحد منهم، وهذه الرسالة محفوظة بمديرية الوثائق الملكية، وتاريخها 7 رجب عام 1261 هـ الذي يوافق يوم السبت 12 يوليوز عام 1845...

الحمد لله وحده... وبعد، فقد انعمنا بصلة على الفقهاء وطلبة العلم الفقهاء الكبار، وهم ثلاثة عشر. خمسة عشر مثقالا للواحد، ثم الطبقة الثانية التي تليهم، عددهم أربعة وعشرون، خمسة وسبعون أوقية للواحد، ثم الطبقة الرابعة المبتدئون عددهم ستة وعشرون، خمسة وعشرون أوقية للواحد. اجتمع في الجميع خمسمائة مثقال، وخمسة عشر مثقالا...

كما أنعمنا على المؤدبين بمائة مثقال، وعلى المؤذنين بمائة مثقال أخرى، وعلى الأشراف بثلاثمائة مثقال... فمر الأمناء أن يدفعوا لكل فريق ما أنعمنا به عليه... والجميع

---

79) قال أبو عمر بن عبد البر في «الكافي» : «في المكاسب المجمع على تحريمها : الربا، ومهور البغايا، والسحت، والرشا، وأخذ الأجرة على النياحة... وعلى الزمر، واللعب والباطل كله، كما نقله القرطبي في التفسير، ومن صلابة الإمام أبي بكر بن العربي رحمه الله، أنه حكم على زامر بثقب أشداقه حسبما نقله صاحب المعيار (أزهار الرياض ص : 3/88 نفح الطيب ص : 2/29) وهناك حكاية الإمام الشعراني مع الزمار، إذ رأى شيخا كبيرا، ينفخ في مزمار، والناس يتفرجون عليه، فاعترض عليه في سره، فما كان من الشيخ إلا أن قال : «يا عبد الوهاب، أتريد أن ينقص ملك ربك مزمارا، فعلم الشعراني أنه من أولياء الله تعالى (تفسير المنار للشيخ رشيد رضا... ص : 2/81)، ورحم الله سيدي أبا مدين شعيبا على ما نسبه له بعض الأئمة :

لا تحسبوا الزمر الحرام، مرادنا
مزمارنا : التسبيح والاذكار

(أزهار الرياض ص : 2/309).

80) سيأتي الكلام بتفصيل عن الأجور التي يتقاضاها الموظفون الدينيون في الحلقة الثالثة، بإذن الله.

ألف مثقال واحد، وخمسة عشر مثقالا... فوجه لنا زمام عدد المؤذنين والمؤدبين والأشراف، وما وجب لكل فريق في صلته والسلام : 7 رجب 1261.

ومن ذلك، أيضا، ما نجده في رسالة عزيزية إلى ناظر أحباس الدار البيضاء في 29 جمادى الأولى 1318 تقول : «... وبعد، فقد بلغنا أن الخطباء بالمساجد الجامعة هناك، إنما يقبضون في خراجهم الشهرية ستة مثاقيل للواحد... مع ارتفاع أسعار الوقت، وكون راوي الحديث يقبض أكثر منهم، وعليه، فنأمرك أن تزيد لكل منهم ثلث ما يقبضه... والسلام...

وهذا ظهير حسني آخر إلى القائد حم بن الجيلالي في الاذن للنظار بالزيادة في أكرية الأحباس، تبعا لارتفاع السكة، والزيادة لأصحاب الوظائف الدينية والعلمية في رواتبهم تبعا لذلك، يقول الظهير :

«وصيفنا الأرضي القائد حم بن الجيلاني، وفقك الله، وسلام عليك ورحمة الله، وبعد : فقد بلغ لعلمنا الشريف ما استحال إليه أمر الرباع من الضياع، وضعف الخراج، بالاستيلاء عليها، بما كانت من الأكرية قبل ارتفاع السكة وغلو الرواج، حتى أفضى ذلك إلى تعطيل جل الوظائف الدينية، والرواتب العلمية العملية، كالإمامة والأذان، والأحزاب والوعظ والتدريس كما شهد بذلك العيان، وعذر التعطيل مقبول، وليس لرده محصول، لما هو بين من أن خراج ذلك الوظيف بحساب ما كان به قديما، وقبضه بم تروج به السكة الآن صار تافها ذميما، لا يسمن ولا يغني، ولا يقول بصاحبه الذي نعني... كما أن الأصول والرباع، تداعى جلها للسقوط وآلت إلى الضياع، ومن المعلوم أنه من مستفاد البعض يتلافى البعض ويتدارك الإصلاح، ويداوى عليها من عاهة الاجتياح، بالزيادة في الأكرية طبق السكة متعين، والمصير إليه من الحق الواضح البين، إذ بذاك تبقى الأحباس محفوظة منتفعا بها على الدوام، وتصير المناصب الدينية مستمرة غير معطل بها القيام، وبه يتوفر ما يقع به الإصلاح في المستقبل، كما كان قبل ليصير فيما له وجه من المصالح وقبل، وإبقاء ما كان على ما كان، سبب في تعطيل الوظائف الدينية وخراب الإسكان، وفي محض حق الله يجب المبادرة بقدر الإمكان، وعليه فليزد سائر النظار في أكرية الرباع والعقار، بحسب ما يقتضيه الحال من جهة ارتفاع السكة وحسن الاعتبار، وتمسكا باسد الانظار، مما ليس فيه ضرر ولا ضرار، وليعرف الزائد أنه أدى ما عليه من حق الله، واستبرأ لدينه قبل أن يأتي، يوم لا مرد له من الله، وليعد مازاده من قبيل التعاون على الدين، لينتظم في سلك الفائزين المهتدين، وليخلص العمل بتحسين الطوية، فإنما الأعمال بالنية، **وليزد ناظر الأحباس المذكور لأهل الوظائف بقدر ما زيد في أكرية الرباع، لتنضبط الوظائف الدينية ولا يبقى عذر في تعطيلها بمقتضى هذا الاضطلاع، وقد أزلنا بذلك من عهدتنا ما استرعانا الله عليه، وجعلناه في ربقة النظار والقضاة ومن الأحباس مسندة إليه، والله رقيب وعلى كل شيء حسيب، والسلام.** 2 جمادى الثانية 1303 (81).

لقد دأب ملوكنا الجلة الأماجد، الذين لم تأخذهم سنة، في زمن من الأزمنة، عن تنبيه رعاياهم، وولاة أمرهم، وإعطائهم الأوامر في كل آونة بالتحفظ على الشعائر الإسلامية، والأخذ والحزم في صيانتها، وكف كل يد عادية رامت التوصل إلى حرمة الأوقاف لأغراضها الشخصية، والتي تشل يمين كل من سولت له نفسه التطاول على حقوقها، وكأني بها تنشد متوعدة :

ما رماني رام، وراح سليما

من قديم، عناية الله جندي

فمن ذلك ما أصدره السلطان محمد بن عبد الرحمن بن هشام لبعض ولاة أمره، وهو السيد محمد بركاش في كتاب يقول فيه :

الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه... وبعد، فقد تساهل الناس خصوصا الأغنياء وأهل الوجاهة في أمر الأحباس حتى صاروا يتوصلون لما أراده منها بأي وجه أمكنهم، ويجعلون ذلك في صورة المعاوضة، وصار النظار والقضاة يعتبرونهم، فلا يردون إليهم حاجة، حتى انتقل بذلك كثير من الأحباس، فبلغ لمولانا الوالد

81) الاتحاف : ص : 5/116.

المقدس بالله ذلك، بأمر الولاة، خصوصا القضاة الذين لهم دخل في هذا الأمر بعدم معاوضتها رأسا، وتقرر هذا الأمر بمراكش وفاس، فلا يوجد أحد يعارض شيئا منها، وحتى أن تعينت المصلحة فيها فلابد من رفع أمرها لسيادته ينظر فيها بما اقتضاه نظره... ولما ولانا الله سبحانه هذا الأمر اقتفينا أثره في ذلك، وسددنا الأبواب في وجوه طلابها... على أن هذه المعاوضة إنما قال من قال بها من العلماء على شروط وأين هي تلك الشروط... وما تقرر في هذه المدن، أردنا أن يتقرر في ذلك الثغر السعيد... وها نحن أمرنا القاضي هناك، وأكدنا عليه في عدم الموافقة على المعارضة رأسا كما أمرنا وصيفنا القائد محمد بن عبد الكريم الجبوري بأن لا يساعدأحدا عليها بوجه، واعلمناك لتكون على بصيرة، وقد توعدنا القاضي والعامل على ذلك... والسلام : في 4، صفر 1279 (82).

هذا نموذج واحد يؤكد الحرص من المسؤولين على حرمة الأوقاف التي يجب أن تصرف وتوجه إلى هدفها المقصود، وغرضها المرصود إلا وهو العناية بسدنة المساجد، والموظفين الدينيين، والأئمة، والخطباء وتسيير شؤون المسجد، ورعاية العلماء والطلبة، وكل من له صلة بحياة الملة والإسلام...

وتوجد اليوم عناية كبرى بالموظفين الدينيين تتعلق بتحسين أحوالهم، والزيادة في رواتبهم الدينية، وأجور القيمين من طرف وزارة الوقف... وذلك استجابة للأوامر الملكية، وحرصها الأكيد التي تسهر على راحة القيمين الدينيين، وتفقد أحوالهم، وسعيا وراء التخفيف من لأواء ما يعانيه قيموا المساجد من شظف في العيش، نظرا لضآلة المكافآت والأرزاق التي يتقاضونها مقابل الالتزام العملي لتحمل المهام الكبرى للوظيفة الدينية كما سنفصله في حلقات قادمة بإذن الله تعالى.

بل أن وزارة الأوقاف تعمل اليوم، في نطاق حرصها الشديد على تحسين وضعية الموظفين الدينيين، وتغتنم أية فرصة متاحة، كمناسبة الزيادة التي أعلنت عنها حكومة صاحب الجلالة في مرتب موظفي الدولة، فإنها لم تتردد في المبادرة بالزيادة لموظفي الشؤون الدينية في إطار الإمكانيات المادية التي تتوفر عليها...

وتوجد عدة مذكرات موجهة لنظار المملكة تتعلق بالزيادة في رواتب الموظفين الدينيين يسهر عليها ناظر الوقف بصدق وأمانة...

وقد أصدر قسم الشؤون الاجتماعية بالوزارة عدة مذكرات لنظار المملكة ليتدارسوا تحديد الزيادة، ورصد اعتمادات للقيمين الدينيين (83)...

بل إننا نجد بعض الدول الإسلامية من يفكر اليوم في إدراج الموظفين الدينيين في الأسلاك العامة كبقية الموظفين الرسميين، وفي هذا الصدد تم تشكيل لجنة مشتركة من ورزاة الشؤون الإسلامية والأوقاف بدولة الإمارات العربية لدراسة أوضاع العاملين بالمساجد لتحسين أحوالهم المادية والوظيفية... وتبحث اللجنة إمكانية وضع هؤلاء العاملين على درجات الإطار العام للعاملين بالحكومة، بدلا من وضعهم الحالي الذي يحكمه نظام خاص، تقل الأجور، فيه عن أجور العاملين الذين شملهم نظام الإطار العام...

وقد أعدت اللجنة تقريرا مفصلا عن أعمالها تم عرضه على مجلس الوزراء لمناقشته، واتخاذ القرار المناسب (84).

وقد خصصت المجلة الأسبوعية البلجيكية «pourquoi pas» في عددها الأخير، دراسة حول الإسلام، وتطور الجالية الإسلامية المقيمة في بلجيكا (85)، فذكرت بأن البرلمان البلجيكي كان قد صادق في 19 يوليوز 1974 على قانون يتضمن الاعتراف بالمؤسسات المكلفة بتسيير الشؤون الدينية الإسلامية، ومنح المسلمين ببلجيكا نفس

---

82) الاتحاف : ص : 121 ـ 1/122.

83) انظر المذكرات : رقم : 134/ بتاريخ : 75/10/27، والمذكرة رقم : 217، بتاريخ 1976/8/4، والمذكرة : 232، بتاريخ : 1977/2/15، والمذكرة : رقم 2، بتاريخ : 1982/1/11، والمذكرة رقم : 3، بتاريخ : 1984/2/14.

84) جريدة «المسلمون» ع : 1985/3/16/6.

85) لاحظت المجلة الأسبوعية «بوركوايا» : أن عدد المؤسسات التعليمية يتزايد في بلجيكا من سنة لأخرى، سواء على مستوى التعليم الابتدائي أو الثانوي، أو في مدارس التكوين المهني، وأن عدد هذه المؤسسات انتقل من : 140 مؤسسة عام 1977، إلى 445 عام 1982 كما ارتفع عدد المدرسين من 68 عام 1977، إلى 193 في 1983.

الامتيازات التي تتمتع بها الطوائف الدينية الأخرى بمقتضى قانون 1870.

ولاحظت الأسبوعية البلجيكية من جهة أخرى أنه حتى يكون هذا القانون فعليا، لابد وأن يكتمل بإصدار سلسلة من المراسيم تحدد أجور الأئمة، وتعترف ببعض المجموعات في بلجيكا من تحديد مهامها، وضبط أنظمة اللجان المكلفة بتسيير الشؤون الدينية.

الغرض من الوقف... حياة المسجد...

وعود على بدء، فإن مهمة الناظر، ومتولي شؤون الوقف، ومن يقوم بإدارته، والعناية بمصالحه، وتدبير شئونه، واستثمار رباعه، هي تنمية تلك الموارد والمداخيل والأوفار، لغاية واحدة مرصودة، وغرض معين منشود، هو حياة المسجد، ووجوده واستمراره، والاهتمام بشؤون تسييره، لما لهذه المؤسسة الدينية من أهمية بالغة، في حياة المسلم باعتبارها مركز إشعاع روحي وعلمي وأخلاقي وتشريعي وحضاري، إذ فيها تؤدى الصلوات، وتعقد الندوات، وتلقى المواعظ، ويدرس الفقه والتشريع الإسلامي، ومن هنا كان أول شيء عمله الرسول عليه السلام بعد هجرته إلى المدينة وسهر على حياته هو تأسيس مسجده الأول الذي كان نقطة الارتكاز للدعوة الإسلامية والذي كان :

كالضوء يصغر جرمه في نفسه
ويفيض عنه النور من مصباحه

فالغرض الأسمى من الوقف، أولا وقبل كل شيء، هو حياة المسجد واستمراره...

والمسلمون عرفوا مكانة المسجد ورسالته الخطيرة في كيان المجتمع الإسلامي، وحياة الأمة الروحية والعقلية، فأنزلوه من نفوسهم منزلة الإكبار والإجلال والإعظام، وأقاموا المساجد لله، على مثال فريد من الأبهة والعظمة والفخامة والجلال، وبذلوا في سبيل ذلك أموالا كثيرة وقفوها من أجل حياة المسجد، ووظفوها لفائدة تعميره، واسترخصوا كل ما جادت به اريحيتهم وشهامتهم ليؤدي ذلك المسجد رسالته الإسلامية المثلى على الوجه المطلوب...

لذلك اتفق الفقهاء على صحة وقف المسجد متى توفرت شروطه... لأن المسجد مكان للعبادة، ومدرسة للعرفان، وموطن للثقافة، ودار للنظر في المصالح العامة ومنظر لرعاية المسلمين...

وللمسجد وظيفة اجتماعية هامة بجانب وظيفته الدينية، هي الإشراف على تجلية الروح، وتهذيب النفس، وترقية الوجدان، وذلك بتنظيم المحاضرات، في الموضوعات التي تمس العصر، والمشكلات التي تعرض في كل زمن حيث يجد فيه الشباب المسلم، أغرودة الأمل الباسم، وسر النشاط المتدفق في كيان الأمة، عناية خاصة بتوجيهه بالأسلوب الجميل والمنهج السليم، والطريق المعبد الحافظ، الذي يتفق وعمر الشباب الغض من ناحية، وروح العصر المتطور من ناحية ثانية، كما أن وظيفة المسجد الإشراف على حالة البيئة المحيطة بالإنسان، وظروفه الاجتماعية، وما يصاب به الفرد من تعاسة وبؤس وشقاء، وانحراف وانغماس في المخدرات وما إلى ذلك، ثم تنظيم الإحسان، والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء، وإسداء النصائح للأسر التي تفاقمت في وجهها الخطوب، وتواثبت الأحداث، ولا سيما فيما يعرض لها من متاعب وصعاب، ومحن وإحن، فمسجد الحي بمثابة مستشفى روحي يداوي الأمراض المعنوية والروحية والاجتماعية، ويملأ الفراغ الروحي الذي أوجدته هذه الحضارة المادية الكافرة...

وحينما يشعر الناس، ويحس الأفراد بأنهم يشبعون أشواقهم في هذا البيت، يجدون لذة وعافية ومتاعا وغذاء معنويا، وإشراقا ثقافيا واجتماعيا وتربويا، وأنهم يأوون إلى ركن ركين، فتتغير الحال، وتتبدل الأوضاع، وتزدحم المساجد بجميع الفئات والطبقات... فالمسجد، ينهض برسالته في جميع الأماكن التي توجد فيها تجمعات إسلامية حيث يصبح وجود المسجد ضرورة في كل مكان يتجمع فيه المسلمون كالمدارس والجامعات والمصانع والأندية وغيرها، وتكون الغاية هي إحياء روح القوة والمنعة في نفوس الأمة، وإشعال جذوة الحماس لحماية حرمات الإسلام ومقدساته، وصون دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، والدفاع عن عقيدة الإسلام وشريعته، والعمل لإزالة الطواغيت لسير

دعوته... وعند ذلك تتحقق فكرة الوقف بحياة المسجد وديمومته ووجوده واستمراره، وتنعم أرواح الواقفين بأن رسالة الإسلام ما تزال، عن طريق وقوفهم تسير في خطها اللاحب، وطريقها المستقيم...

تلك هي رسالة المسجد ووظيفته أيام الفتح الإسلامي وعهود المجد العربي الفاتح للعالم أجمع حيث كانت في رحابه تصحح المفاهيم، وتبين حدود الحرية وفق تعاليم الشرع الحكيم، وتعين آفاق التطور ضمن أصول الإيمان، صونا للقيم، وحفظا للمقدسات من أن تبتذل، وتحمل على غير محملها الصحيح...

فالمسجد قلب المدينة النابض بالحياة، والزاخر بالحركة، والمفعم بالنشاط، والمركز الحيوي الذي يعمل على خدمة المجتمع الإسلامي، ومجمع أهل الشورى، ومحور أنشطة الدولة ومصالحها المتعددة، والذي قال عنه الفقيه المصلح ابن تيمية : «إن النبي عليه السلام أسسه على التقوى، وكان فيه الصلاة... والقراءة، والذكر.. وتعليم العلم والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات... وتأمير الأمراء، وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم».

فالمساجد مراكز الإيمان ورموزه... وهي، كانت وما تزال روح الجماعات الإسلامية وقطبها وحصنها ومركزها الديني والسياسي والاجتماعي...

فالإيمان قوة عالم الإسلام الكبرى، فقد نجت أمم الإسلام من الرواجف والروادف، والمحن الطاحنة في العصور الماضية بفضل الإسلام وحده، ولم تكتمل الجماعة الإسلامية إلا بمسجد ربط بين أفرادها بعضهم ببعض...

لقد أمر الله ببناء المساجد وعمارتها (86) ورفعها وتطهيرها... وقد وردت أحاديث كثيرة (87)، تحض على وقف المسجد وبنائه واحترامه وتوقيره وتطييبه (88) وتبخيره، وتوفير اللوازم الضرورية...

وقد أفرد الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي كتابا خصصه للفضائل التي يستحقها واقفوا المساجد، وأتى في كتابه من الأحاديث المرغبة في بنائها، وآداب الدخول إليها، والتعبد فيها، وما يستحب وما يكره (89).

وقد بدأ الاهتمام باتخاذ المساجد الجامعة، التي يضاعف فيها الثواب، وينمى بها الأجور، بعد بناء مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة الذي اتخذه المسلمون نبراسا ونموذجا لهم... فكان عمر بن الخطاب أول من اهتم بتخصيص هذه المساجد الجامعة في البلاد المفتوحة (90).

ويذكر المقريزي والسيوطي (91) أنه لما افتتح عمر البلدان كتب إلى أبي موسى، وهو على البصرة، يأمره أن يتخذ للقبائل مساجد فإذا كان يوم الجمعة انضموا إلى

---

86) لا يخلو عدد من مجلة «هبريس» من مقال أو أكثر عن العمارة والفنون المغربية، وانظر عن العمارة وبناء المساجد كتاب : حسن المحاضرة للسيوطي : ص : 133 ـ2/139، و«مساجد مصر، وأولياؤها الصالحون» للدكتورة سعاد ماهر ج : 1/القاهرة عام 1972 حيث استوفت فيه الكلام عن مساجدها وتاريخها وأصولها الفنية، وكذلك : «مساجد مصر ومدارسها» للدكتور أحمد مكري، صدر في عام 1966، الذي ناقش فيه نظريات المستشرقين حول أصول العمارة الإسلامية مناقشة جامعة تدل على علم واسع، وتحقيق دقيق... و«العمارة العربية في مصر الإسلامية» للدكتور فريد شافعي ـ القاهرة عام 1970 وهذا من أوفى وأشمل ما يقرأ في الموضوع حيث أضاف فصولا بديعة حقا عن أصول العمارة بصورة عامة، وتعمق في موضوع الأصول الفنية بصورة تدعو إلى الدهش والإعجاب.

87) أورد الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي (741 ـ 794 هـ ـ 1344 ـ 1397م) في كتابه : «إعلام المساجد، بأحكام المساجد» عدة أحاديث نبوية في فضيلة بناء ووقف المساجد في آخر كتابه ص : 420 ـ 427)، وهو كتاب يتصل بالمسجد في الناحية الفقهية... أخذ الزركشي عن الأسنوي، ومغلطاي، وابن كثير والاذرعي وغيرهم : (حسن المحاضرة، للسيوطي ص : 1/185 (تـ 794هـ).

88) عائشة : أمر رسول الله ﷺ ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب، وفي «مصنف» أبي بكر عبد الله بن أبي شيبة (ت : 235 هـ) عن يعقوب بن زيدان رسول الله ﷺ كان يتبع غبار المسجد بجريدة... (انظر تزويق المساجد وزخرفتها موضوعا علميا في «الاتحاف» ص : 1/183).

89) قال المقريزي : وعمل الربيع بن سليمان تلميذ الإمام الشافعي كتابا فيما روي عن النبي ﷺ أنه قال : «من بنى لله مسجدا، ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة.
(حسن المحاضرة، للسيوطي ص : 2/137).

90) انظر : «المساجد» ـ د. حسين مؤنس. سلسلة «عالم المعرفة» رقم : 37. وفصلا في مقدمة ابن خلدون عن «المساجد والبيوت العظيمة في العالم» ص : 3/840.

91) الخطط : ص : 2/246، حسن المحاضرة ص : 2/138.

مسجد الجماعة... وكتب إلى سعد ابن أبي وقاص، وهو على الكوفة، بمثل ذلك... وكتب إلى عمرو ابن العاص، وهو على مصر، بمثل ذلك... وكتب إلى أمراء أجناد الشام الا يتبددوا إلى القرى، وأن ينزلوا المدائن، وأن يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا، ولا تتخذ القبائل مساجد، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهده...

وتعطينا كثير من الوقفيات التي تشهد لسخاء المسلمين المحسنين الذين بنوا عدة مساجد فكرة عن الدور الكبير الذي يقوم به المسجد في حياة الجماعة الإسلامية، كما تعطينا تلك الوقفيات السخية نظرة عن الرواتب التي كانت تدفع للموظفين الدينيين وتقدم في سخاء لشيوخ المدارس وعلمائها، ومختلف العاملين، وفئات المخلصين المومنين، حيث تختلف تلك الرواتب حسب مكانة المسجد والمدرسة أو المستشفى... بل إننا نقرأ في كثير من الوقفيات أجورا عالية مجزية تكفل حياة رغدة راضية للقائمين بتلك الوظائف السامية، وتؤمن حياتهم في جو من الطمأنينة والاستقرار...

وقد ذكر محمد الوزان (92) أن لمدينة تونس جامعا جميلا جدا، فسيحا للغاية... وله مستخدمون عديدون، وموارد عظيمة... وهناك جوامع أخرى في المدينة، وفي الارباض، ولكنها أقل أهمية... وتضم بضع مدارس للطلاب وعددا من الزوايا للمتعبدين السلمين، وهي مؤسسات تسمح أوقافها بالانفاق عليها، واستمرار وظائفها في صورة مناسبة...

تلك غاية المسجد الإسلامي... وتلك أهدافه ومراميه، وذلك روح المنبر الذي كان يعلوه خطباء مصاقع يعلمون الناس البر، ويفقهونهم في الدين، ويلهمونهم الرشد، وينفخون فيهم روح الشهامة والمجد :

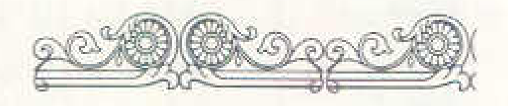
إن المنابر في الإسلام ما رفعت
إلا لترفع ذكر الحق في الناس
فاختر لأعوادها، من لا يلين له
في الحق عود... ولا يصغي لخناس
ومن إذا ريع سرب الحق... خف له
ولم يكن لعهود الناس بالناسي (93)

والحديث ذو شجون :

الرباط : **محمد بنعبد الله**

(92) وصف إفريقيا ص : 449 ط : المملكة العربية السعودية.

(93) محمد البشير الإبراهيمي.



دراسات في الأدب المغربي :

الإتجاه الديني العام لعهد بني مرين

(21)

للأستاذ عبد الكريم التواتي

كَانَتْ الوحدة الدينية ـ وما زالت ـ من أوثق الوشائج التي تربط بين الناس، وأمتن الصلات التي تقرب بين وجهات أنظارهم، ومن أقوى العناصر الإيجابية التي تكمل الجماعات وتوحدها حول أهداف معينة، وتحدد لها ـ لامصائرها فحسب ـ ولكن أيضا الوسائل وربما حتى الأساليب.

ذلك لأن فكرة الدين أساسا، لها جذورها العميقة في أعماق الإنسان وعقله الباطني، وإلى الدرجة التي يمكن القول معها ـ وقد قيل هذا، (وانظر كتابنا العقيدة والسلوك في الإسلام) ـ بأن الدين غريزة من الغرائز الأصيلة لدى المجموعات البشرية، وان هذه المجموعات البشرية إذا أعوزها دين صحيح سماوي كانت تخترعه لنفسها في شكل من الأشكال، بدائيا : كالطامطام، وما شاهدته عهود المسرح اليوناني، والروماني، الأولى من مختلف الآلهة الأسطورية، أو حضاريا كهذه الفلسفات الحديثة، التي تزخر بها المجتمعات المدعية للحضارة والعلم التقني، وكهذه المذاهب الاقتصادية غير الإسلامية من شيوعية، وفاشية، ورأسمالية، وغيرها، وتلك ولم يثبت تاريخيا أن فترة زمنية ما، أو جماعة بشرية ما، خلت من دين (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) كما يقول القرآن الكريم : في سورة الروم : الآية 30.

ثم تطورت الإنسانية وتطور معها فهمها للظواهر الكونية، والطبعية، التي كانت تحيط بها، بمقدار يسمح لها باستخدام ما وهبته من إدراك، في محاولة إيجاد نوع من التوافق والانسجام ـ بين واقعها الذي ما تزال تكافح في نضال مستمر لجعله أحسن وأفضل، وبين الإدراكات

الجديدة لمعطيات الحياة المستمرة هي الأخرى في استماتة وجلاد.

فكان أن عرفت هذه الإنسانية قيمة الدين والتمسك بما يمنحه لمعتنقيه من سلام نفسي، وهدوء عقلي، واطمئنان لما جارت له الأقدار، ومن هنا كان الإيمان بالغيبيات وبما وراء الطبيعة لدى الإنسان.

ثم رحم الله عباده، ولا أغير منه على عباده، ورحمته وسعت كل شيء، فبعث إليهم الرسل والأنبياء، على فترات زمنية خاصة، ليشبعوا الرغبة البشرية الكامنة فيهم للدين وليعرفوهم وليطلعوهم على المصادر الأصلية والقوية للدين الحق، والدين القيم، فآمن الناس، وإن كفر البعض، وكان هؤلاء الكافرون أنفسهم يتواجدون مع إيمانهم بالكفر ؟

ومن هنا سعت سائر الحركات والانتفاضات التي واكبت تقدم الإنسان إلى وضع أهداف وفلسفات، تضعها نصب عيون اتباعها، يستلهمونها الجلد والصبر، ويستوحونها الإيمان بها وبالحياة وبقيمة النضال من أجلهما حتى أنك لا تجد حركة ما، دون أهداف وقد تكون هذه الأهداف التي تستهدفها مستوحاة من واقع الإنسان وأحلامه وأوهامه، أو من مجرد الشعارات المستوردة من الخارج، والتي ركن إلى ما تلوح به من سعادة وازدهار ولكن لابد من وجودها على كل حال وهي بهذا المعنى دين.

ثم منذ أن جاء محمد بن عبد الله عليه السلام بدين الإسلام وعرفت عوالم هذا الدين، وعرف معتنقوه على اختلاف درجات إيمانهم به، عمقا وضحالة، عديدا من الحركات كانت تعتمد الدعوة إلى الرجوع إلى أصول هذا الدين، ونبذ ما علق بها من أوهام وترهات، وما الصقه بها المغرضون ونسبوه لها، وما شرحوا به نصوصها لزمان ما.

ثم لضعف تلك المستويات الإدراكية أصبحت هذه الشروح جزءا من الدين ـ وما هي من الدين وربما اعتمدت أكثر من أصول دينية، لا يتطرق الشك إلى صحتها، ولكن الناس إذا ابتعدوا عن المنبع شربوا الرسوبات، وامتصوا الطحاليب، واستحموا في المستنقعات.

ومن هذا المنطلق كذلك سعى الموحدون ـ وفي محاولات عديدة، متسمة أحيانا بنوع من الضغط ـ وهم يباشرون إقامة سلطانهم الذي انهار سريعا ـ لقيام وحدة مذهبية وعقدية، بين مختلف العناصر التي كان يتكون منها المجتمع المغربي لعهدهم إيمانا منهم بأن الوحدة في هذا المجال عنصر أساسي في قيام وحدة سياسية وعسكرية تستقطب كل الجماعات، وسائر الاتجاهات لتنصهر كلها في وحدوية هدفية، تبعد عن الأمة الانقسامات، وتنجيها من تباين الأراء وتعدد الاتجاهات.

وكانوا في نفس الوقت مؤمنين بأن الآمال التي عقدوا النية على إدراكها، والتي من أجلها ثاروا، ما كانت لتدرك إذا لم تتوحد الأفكار تجاهها، وإذا لم تكن كل النيات تستهدفها، ووحدة من هذا القبيل ما كان ليوفرها غير الدين.

ولكن الموحدين لم ينجحوا في مسعاهم هذا، لأنهم وضعوه في أولى اهتماماتهم الأساسية تماماً بموازاة أعمالهم العسكرية، الشيء الذي دفعهم إلى عدم مهادنة مناوئهم في هذا الميدان كما لم يهادنوا هؤلاء المناوئين في الميادين العسكرية، ناسين أو متناسين أن محاربة الأفكار أكبر داع لانتشارها كما قال الكاتب الفرنسي (فيكتور هوجو) وان حمل الناس على نبذ آرائهم الدينية بطريقة القوة والضغط والإكراه لا يأتي إلا بعكس النتائج المتوخاة.

وهذا بالضبط ما حدث للموحدين فإن إلحاحهم على حمل الناس على اعتناق مذهبهم العقدي، ومنهجهم الفقهي، كان أحد العوامل التي عطلت كثيرا من الطاقات الشعبية عن الإسهام الجدي والخاص في المعركة التي كانت تخوضها الدولة من أجل توحيد الصف فكريا، وجمع الكلمة عقديا.

ذلك لأن أولئك الفقهاء الذين زحزحوا عن مراكزهم الاجتماعية والقيادية، وأبعدوا بطريقة مّا، عن الحياة العامة لمجرد تشبثهم بالمذهب المالكي في ميدان الفقهيات، وإصرارهم على تقليد المذهب الأشعري في العقديات، تحولوا بموقفهم السلبي من معركة الدولة تلك، ومن كل مشروعاتها في المجال التشريعي والتوجيهي إلى عوامل تحطيمية هدّامة ساعدت الطابور الخامس على الإجهاز على الموحدين، حين بدأت أعلام أنهارهم تلوح في الأفق، رغم المحاولات اليائسة التي بذلها المأمون الموحدي في نهاية مطاف دولتهم لإعادة إقرار المذهب المالكي بالمغرب

وتبنيه رسميا من الدولة.

وهذه النتائج السيئة التي انتهى إليها الموحدون من جراء معارضتهم للفقهاء المالكية هي التي جعلت المرينيين - في نظري - يقررون منذ الخطوات الأولى في طريق تقعيد ملكهم السياسي - العودة إلى اعتناق المذهب المالكي كمنهاج فقهي، واتخاذه مذهبا رسميا للدولة، ثم إلى تقرير المذهب الأشعري الذي كانت عمقت جذوره أواخر عهد الموحدين بعد أن طعم بمذهب أبي منصور الماتردي إمام أهل السنة فيما وراء النهر، كمذهب عقدي رسمي للدولة، إذ لم يعرف المغرب - منذ ذلك التاريخ في مناهج العقائد غير المذهب الأشعري المنقح من آراء غلاة الشيعة وشواذ المعتزلة، وبهذا ضمنوا لأنفسهم منذ البداية وجود نواة موجبة لصالح وجودهم وكانت هي أولئك الفقهاء الذين انتعشت آمالهم بإمكانية طفوهم من جديد على سطح الأحداث وعودة أمجادهم إلى عالم الواقع.

يقول عبد الله كنون : (وعلى كل حال فإن مذهب أهل السنة في الاعتقاد والفقه قد توطد في هذا العصر، ولم يقم بعد الموحدين دولة تنزع نزعة مخالفة لما عليه الجمهور وسواد المسلمين) النبوغ /ج/ الأول/ص/184.

وهكذا ففيما يخص الفقه المالكي، انتشرت كتب فروعه، لإقبال الطلبة على التعليم المتزايد، حين رأوا كيف أن أهل العلم أصبحوا الهيئة الوحيدة التي تحتل المراكز المرموقة في الدولة، والمجتمع مما أتاح للكبار الفرصة أن يزدادوا تعمقا واستنباطا وإلى الدرجة التي بلغها فيما يحكون - ابن الصباغ حين أملى على خصوص حديث : (يا أبا عمير ما فعل النغير ؟) أملى أربعمائة فائدة، كلها مما استخرجه بفكره الثاقب... وأن يتفرغ أولئك الكبار من أمثال ابن الصباغ لوضع عدة تآليف تجمع تلك الاستنباطات.

وكان كل هذا التحول نتيجة استعادة الفقهاء لمراكزهم في الصدارة... وإلى التحكم في التوجيه العام لسياسة الدولة بما أتاح لمثل القاضي أبي الحسن الصغير، يجرؤ على إقامة الحد الشرعي على سفير ابن الأحمر لشربه الخمر، ضاربا عرض الحائط بتدخل عبد الرحمن يعقوب الوطاسي وزير السلطان ابن أبي الربيع سليمان، كما حملت هذه المنزلة العلمية، التي نالها الفقهاء آخر ملوك بني مرين على أن يستجيب لرغبة الفقيه العلامة عبد العزيز الورياغلي حين التمس منه تنحية يهودي من منصبه كان استعمله على رئاسة إحدى المصالح العمومية بفاس.

ولم يقف المرينيون من قضية تأييد الفقه المالكي والمذهب الأشعري عند حد اعتبارهما المظهر الوحيد لمبادئ الدين الحنيف، وفرض هيبتهما والعودة الجماعية والإجماعية لحظيرتهما، ومناهضة كل من يحالون الخروج عن دائرتهما.

وإنما تعدوا ذلك إلى تأسيس المدارس الداخلية الخاصة لتدريس ما اعتبروه مذهبا دينيا.

وأرى أن اعتناءهم بجامعة القرويين حين أسسوا مكتبتها التي تعتبر نواة الخزانة الكبرى الحالية : أولا.

وبإحداثهم فيها كراسي تدريس العلوم الدينية والتشريعية ثانيا، إنما يدخل في نطاق تبنيهم لقضية العلم والعلماء.

وهكذا خرّجت القرويين في ذلك العهد من العلماء المصلحين الاجتماعيين فطاحل وأقطابا أمثال : أبي زيد عبد الرحمن الجزولي، المتوفى سنة 741 هـ والذي كان زعيما دينيا مصلحا، ندد بالبدع والترهات، وكان يتحامل شديد التحامل على أشياخ السوء الذين كانوا يحلقون في البرانس والمناجل، مصرحا بأن مثل هذه الأعمال بدع أماتوا بها السنة.

وأمثال من جاء بعده وحملوا مشعل أفكاره الإصلاحية مثل عبد الله الهبطي الطنجي المتوفى سنة 965 هـ فقد وضع هذا العالم المصلح أرجوزة في التنديد بالبدع سماها : (الألفية السنية في تنبيه العامة والخاصة على ما غيروا في الملة الإسلامية) خصص منها حوالي ستين بيتا للتشهير بالبدع الضالة.

(وكان - كما يقول عنه أبو القاسم بن علي بن خجو، - أحرص الناس على تعليم دين الله، ويأمر من يلقى بتعليم الأهل والأولاد والعبيد والخدام والإماء عملا بقوله ﷺ : (لأن يهدي الله على يدك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم).

تم في نطاق اهتمامات بني مرين الدينية نصب أبو

عنان صوارى الصوامع ناشرا عليها الأعلام فى أوقات الصلوات نهارا، ومسرجا فيها الأنوار ليلا ليستدل بها العبيد، ومن لم يسمع النداء على الأوقات، وجعل علم الجمعة أزرق، هذا العلم الذي قيل فيه :

نـــور بـــــه علم الإيمــــــان مرتفـــع
للمهـــــديين بـــــه للحــق رشــــــاد

يـــأتــون من كــل صــوب نحــوه فلهم
لـــديـــه للرشـــــد إصـــــدار وإيراد

ولتوضيح تأثير الاتجاه الديني لهذه الدولة على الثقافة والأدب نسجل هاتين الظاهرتين :

أولا أدب المولديات والجهاد :

من الأقوال المأثورة أن الناس على دين ملوكهم، وهذه المقالة تصدق إلى حد كبير على تأثير الاتجاهات الدينية لبني مرين في التيارات الفكرية التي شهدتها حقبة هذه الدولة، وفي إحداث أنواع من الثقافات لم تكن عرفت قبل أو لم تكن نالت من اهتمام الطبقة المثقفة ما نالته في هذا العصر، ونعني به ما قد نطلق عليه :

أولا : الثقافة الجهادية.

ثانيا : ما أحدث في المناهج المقررة للتعليم طرقا ومواد، ومؤلفات ودورا أو مدارس وخزانات وكتب.

ثالثا : ما عرف في التاريخ الأدبي ليومئذ (بادب المولديات).

ولا شك أن هذه الأشياء الثلاثة كلها تأثرت بالاتجاه الديني للدولة وكيفته باللون المفضل عندها، وطعمته بروحها، ووجهته الوجهة التي رسم لنا الأدب وتاريخه لعهد هذه الدولة صورا منها، ناصعة واضحة حينا وباهتة معتمة أحيانا، تبعا للظروف السياسيةالتي فرضتها الرغبة في الاحتفاظ بهذا النوع دون ذاك من المذاهب والعقائد، وتمشيا مع قوة أو ضعف الشخصية التي تبنت هذه المذاهب واحتضنت تلك العقائد، وأضفت عليها من عطفها المتزايد أو حرمتها مع تفاوت درجات الحرمان في العطف والتأييد.

وإذا قامت الدولة المرينية أساسا على عنصرين اثنين :

الأول : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والثاني : الجهاد في سبيل حمل الناس على العودة إلى المحجة البيضاء وانتظام أمورهم المعاشية والمعادية طبق الأصول الدينية الثابتة والمجمع عليها أو حتى طبق التي ألحقت بها، أو ألصقت ثم اعتبرت دينا، كما هو الشأن في الفقهيات المالكية والعقائد الأشعرية الماتريدية، فإن الاتجاه الذي اتخذته التيارات الفكرية لعهد هذه الدولة من حيث المجال، كان ينطلق من ذينك العنصرين الأساسيين اللذين قامت عليهما الدولة، ومن هنا زخرت الميادين الأدبية بشعر المولديات والرسائل النبويات، وقصائد فضائل الجهاد، التي وضعت فيها الكتب والمؤلفات، وسنحاول في هذه الفقرة تسليط أضواء على هذا النوع من الأدبيات.

أولا شعر المولديات :

هذا الشعر نعرف الآن أن اهتمام أصحابه به إنما نشأ حين تبنت الدولة الاحتفاء بعيد المولد النبوي، واعتبرته موسما رسميا يفوق الاستعداد له ما يتخذ من استعدادات لغيره من الأعياد الدينية الأخرى بما فيها عيد الفطر، والأضحى.

فإذا كان تبني الدولة، لهذه الاحتفالات بهذا العيد إنما جاء بعد سنوات من تبنيه من طرف الشرقيين بالشام، ومن طرف العزفيين بسبتة، فإن بني مرين - وقد استولوا على سبتة من يد العزفيين، وأقاموا وجودهم على الدين ارتأوا أن يحلوا محل العزفيين، وأن يظهروا من الحفاوة بصاحب العيد وأبنائه، ما يرغب الشعب المغربي المسلم المتعلق شديد التعلق، وما يزال بآل محمد ﷺ وعشيرته رضوان الله عليهم، تصديقا للآية الكريمة : ﴿**إن الله وملائكته يصلون على النبيء يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**﴾ والآية : ﴿**قل لاأسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى**﴾ ما يرغبه في هذه الدولة التي ترعى مشاعره الدينية، وتحمي شعائره العقدية.

فكان أن اهتبل الشعر والأدب الفرصة واتخذ من المناسبة مجالا جديدا لمعاناة جديدة، وفاء لالتزاماته التي تقضي بأن يكون مرآة تسجل الأحداث مع إضفاء الأصباغ التي تلونها بما يرغبها إلى العيون، وإضفاء الموسيقى التي تحببها إلى الأسماع والأرواح، ثم إضفاء روح وذاتية المتناول والمسجل الذي يعطي الصورة مدلولا إنسانيا متحركا على الدوام، لأنه يحمل الرعشات النفسانية التي انتابت الشاعر أو

الأديب وهو يحاول مباشرة عملية الخلق والإبداع الفنيين ثم التسجيل والتناول التاريخيين.

ثم أن الشعراء والأدباء الذين اغتنموا الفرصة، لم يفعلوا ذلك، من خصوص زاوية قضية الالتزام التاريخي فحسب، ولكن هذه القضية، ولما خلفها وواكبها من المغانم والعطاءات والصلات.

فالتاريخ يحدثنا بأن الاحتفاء بعيد المولد النبوي كان أمسى ظاهرة عامة، وأصبح شعارا لكل البلاطات الإسلامية في المغرب الكبير وفي الأندلس، إذ نجد في رسائل السلطان أبي الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل بن الأحمر النصري سابع ملوك بني الأحمر الموجهة إلى أبي عنان المريني، والتي يشرح فيها طريقة فرار أخيه أبي الفضل، والتحاقه بالنصارى، يستنجدهم لاسترداد ما كان يسميه حقوقه الشرعية، المغتصبة نجد هذه العبارات (...وبظاهر حضرتنا أماكن مباركة مشهورة، وزوايا مؤملة مقصودة ينفر إليها الجمهور في الليالي التي تقوم بها للبر سوق، وتوفى من تعظيمها حقوق ـ خصوصا ليلة ميلاد رسول الله ﷺ ابتغاء البركة لديه، فهو بحيث ذكر من المواسم التي ينتدب إليها الناس، وتتسابق منهم الأنواع والأجناس) دعوة الحق ص 123 عدد 10/8 السنة /10.

كما يحدثنا التاريخ أيضا بأن هذه المناسبة اكتسبت في المغرب صبغة خاصة لعهد أبي الحسن المريني إذ بالإضافة إلى احتفائه بها في النطاق الرسمي، كان يوزع بالمناسبة ـ وعلى خصوص الشرفاء الصقليين المستوطنين بسبتة، وقد يكون ذلك لما قدمه هؤلاء لبني مرين في اتمام استيلائهم على هذه المدينة من يد العزفيين، أو لأن هؤلاء التجأوا من صقلية فكانت هذه المنحة تأليفا لهجرتهم إلى المغرب ـ دينارا لكل واحد يساوي مائة مثقال ذهبا، على صورة رغيف... ومما يتصل بمظهر الاحتفالات الدينية تنظيم مواكب الحجيج، ووفوده الرسمية حتى لقد تكونت جمعية خاصة بقيادة أبي محمد صالح الماجري للدعوة للحج وزيارة قبر الرسول ﷺ وللعمل على تأمين طرق الحج.

وأدب المولديات هذا من حيث المجال يختص بذكر الرسول عليه السلام، ومدحه على غرار منظومتي البوصيري البردة والهمزية، وعلى غرار نبويات ميمون الخطابي المغربي، التي لم تنل الشهرة التي نالتها قصيدتا البوصيري، لتعلق الناس في تلك العهود ـ وإلى الآن ـ بكل ما هو شرقي، لأن الناس هنا ـ للأسف ـ اعتبروا أنفسهم دائما ذيلا للشرق.

وأما من حيث أسلوب التناول فيمتاز بوضوح التعبير وصفاء المعاني... وأما من حيث القوالب العروضية التي يختار أصحابها فيها، فقد كانت على العموم الأوزان الخفيفة، وغالبا ما يختار (المجزو) و(الموشحة) وقد اشتهر من شعراء المولديات للعهد المريني شاعران الأول : محمد بن القاسم بن عمر بن عبد الله الصيرفي، ويذكر ابن الخطيب عن هذا أنه اتصل به في المغرب ما بين عام 761 هـ / إلى 769 هـ، ملاحظا أنه اختص بمولديات مدينة مراكش.

والثاني أبو القاسم سالم إبراهيم بن محمد بن علي اللنتي التازي المتوفي بوهران حيث كان يقيم سنة 866 هـ.

ومن مولديات التازي، هاتان القطعتان اللتان أوردهما له ابن تاويت التطواني وقد جاء في القطعة الأولى ثلاثة أبيات هي :

روحي، وراحة روحي ثم ريحاني
وجنتي من شرور الإنس والجان
ومأمني وأماني من سعير لظي
ذكر المهيمن في سر وإعلان
ومدح أحمد أحمى العالمين حمى
وذو المقام الذي مقامه ثان

أما القطعة الثانية المشتملة على خمسة أبيات فقد جاء فيها :

وخيرة الخلق مَن مِنْ أجله خُلقوا
محمد خير محمود ومن حمدا
من خصه بلواء الحمد حامده
وبالقيام المقامي الذي حمدا
ويوم حشر الورى للفصل يرشده
إلى محامد لم يرشد لها أحدا

وكثرة الحمـــد من أوصـــاف أمتـــه
في اليسر والعسر في الكتب العلى وجـدا
صلى الحميـد على المحمـود أحمـد مـا
بـالحمـد أفصح حمـاد ومـا سجـدا

ثانيا أدب وشعر الجهاد :

عن الثقافة الجهادية التي امتاز بها هذا العصر من حيث اتخاذها من طرف أصحابه أدباء خاصين مجالا لتناولاتهم وتجاربهم الأدبية، فإنها مجال جديد انتحى فيه أصحابه دراسة الجهاد وآثاره، وما ورد فيه من آيات وأحاديث.

ولا شك أن هذا النوع من الأدب استمد هو الآخر معطياته من واقع الدولة التي ما انفكت تخوض المعارك الجهادية الحقيقية، والتي كانت لا ترجو وراءها جزاء ولا شكورا سوى جزاء الله الأوفى.

وقد تجلت نوايا الدولة الخالصة في هذا الميدان من الحروب التي خاضتها إلى جانب النصريين بني الأحمر دون أن تفكر في الاحتفاظ لا بالمغانم الحربية الا في حدود مضمون الآية القرآنية، التي تقول : (واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه) (الآية) سورة الأنفال 41 ولا بالمدن والحصون التي استرجعتها من يد الإسبان إلا بالمواقع التي تضمن لهم خط الرجعة مما أشرنا له من قبل، خلافا لما كان يفعله المرابطون والموحدون قبلهم، ولا شك أن هذه المواقف البطولية التي وقفها المرينيون في حروبهم بالأندلس ابتغاء رضوان الله،هي التي ألهمت شعراء الجهاد بالتخصص في هذا المجال.

ومن أشهر الشخصيات التي وقفت جهودها الفكرية على هذا الميدان ووضعت فيه الكتب ونظمت القصائد والأراجيز، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن يحبش التازي الذي قال عنه صاحب الدوحة :

(وقفت له على تأليف، ألفه في الحض على الجهاد في سبيل الله، فكان مما ينبغي أن يتناول باليدين ويكتب دون المداد باللجين، أودعه نظما ونثرا).

ويرى الأستاذ محمد المنوني المكناسي أن المراد بهذا الكتاب ربما كان الرسالة التي تحمل اسم : (تنبيه الهمم العالية إلى الصدقة والانتصار للملة الزاكية وقمع الشرذمة الطاغية).

قال المنوني : يعرف من هذه الرسالة لحد الآن نسختان إحداهما تامة وهي تقع ضمن مجموع يحمل رقم (ق 336) بالخزانة العامة بالرباط، والثانية نسخة خاصة يتخللها بتر - دعوة الحق - ص 110 عدد 8 السنة 11.

ومن هذه الشخصيات الجهادية أيضا ابو عبد الله محمد بن يحيى البهلولي الذي قالت عنه الدوحة كذلك، (كان هذا الشيخ ممن لازم باب الجهاد، وفتح له فيه، وله في ذلك أشعار وقصائد زجليات وغيرها)، وانظر بعض هذه الأشعار في كتاب الاستقصا، ولدى تناولنا الآثار الأدبية شعرا ونثرا لرجال الفكر والثقافة بهذه الدولة سنقدم إن شاء الله نماذج من هذه الثقافة الجهادية.

الظاهرة الثانية لتأثير التوجيه الديني لبني مرين في الثقافة العامة كانت في (المناهج التدريسية) :

والتوجيه في ميدان التربية والتعليم مبدأ تربوي قديم، وربما كان أقدم مما يظن أكثر الناس، ذلك لأنه لا يعدو أن يكون نوعا من الدعوة البطيئة المفعول، ولكن لعمقيته، فنحن حين نوجه فلذات أكبادنا منذ الصغر إلى نوع خاص من التعليم نكون قد قررنا - وربما من طريق غير شعوري - اعداد تلك الفلذات لنوع معين من المسؤوليات واتجاه خاص في الحياة. ولكنه لا يتبلور إلا بعد سنوات، أو بالضبط، إلا بعد أن يتبرعم فكر الطفل ويتقولب ليتخذ شكلا معينا هو نتاج عدة اتجاهات، تهدف كلها في النهاية لغاية واحدة هي جعله يحسن ما أمكن من علاقاته بالناس والحياة، ويقيم أحسن الموازين لمعنى وجوده على هذه الأرض.

أما هذه التوجيهات العديدة فهي :

أولا : توجيه البيت الذي هو المدرسة الأولى لتكييف الخلية البشرية للتقبل.

ثانيا : توجيه المجتمع الذي هو مجموعة الرسوبات المتراكمة عبر القرون الخوالي

ثالثا : توجيه الكتاب أو المدرسة اللذين يمكن

اعتبارهما بداية منطلق الإنسان نحو تحسه لعلاقاته بالناس في غير دائرة الأسرة الضيقة، ومدى تجاوبهم مع إدراكاته الأولى لبعض مظاهر الحياة.

رابعا وأخيرا : توجيه التكوين الذاتي الناتج عن الدراسات الخاصة الناتجة - بدورها - عن رسوبات التوجيهات الثلاثة الآنفة الذكر، وعن الدراسات الخاصة للكتب غير المقررة في المناهج التدريسية، وعن مختلف الاكتشافات الشخصية التي يكونها الإنسان من اتصالاته بمختلف الطبقات الشعبية، وتجاربها الفنية والثقافية كالرسم والنحت والتمثيل والموسيقى وكل الفنون المندرجة تحت اسم (الفولكلور) وما يسمى بالثقافة الشعبية.

وأقول أن التوجيه قديم قدم الإنسان نفسه، لأن دعوات الأنبياء والرسل التي بدأت مع آدم أبي البشر وانتهت شرعيا أو في إطار النبوءات والرسالات السماوية مع وفاة محمد عليه السلام، ليست في الحقيقة وفي واقع الأمر إلا توجيها تربويا يبتغيا الحياة كلها معاشا ومعادا بدءا وختاما.

ثم ان جميع الدعوات والحركات - مهما يكن مصدرها، وأيا كانت غايتها - لابد وهي تقطع مراحل خطواتها نحو التبلور والتقعيد، أن تقوم في البداية على أفكار، وأن تنتهي على أساس وضع كتاب أو بيان أو مرسوم مّا، يعتبر القانون أو الدستور الذي على معتنقي مبادئ هذه الدعوات أن يحترموه بل ويقدسوه، ويعتبر في نفس الوقت نبراسا يهتدى به رواد هذه الحركات، وهم يتلمسون من خلاله طرقا ووسائل تتساوق وما يجد في الحياة من عوالم وأحداث. ومن هنا كان - في نطاق الكتب السماوية المعروفة مضامينها - كلا أو بعضا - وأسماؤها عند الناس - الزبور، والثوراة، والإنجيل، والقرآن.

ثم كانت هذه الكتب والمؤلفات التي تعالج الأفكار والفلسفات، والتي كانت المنطلق والأساس لكل منهاج تربوي وتوجيه لكل الذين جاءوا بعد رعلهم الأولى، ويريدون أن يضعوا مناهج توجيهية لمن يأتي بعدهم.

وإذا كان الموحدون قد اتبعوا التعليمات التي حبرها زعيمهم الروحي (المهدي بن تومرت) في ميدان العقائد والمذهب الفقهي، فإن المرينيين من جهتهم قد ارتأوا في ميدان التوجيه، وفي بداية منطلقهم، العودة إلى الفقه المالكي في ميدان التشريع : عبادة ومعاملات، وإلى المذهب الأشعري الماتريدي في ميدان المعتقدات، أو ما يسميه المختصون علم الكلام، وقد أشرنا إلى هذا قبل.

وكان طبيعيا - وقد تم للمرينيين الأمر سياسيا - أن يلتفتوا لأهم ركيزة أساسية في ضمان بقاء الوجود السياسي لهم، واستمرار الوضع والنظام، وأعني بها التعليم، يضعون له المناهج، ويبرمجون له المواد المقررة أو التي ينبغي أن تقرر. وهذا ما حدث بالفعل، مما سنحاول إبراز بعض أبعاده، ومعطياة هذه الأبعاد في نقطتنا هذه : فما هي إذاً الطريقة التي انتهجها المرينيون في هذا الميدان ؟ مواد، وطرقا تناولية ؟ ولمحاولة الإجابة على ذلك نقول :

انه على ضوء ما عرفنا من اتجاه ديني لبني مرين - والاتجاه الديني كما سبق أن ذكرنا هو وحده يومئذ وفي تلك العصور المصدر الوحيد للثقافة في كل المجتمعات المتمدينة، وخاصة في المغرب حيث بقيت الروح الدينية قوية تسيطر على كل مجال - نقول أنه على ضوء ذلك يمكن ملاحظة ما يأتي، وذلك في شأن المواد المتدارسة، والكتب المقررة أو المختارة أو الأكثر اعتمادا واعتبارا. ففي هذا المجال نرى أن من مراجعة عامة لأهم الكتب المؤلفة في هذا العهد، وتلك التي كانت تنال حظا متزايدا من التناول والتحليل والشرح والتعليق يمكن توضيح مجالهما في الفنون والكتب الآتية مع التنبيه إلى أننا لا نقصد الحصر وإنما نذكر الأهم أو الأشهر.

أولا : التفسير وكان يباشر بتفسير الفخر الرازي حيث كانت تخصص له أحباس بجامع الأندلس.

ثانيا : الحديث وكان يدرس - في الغالب - بصحيح مسلم، وكانت المنهجية تعتني - بعد تصحيح الأسانيد - بضبط المتن لغويا ونحويا، ثم ارداف ذلك بالنقول الغزيرة.

ثالثا : التوحيد أو علم العقائد، وكان يختار لتدريسه - من الكتب - صغرى السنوسي.

رابعا : الفقه، وكان يلقن بمختصري ابن الحاجب الأصلي والفرعي، وبمدونة ابن القاسم، التي كان يسلك في تدريسها مجرد نقل كلام مشايخها من أولهم إلى آخرهم، وكانت الدراسات الفقهية لهذا العهد قد بدأت تتعرف كذلك

على مختصر خليل الذي يرجع الفضل في إدخاله إلى فاس أول الأمر لأبي إسحاق المالكي المتوفى سنة 767 هـ ثم تتابع دارسوه إلى أن كان الفقيه محمد بن المفتوح التلمساني المتوفى سنة 818 هـ بمكناس، الذي دعم نشره واعتماده ككتاب مفضل أثير على كل ما عداه، ويلاحظ أنه من يومئذ ـ وكتاب خليل ـ ما يزال يحاط للحظوة والاختيار، ويعتمد أساسا للفتوى والاستبصار.

خامسا : القراءات، وكان يعتمد في تدريسها كتاب (الدرر اللوامع لابن بري)، ومن الملاحظ أن مؤرخي الحركات التعليمية يكادون يجمعون على أن المغاربة لعهد المرينيين لم يبرعوا في فن من الفنون براعتهم في القراءات، وأنها الميدان الوحيد الذي سيطر فيه المغاربة سيطرة تامة على سواهم من علماء الإسلام في كل أصقاع العالم، كما يؤكد ذلك الدكتور عبد العزيز الأهواني فيما نقله عنه الأستاذ الحسن السائح ـ دعوة الحق ص 36 العدد 2/8 السنة 6.

وكانت هذه المادة تدرس بالإضافة إلى الدرر اللوامع بكتابي الخراز : (موارد الظمآن في رسم القرآن) و (عمدة البيان في الرسم).

سادسا : علوم الفرائض والمواريث وكان يختار لتدريسها القصيدة التلمسانية.

سابعا : القواعد النحوية، وكانت تعتمد في منطلقها على مقدمة (الأجرومية) بشرح عبد الله الشريف، ثم بشرح المكودي على ألفية ابن مالك، والمدخل للإمام الجزولي، ومنظومة الجمل للمجراد السلوي.

ثامنا : التصوف، وكانت تختار لتدريسه كتب عدة، في مقدمتها (الشفا) للقاضي عياض، وقصيدتا (البوصيري) الهمزية والبردة، والمباحث الأصيلة لابن البنا الصوفي، والحكم العطائية بشرح ابن عباد.

تاسعا : العروض وعلوم الشعر وكان يقتصر في تدريسه على شرح الأزموري على الخزرجية.

عاشرا : الرياضيات والهيئة والتعديل، وكانت كتب أبي العباس أحمد بن البنا المراكشي تعتبر المفضلة في هذا الباب، (وبالأخص التلخيص رفع الحجاب في الحساب)، • (منهاج الطالب في تعديل الكواكب) وكان يدرس في نفس الوقت ـ وفي هذه المادة ـ كتاب عبد الرحمن الجادري المسمى (وردة الأزهار في علم وقت الليل والنهار).

الحادي عشر : الطب : كانت أهم الكتب المعتنى بتدريسها في خصوص هذه المادة ـ حسب قول دلفان في كتابه عن فاس ـ هي الكامل للرازي، والقانون لابن سينا، وزبدة الطالب للجرجاني، والتذكرة للسويدي. ثم بالإضافة إلى ما أشرنا إليه من مواد وعلوم وفنون، كانت هناك إلى جانبها فنون الموسيقى والمنطق والبيان إلخ...

أما طريقة التناول والتحليل، فمن خلال التقصي والبحث يبدو أنها اتخذت اتجاهين متباينين : أحدهما في بداية ظهور بني مرين، وحين تبنت الدولة قضية الفقهاء واحتضنتهم وشجعت محاولاتهم البحوثية، مما دفع بهؤلاء إلى سلوك منهجية أثارت اهتمام الناس وإعجابهم. وظهر الاتجاه الثاني حين بدأت الدولة في الانهيار، وأخذ مدها السياسي في الانحسار. والثقافة والفكر إذا لم يحضنا من طرف دولة قوية الجانب، مرهوبة السلطان مؤمنة بجدوى هذا النوع من النشاط الإنساني وعلى أساس اعتباره مردودا اقتصاديا.

واعتمد الاتجاه الأول نوعا من الموسوعية المتحررة، القائمة على استخلاص النتائج، عن طريقة استحضار القواعد والعلوم التطبيقية المتصلة بالموضوع المعالج.

بينما اتسمت الطريقة الثانية : باعتمادها المختصرات والمعممات الفقهية. على اختلاف الفقه : شرعيا أو لغويا أو نحويا.

وكان من أبرز الشخصيات التي تمثل المدرسة الأولى، وبدون نزاع ـ أبو القاسم عبد العزيز بن أبي عمران موسى العبدوسي الذي كان رحل إلى تونس أواخر سنة 817 هـ بتوصية من أبي عبد الله محمد ابن مرزوق،.

وهذه صورة عن طريقة تناوله ـ كما يرويها أبو عبد الله الزاديوي المفتي التونسي ـ قال الزاديوي عن ذلك : (...وأما إذا ارتقى الكرسي، يعني كرسي التفسير... ابتدأ بأذكار وأدعية مرتبة، وبعد ذلك يقرأ القرآن، آية آية، فلا يتكلم بشيء منها إلا قليلا، ثم يفتتح فيما يناسبها من الأحاديث النبوية، وأخبار السلف، وحكايات الصوفية،

وبسير النبي وأصحابه والتابعين، ثم بعدها يرجع إلى الآية، وربما أخذ في نقل الأحاديث، فيقول : الحديث كذا أو الثاني كذا أو الثالث إلى المائة فأزيد، ثم كذلك في المائة الثانية، والشك في الثالثة..) النبوغ المغربي - لكنون - ج. الأول - ص 192).

فهذه الطريقة التي يحكي عنها الزاديوي هي أشبه بطريقة المحاضرات التقريرية.

وقد قلده في منهجيته هذه - وقد تكون هي الطريقة المفضلة لتلك العهود - من علماء المغرب جلهم كالقباب الذي كان يقول عن ابن بشير، وابن شاس وابن الحاجب، أنهم أفسدوا الفقه باتجاهم تأليف المختصرات... وقال لابن عرفة عندما أطلعه هذا على مختصره؛ ما صنعت شيئا، قال ابن عرفة : لم ؟ قال : لأن مختصرك لا يفهمه المتبدئ ولا يحتاج إليه المنتهي.. قالوا فتغير وجه ابن عرفة ومن يومئذ أقلع عن طريقة المختصرات وحاول أن يتبسط في تعابيره.

ومثل القباب كان اليزناسني، وغيره ممن تحتفل بهم كتب تاريخ فقهائنا.. أما المدرسة الثانية فمن يمثلها كثير، وأكثر من أن يحصى أصحابها.

على أنه إذا صح لنا أن نعتبر الأوضاع الثقافية لعهد الوطاسيين امتدادا لهذه التي سادت عهد بني مرين، - والوطاسيون كما نعلم فرع أصيل من شجرة بني مرين - فإن الصورة التي صور بها صاحب كتاب : الرسالة المجازة في معرفة الإجازة) أبو الحسن علي ابن ميمون، الذي كان يتابع دراسته بفاس سنة 887 هـ / وهو من مواليد سنة 854 هـ، فإن هذه الصورة التي صور بها الحياة العلمية لعهد الوطاسيين يمكن اعتبارها في نفس الوقت صورة لهذه الحياة في عهد بني مرين.

وهذه الصورة وبعد أن تشير إلى أهم المواد المتدارسة - هي تلك التي أشرنا إليها قبل، وهي تقضي على الطالب - وقبل أن يلتحق بجامعة القرويين التي كانت أصبحت لذلك العهد وصارت مكانا للتدريس تلقينا وتلقيا - أن يحفظ القرآن كله مع إتقان تجويده ورسمه، وأن يحفظ المصنفات والمنظومات التي تستوعب المواد المقررة ولا سيما الفرائض والحساب والفقه، تمشيا مع شعار (من لم يحفظ النص فهو لص).

ويتحدث ابن خلدون عن منهجية التناول لدى أصحاب هذه الطريقة الثانية فيقول : (..وقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث أو استدراكها على المتقدمين، وإنما تصرف العناية إلى تصحيح الأمهات المكتوبة وضبطها بالرواية عن مصنفيها). أي مع الاهتمام بالشروح للقصائد، باعتمادها تكأةلتناول مختلف العلوم والفنون بالدراسة والتحليل أو بالنقد أو التقريظ.

وتظهر معالم هذه الطريقة العناية التي لقيتها مقصورة حازم أبي الحسين بن محمد بن حسين بن حازم الأنصاري القرطاجني من المستنصر الحفصي أحد أمراء تونس الذي حكم ما بين سنة 675/647 هـ حيث شرحها كثيرون على نفس الوثيرة والطريقة التي تناولها أبو القاسم الشريف الغرناطي ممهدا لشرحه لها بمقدمة ضمنها بعض أغراضه من هذا الشرح، وقد جاء في هذا البيان قوله : أضع عليها كتابا أضمنه شرح غريبها والكلام على بديع أسلوبها، منبها على ما اخترعه من أنواع الأغراض وضروبها إلخ...

وفعلا نبه على كثير من آرائه الخاصة، سواء فيما يتصل بالأداء الفني أو المضمون، ومن ذلك ما قام به من مقارنات بين أبيات حازم التي يقول في مطلعها :

فاعمم بأوصاف العلى كما له
واستثن في وصف سواء بسوى

وبين أبيات ابن الرومي التي مطلعها :

هي الأعين النجل التي كنت تشتكي
مواقعها في القلب والرأس أسود

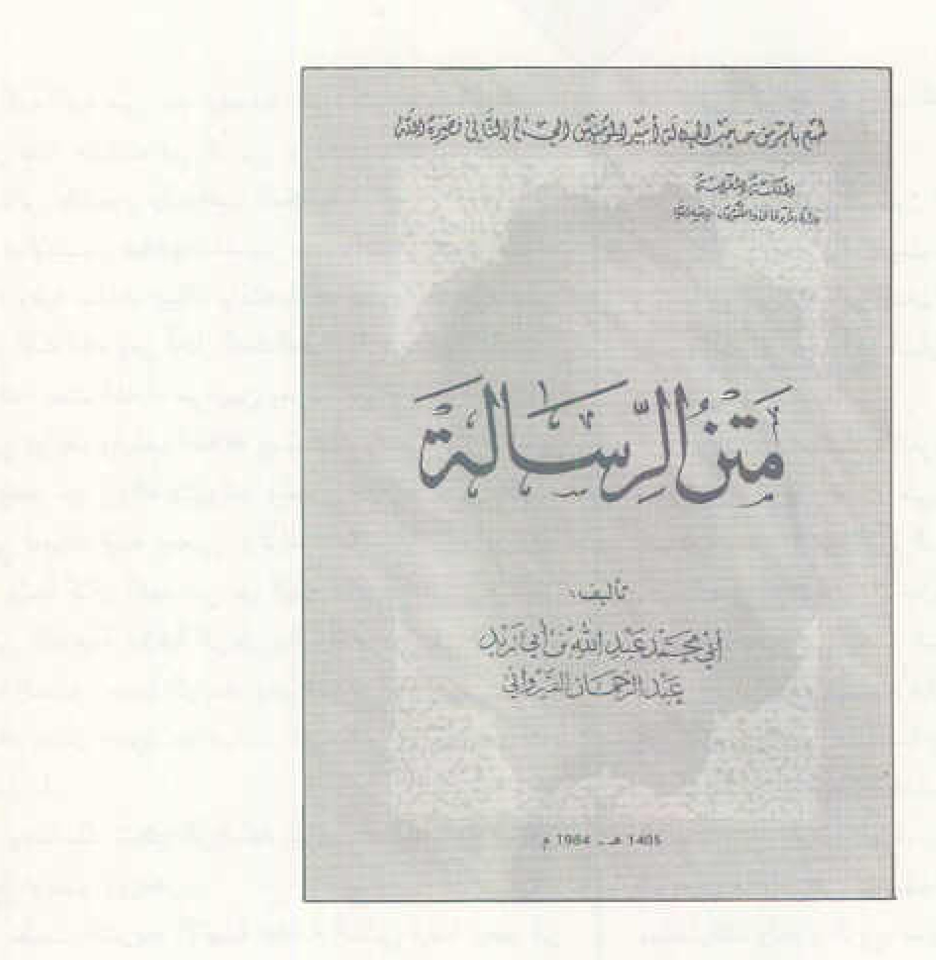
على أن مراجعة خاطفة لقصيدة الحسن بن إسماعيل الأغماتي التي مدح بها أبا الحسن عليا ابن محمد بن علي الشاري السبتي الفاسي، حين شيد مدرسته بسبتة وأنشأ بها خزانة كتب مهمة تظهر بأن هذه المواد المتدارسة والمتداولة كانت - تقريبا - هي نفس المواد التي كانت معروفة لعهد الموحدين.

يقول الأغماتي في بعض أبيات قصيدته التي يعدد فيها كتب العلوم التي كانت تضمها خزانة الشاري - مع التنبيه بأن الضمير في - بذكرها - يعود للكتب.

وليس بـوسعي أن أجئ بـــذكرهــا
مفصلـــة إذ لست أحصي لهـــا عـــددا
فمن كتب التفسير أعظمهـــا غنى
وأنفعهـــا قـــدرا وأرجحهـــا جهـــدا
ومن سنن المختـــار مـــا صح نقلـــه
وجـاء بـــه أهـل العـدالـــة مسنـــدا
ومن منتقى الكتب المهـــذب جملـــة
إلى مهيـع الا شـاد تهـدى وتهتـدي
ومن علمي الأعراب واللغــــــة التي
بهـــا أنـــزل اللـــه الكتـــاب الممجـــدا
دفـــاتر لـــو أن الخليـــل بن أحمـــد
رأى عشرهـــا والأصعي تبلـــــدا
ومن كتب التـــذكير مـــا راق سمعـــه
وكـــان إلى التقـــوى دليـــلا ومرشـــدا

وهكذا يتضح كيف أن التوجيه الديني كان الغالب على المناهج التدريسية حتى ليصح القول بأن كل شيء في هذه العهود كان ينصهر في البوتقة الدينية وكان يعالج من هذه الزاوية خاصة، لأن المنطلق الذي انطلقت منه كل هذه الدول التي تعاقبت على تسيير دفة الأمور في هذه الديار إنما كان الدين ومن أجله فما كان لدولة من هذه الدول أن تتجه غير وجهته ولا لها أن تنحرف عن تعاليمه.

فاس **عبد الكريم التواتي**



"الإسفاف والتردي .. وحضارة الغرب"

للأستاذ عبد القادر العافية

كرم الله بني آدم، وفضله على كثير من مخلوقاته وجعل منه خليفته في الأرض، وزوده بالعقل والإدراك والإحساس والشعور والمواهب المختلفة.

فالإنسان مخلوق متميز بمميزات لا تتوفر لغيره، فخالقه وهبه صفات نبيلة، واستعدادات فطرية متميزة، ومن تكريم الله له، ومن أجل المحافظة على مزايا الإنسان ومميزاته، بعث الله له موجهين ومرشدين، ووضع له شرائع وقوانين تهذبه، وتهذب أخلاقه وسلوكه، وتنمي نوازع الخير فيه. وتحد من نزواته وشهواته، وتحسن علاقته ببني جنسه وتعطي لحياته قيمة ومعنى، وكرامة ونبلا...

ولما كان التجانس من أقوى غرائز الإنسان ضبطت القوانين الشرعية علاقة الرجل بالمرأة بضوابط أخلاقية، وعلاقة إنسانية رحيمة كريمة، وعواطف سامية : من مودة، ورحمة، وضمان حقوق وواجبات، كل ذلك في نبل وكرامة واستمرارية...

وبذلك تتمتن الروابط بين أفراد المجتمع فينهض وينتج، وينمو ويزدهر...

نظمت الشريعة الإلهية علاقة الناس فيما بينهم في مختلف مجالات الحياة وميادينها، وفي نفس الوقت نظمت علاقتهم بربهم وصلتهم بخالقهم تزكية للنفس وتقوية واطمئنانا...

وبالتزام منهج القانون الرباني الذي وضع على أقوم أسس للنفس البشرية، حيث وازن بين غرائزها وكرامتها، وسموها ومتطلباتها... والهدف والمقصد : هو تكريم الإنسان والسمو به، في هذا الإطار نظمت العلاقة بين الرجل والمرأة.

وجاءت حضارة الغرب لتشكك الناس في أسس المنهج الرباني، وعملت على تحطيم الطموح الروحي في الأنسان، وعلى تدمير القيم النبيلة فيه، وجدت في نسف ما بناه الدين. وشيدته الأخلاق، من همم، ونخوة وكرامة... ورحمة، ومحبة... فأباحت شتى المحظورات.

واستهانت بالقيم والأخلاق... فأباحت الزنا والفجور، وفككت الروابط القدسية بين الأسرة، ووضعت الحواجز بين الصلات الرحيمة، فاستقلت الفتاة، واستقل الفتى، وانفصما عن روابط الأسرة، وتحررت الزوجة من روابط الزوجية، واستقلت بنفسها، وتحررت من تبعات البيت ومتطلباته، وتحرر الزوج بدوره وبذلك خالل كل واحد منهما من شاء، وعبث كيف شاء. فتمزقت الأسرة وتصرف

كل واحد من أفرادها حسب أهوائه الدنيئة، وهتك ستر الحياء، وحلت الحيوانية محل المروءة والكرامة، والدنايا محل العفة والنبل... فتلاشت القيم الأخلاقية.

وعرفت الأسرة في أوروبا وأمريكا انحدارا لم يعرف التاريخ له مثيلا.

وبذلك انحط المجتمع الغربي، وتفنن في الانحطاط الأخلاقي، فأبيحت العلاقات غير الشرعية، وأصبحت ظاهرة عادية مألوفة، بل هي القاعدة العامة، والشاذ هو الزواج القانوني. وأبيح الشذوذ الجنسي، وأقيمت النوادي لممارسة الشذوذ والتبجح به. بل أباحت القوانين الغربية ربط صلات جنسية (قانونية) بين ذكر، وذكر، وأنثى، وأنثى!؟؟ وبالرغم من ظهور مرض (الايدز) الوباء الخطير فإن القوم سادرون. وأقيمت نوادي العراة في أماكن مختلفة، ومارس الفتيان والفتيات الجنس في سن مبكرة، في إباحية تامة، بلا وازع ولا رادع. وشجعت الحضارة الغربية على ذلك. وأتت هذه الحضارة بمفاهيم وأفكار تحط من قدر الإنسان ومن قيمته.

وأدهى من ذلك أن التجارب التي كانت تجري على الحيوانات أصبحت تجري على الانسان ؟ ومن ذلك التجارب التناسلية، والتلقيح الصناعي الذي انتقل من ميدان الحيوان الأعجم إلى بني آدم الإنسان الذي كرمه الله وسما به خالقه.

وبذلك انعدم الفرق في الحضارة الغربية بين الإنسان المكرم، والحيوان الأعجم، وظهر إنسان الأنبوب، وبنوك المني، والبويضات وانحطت قيمة المرأة في هذه الحضارة الغربية، فأصبحت تستأجر رحمها، كما تستأجر أواني الطبخ في المناسبات !! تستأجر رحمها لتلقيح مني الرجال !! وأصبحت البويضات تنتزع من رحم النساء لتباع ولتلقح بمني رجال أجانب.

وفي هذا الانحدار الحضاري تخلى الإنسان عن التكريم الذي ميزه الله به. وفضله به على كثير من خلقه.!!

وهكذا استبدل القرار المكين بالانبوب، والفراش المصون بتنقل النطفة بين أيدي الأطباء والممرضين والممرضات...

قال تعالى : **﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾...**

ونبي الإسلام ﷺ يقول : «الولد للفراش» والغريب في الأمر أن التخلي عن الكرامة الإنسانية جاء باسم العلم، والتطور العلمي فالحضارة الغربية ضحت بكل القيم الإنسانية لتنحدر إلى مستوى أخس أنواع الحيوان، كالكلاب والقردة والتيوس...

باسم التطور العلمي تقدم المرأة نفسها للطبيب ليدخل برحمها مني رجل أجنبي يريد الانجاب من غير شريكة حياته، فتمتص النطفة من دمها وعظامها وغددها، وتظل تعاني من منغصات الحمل تسعة أشهر كاملة... وفي النهاية تقذف ما برحمها لصاحب المني المستأجر (بالكسر) وربما استأجرت رحمها من جديد...!!

وهكذا حطت الحضارة الغربية من قيمة المرأة وجعلت من رحمها مجرد وعاء للإيجار !! يستقبل مني الرجال ونطفهم.!!

كل هذا لأن أنانية المرأة العاقر في المجتمع الأوروبي أبت عليها أن يتزوج زوجها بطريقة مشروعة فيكون ذا أولاد يتمتعون بدفء الفراش، وحنان الأمومة، وعاطفة الأبوة...

فالله تعالى الذي أباح التعدد الشرعي، حفظ بذلك كرامة المرأة حتى لا يصبح رحمها وعاء يستأجره المستأجرون.

كيف تتصور المرأة التي دخلت إلى المستشفى وهي حامل في الشهر التاسع وقد عانت من الحمل، ومن الوضع، ثم خرجت منه وهي فارغة الوطاب، وقد تركت مولودها للآخرين !!

مسكينة تلك المرأة الاسترالية المستأجرة (بالفتح) التي أبت أن تتخلى عن المولود الذي ولدته وعانت من حمله ورأت في النهاية أنها مغبونة، وأن الأجرة التي أخذتها لا تعوضها ما أعطته من دمها ولحمها وعظامها. لكن المحكمة حكمت عليها بأنها مجرد مستأجرة !!

أليس في هذا أكبر أهانة للمرأة باسم العلم ؟! وباسم التطور العلمي والحضاري ؟!

وحتى طفل الأنبوب عند ما يكبر ويعلم أن المرأة التي هو معها ليست أمه التي حملته، ووضعته، وأن التي

قامت بذلك هي مجرد مستأجرة !! كيف ينظر هذا الطفل إلى نفسه ؟ وإلى المجتمع الذي هو فيه ؟ عندما يعلم ويتيقن أن هذا الجو الذي هو فيه مجرد جو اصطناعي محاط بالنفاق والخداع... فهذه التي هو معها وتزعم أنها أمه ليست بأمه، وأمها ليست بجدته، وأخواتها وإخوانها ليسوا بخالاته ولا بأخواله...!!

طفل الأنبوب في المدرسة وفي الشارع معرض للمز والغمز... يتساءل مع نفسه ما علاقته بكل من حوله ؟!

وحتى علاقته بأبيه علاقة ضعيفة وغامضة جدا، لأن تنقل نطفته بين الأيدي والأنابيب والأطباء والممرضات... كل ذلك جعل الانتساب إلى هذا الأب ضعيفا جدا. ومن الميسور تعويض نطفة بأخرى...

فطفل الأنبوب يولد معقدا تتقاذفه أمواج الشكوك والتساؤلات. اللهم إلا إذا اعتبر نفسه مجرد حيوان يأكل ويشرب لا أقل ولا أكثر، وفي هذا انحطاط الإنسانية إلى الدرك الأسفل الذي ما بعده انحطاط.

وهكذا تعبث الحضارة الغربية بالكرامة الإنسانية، وأضافت إلى الإباحية والفجور، والاتجار بالأعراض، وإباحة الشذوذ، وتفكك الأسرة وما إليه من العبث بكرامة المرأة، وجعلها عارضة أزياء، وبضائع، أو عارضة جسدها من وراء الواجهات الزجاجية لطلاب الشهوة الحيوانية، أضافت إلى كل ذلك : العبث بنطفة الإنسان، ورحم المرأة وتحاول هذه الحضارة أن تجعل من التوالد الصناعي الحيواني ظاهرة عادية بين الناس !!

إلى هذا الدرك انحطت الإنسانية في حضارة الغرب، وبذلك ابتعد الإنسان في هذه الحضارة بعدا كبيرا عن التكريم الذي منحه الله إياه.

﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

صدق الله العظيم

عبد القادر العافية



قوانين التفكير الإسلامي

للأستاذ الحسن السائح

الإسلام في عمقه وواقعه

هذه محاولة جديدة لفهم الاسلام والمحاور التي يعتمدها وميكانزم حركته ، ولا استطيع ان اصفها الا بأنها محاولة تجهد نفسها لتوضح الواقع وتشرح التاريخ وتنير المستقبل .

وهي ليست دعوة للاصلاح او التجديد ، ولا هي دعوة سلفية او ما يشبه اية حركة تعتمد التحليل التاريخي وحده ، او التشريعي وحده ، وانما هي محاولة – واؤكد ذلك – آمل ان تحقق الدراسة العلمية لحركة الفكر في الاسلام واثرها في خلق ثقافة موطدة للبناء الحضاري .

محاور التفكير الاسلامي وميكانزم تطوره :

هناك قضية تهمنا جميعا كباحثين مسلمين نحاول استرداد مكانتنا العلمية والسياسية والاجتماعية في الحضارة المعاصرة ، ونحاول ان نضع اليد على مكامن المرض ، ونصارح انفسنا ، كما يصارح الطبيب مريضه ، دون محاولة صرفة عن معرفة دائه ودون تغريره بنسيان آلامه . هذه القضية هي تخلفنا ووعينا بهذا التخلف .

فالامر اليوم لا يستدعي التأخير ، فكلنا نعرف ما نعاني ، وكلنا امام الخطر العاتي .

ولهذا ننطلق من ثلاث معادلات تثير انتباهنا وتفكيرنا :

الاولى : لقد قرانا كثيرا ، واجبنا جزءا كبيرا من تراثنا ، ولذلك فنحن نعرف انفسنا ووضعنا واختياراتنا .

الثانية : ان من لا يتقدم في سباق الحلبة يتاخر باستمرار ، ومن يتأخر باستمرار يصبح وحيدا في صحراء موحشة .

الثالثة : لا يمكن ان يساعدنا غير انفسنا . ومن الاحباط ان نلوم الغرب ، ومن الهروبية ان نتشبث بالماضي او ننتظر سوقط حضارة الغرب .

الرابعة : ان في وسعنا — وليس لنا اختيار — أن نبني مذهبنا على الالتزام والوعي والوحدة ، وان نحدده تحديدا دقيقا لنطمئن في مسيرة مخططة قادرة على اختراق الطريق الموحش .

واذا فطريق الخلاص هي تحليل الواقع وعلاجه .

ولهذا ساقدم على محاولة للبحث في محاور التفكير الاسلامي . هذه المحاور التي احاول تعريفها وضبطها ، وان ابحث في ميكانزم التفكير الاسلامي . لنعرف كيف نصرف طاقتنا الى البناء في طريق يوضح أعمدة التفكير الاسلامي واسلوب حركة الفكر المسلم ويستغل قوامتها لخلق فعالية دافعة .

ان اي جهاز آلي يعمل وفق تنظيم دقيق ، واي خلل او عطب لا يمكن اصلاحه الا بالرجوع الى المخطط الهندسي . فهل نستطيع ان نضع للتفكير الاسلامي ورقة هندسية نستعين بها على معرفة مكان الخطا وطريق الاصلاح حين يصاب جهاز التفكير بعطف التوقف والجمود او اضطراب السير ؟ .

ربما كان من الصعب جدا وضع هذا التصميم الهندسي الا بتآزر وتعاون وامانة ، فمن الصعوبة في موضوع كهذا ان يحدد تحديدا هندسيا يسهل تناوله ، ولكن اذا توفرنا على جماعة من المتخصصين فقد نستطيع ان نقدم تصميما محكما لهندسة الفكر الاسلامي وميكانزم حركته .

ان الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لعالم اسلامي يجب ان يدرس كواقع لا كتاريخ ، وكابتولوجية لا كاديولوجية ، وان لا يفصل جزء من اجزائه جغرافيا او تاريخيا ، وانما يدرس بنيويا متكاملا .

ان العودة الى اية صياغة تاريخية او نمط سلفي سوف يزيد الامر تعقيدا . لانه يبعدنا عن واقعنا ، وعن علاقاتنا بالحضارات المعاصرة .

ليس معنى ذلك استبعاد تام لعمل السلفية ، ولكن استبعاد للسلفية القديمة ان تؤدي عملا جديا فى المجتمع الاسلامي الجديد دون أن تتعرف على وسائل التطور الحديث .

ليس معنى ذلك تجاوز . ولكن معنى ذلك البحث في الواقع وعلاجه بكل ادوات المعاصرة .

اذا كان المهندس يبني نموذجا لعمارة قبل انشاء العمارة ويضع تخطيطا لمختلف الابنية الحجارية والحديدية والكهربائية الخ . ويخطط ايضا ليعرف بسهولة مكامن العطب حتى يسارع لاصلاحه ، فلماذا لا اقيم نموذجا لابنية المذهب الاسلامي فاحدد الابنية والعلاقات والافراد والذات والموضوع والزمن والمكان ، وتطور البيئة .

وفي تجارب الفيزياء ، والبيولوجية قوانين للمقارنة بين قوة الذرة في المادة او ضعفها حسب تركيبها ، وقوانين قوة الخلية او ضعفها حسب تركيبها كذلك . والجوهر واحد سواء في الانسان او في المجتمع او في المجموعة الشمسية . فالتركيب الاسمى هو الاكثر تعقيدا وكثرة . فلدينا ثلاثة اشكال للمادة تسمى ذراتها الكترونات وبروتونات ونوترونات ، وكل المواد حية او غير حية تكون في هذه الجسيمات .

الذرة قد تكون جامدة ، وقد تكون عضوية حية ، ولا شك ان هناك خط متصل بين العالم العضوي والعالم غير العضوي ، وهي العلاقات بين المادة والروح والشكل والمضمون . وقد ظهرت علوم تؤكد ذلك .

فالظواهر البيولوجية تتحول الى مركبات كيماوية وبروتينات ترجع في الاخير الى ذرات من الايدروجين والنتروجين والكربون والاكسجين .

فالذرات تختلف قوة وضعفا حسب عدد الالكترونات والبرتونات التي تدور حولها في حركاتها الدائبة . ومن عدد البروتونات والكركات والبزوتات تختلف عن بعضها قوة وضعفا (1) .

---

(1) الاورانيوم 92 بروتون + 143 نيترون والمجموع 235 حسب تدقيقات Classification périodique لروندل Rendel الذرة تحتوي Proton وهو يحتوي quarks الذي يحتوي Boson et Quarks وضده .

والخلية البيولوجية تختلف عن أية خلية اخرى حسب قوتها وتوازنها مع الخلايا الاخرى ؛ وانضباط الانزيم وصلابته .

وهذا ما جعلني أجعل طاقة التفكير الاسلامي المعتمدة على ستة محاور ، اقوى طاقة مولده ودافعة، وهذا ما جعلني أيضا في بحثي عن ميكانزم التفكير الاسلامي الاحظ قواه الخارقة وانضباطه المتين .

محاور التفكير الاسلامي

وتحكمنا في عمل الجهاز الثقافي والاقتصادي والعلاقات هو ضرب من الحكمة في معالجة القضايا ، فللانسان آلات عقلية تظهر في طريقة البحث وطريقة العمل وطريقة الحوار والتبليغ والنقل . وهذه هي الحكمة المرتكزة على أساس النص الثابت والمتحركة وفق مخطط يدفع الانسان الى الحركة وتلقي رد فعل اجتماعي يخضع لمؤثرات البيئة والزمان .

وهذا الجهاز يضم محاور ليست متنافرة ، ولكنها متداخلة بشكل بنيوي ، وتعددها دليل على قوة طاقتها ، وهي في الواقع مجموعة المحاور التي استقر عليها تطور الفكر الانساني ، ولهذا كان الاسلام آخر الاديان . وليس معنى ذلك وقوف العقل البشري عن النمو ، وانما هو مثل الاشجار التي تستكمل عناصر نموها ، ثم تصبح مختلفة في غزارة انتاجها حسب تركيب موادها .

ان اختلاف ادوات التفكير ومحاوره يؤثر على رؤية الانسان للحياة وعن علاقته بالموضوع ، والاختلاف بين المثالية والواقعية والموضوعية والتجريبية ، مما يعطي لكل فرد طابعا لشخصيته . ومن الطبيعي ان تختلف حياة الجماعات ، وضوابط الثقافات وانماط الحضارات تبعا لذلك .

وبما ان الانسان ذو ابعاد عقلية ووجدانية ، او كونية . وبما أن الموضوع الذي يتعامل معه قد يكون موضوعا ماديا او اخلاقيا ، او اجتماعيا . وكذلك فان المجتمعات التي يبادلها الفرد مصالحه قد تكون متجانسة او متنافرة ، مسالمة او عدوانية ، كما ان العلاقات بين المجموعات البشرية قد تكون اقتصادية، او عقائدية ، او اخلاقية . بل قد تكون منضبطة بشرع او بقانون ، او غير ملتزمة بشيء من ذلك ، وهي في كل ذلك تتأثر بعوامل تغير الاقليم والعصر .

فان مزج هذه المحاور وتناسقها ومعادلتها وتوازنها يكون العامل الرئيسي في الدفع والتطور والنماء وفق البيئة الزمانية والمكانية واسلوب التواصل والدستور الضابط للامور كلها ، ولولا الدستور الضابط لكان الانسان يعيش في مغامرات متوالية لا حد لها .

وقد اجريت تجارب بالكومبيتر على احتمال رد فعل في موضوع من الموضوعات فوصلت الى ما لا يمكن حصره . فعقل الانسان ومستواه الثقافي وعمره وحالته النفسية بالنسبة للموضوع نفسه واختلافاته مع غيره تجعل من الصعب أن يتنبأ الانسان، ولولا الضوابط القرآنية لتاه الانسان في مغامرات لا حد لها.
من خلال تركيب كيمياء التفكير الاسلامي ، وميكانزم عمله ؛ نرى ان التفكير الاسلامي يعتمد معادلات ثابتة وتوازن في الربط في ذات الانسان نفسه (اي بروحه وماديته) عقله ووجدانه ، وبين الانسان والموضوع الذي يعالجه ، وبين الانسان والموضوع ، وباقي افراد المجتمع كله ليتم التناسق . ثم ربط ذلك كله بالبيئة المكانية والمرحلة التاريخية ، وخضوع ذلك كله لنص قرآني متحكم بالعدل والحق ، الذي يعتبر المعيار والمؤشر لنشاط الانسان كفرد وكمجتمع وكأمة . فهذا النص القرآني يحدد طبيعة الموضوع ، ويحدد العلاقات المختلفة بين الموضوع والمجتمع ، والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية .

فهذه هي المحاور (الست) التي يرتكز عليها العمل والتفكير ، النظر والتطبيق في الاسلام .

لقد فطن الامام الغزالي الى طبيعة تركيب المعرفة الاسلامية حين سمى كتابه «كيمياء السعادة»، كما ادرك توازن المعرفة الاسلامية حين سمى كتابا آخر « بميزان الاعتدال » ، ولو ان الغزالية اهتمت بهذا الجانب كما اهتمت بالتصوف لافادت الحضارة الاسلامية وجنبتها كثيرا من العثرات .

ان هذا التركيب الكيميائي المتناسق في التفكير الاسلامي ، عود المسلم على المجابهة والتحدي ، والهدوء والاطمئنان . واعده لاكتشاف المجهول ، والبحث عن المستقبل بصبر واناة فحقق التطور وجابه حضارات اخرى لم يقف امامها منبهرا بل عاملا ومستفيدا ، ولم يقف من حضارته معجبا مغرورا بل ناقدا واعيا . (لان الله لا يحب الفرحين).

بهذا المركب المحكم جنبنا الاسلام مزالـــق الفلسفات واختلافاتها ، جنبنا عبث الوجودية التـــي ترى وجود الانسان سابقا على ماهيته وليس الانسان سوى مشروع يعاني القلق . وتوقينا بالاسلام النزعة المادية التي تنزع من الانسان قوته الروحية وهـــي اثمن ما فيه . وتوقينا بالاسلام الاهتمـــام بالانسان الكائن في الفلسفة اليونانية بدل الانسان الفاعل .

وبهذا المركب لم يفصل الاسلام بيـــن الانسان والطبيعة كما فعلت الديكارتزم التي اكدت على الأنـا وما تحمله من خصوصيات في مواجهـــة الكـــون . وجنبنا الاسلام الصراع الطبقي والاقتصادي لانه لـــم يفصل في بنيته بين الاخلاق والاقتصاد والتشريع ، وابعدنا الاسلام من الذرائعية الدغماتزم لانه ربـــط مصالح الانسان بالحقيقة الثابتة والصالح العـــام . كذلك ابعدنا عن الانعزاليـــة البوديـــة والرهبانيـــة المسيحية ، وكذلك اقر التوازن بين العقل والايمان ،

ولم يرد ما يحدث في الكون للطبيعة وحدها او للعلم وحده ، وجنبنا الاسلام الوضعية المتشائمـــة والطوباويـــــة الخياليـــــة .

بهذا التحليل عن (التركيـــب الفكـــري) في العقيدة الاسلامية نستطيع ان نفسر احداث تاريخنا ، وحيوية مجتمعنا . فلاول مرة في التاريـــخ عندمـــا يلتحق الرسول بالرفيق الاعلى يلتجىء المسلمون في خلافاتهم مع بعضهم الى مؤتمر يسمى مؤتمر التحكيم، تحكيم النص القرآني . اذ ان عنصر النص جـــزء لا يتجزأ (المركـــــب التفكيـــــري) .

ميكانـــزم التفكيـــر الاسلامـــي :

التفكير في الاصطلاح السيكولوجي هو النشاط الذهني ، أي الفعالية العقلية التي يقوم عليها الجهاز العصبـــــي المركـــــزي .

وللتفكير عملية عقلية كالتذكر والتخيل والانتباه والادراك والذكاء ، وله علاقات ببعـــض الفاعليـــات كالتجريد والتعميم والتصنيف واصدار الاحكـــام ، ووظيفة الفكر حل المشكل ، والجواب عـــن السؤال وتحويل المعلومات الى معارف ومفاهيم ، كمفهـــوم القوة والطاقة والقدرة والجاذبية ، بل ان يتوصـــل الفكر لذلك عن طريق التجريد والتعميـــم والتقييـــم والاستقراء والمحاكمة . وبذلك يحصل العلم الذي هو تحـــول الواقـــع الى مفاهيـــم .

وتنجم عملية التفكير بطريقة تلقائية سريعـــة لتعطي اولا نتائج **جدلية** ثم تستخدم تقنيات التفكير للخروج عن الحدس والايمان الى العلـــم والفلسفة والمنطـــــــق .

ولا نتصور حركة الفكر الا في اللغة ، فاللغـــة تمتص حركة الفكر وتصل الحدس والعلم من داخل الذات . اما بالتأمـــلات الداخليـــة او الحـــوار **والعمل الخارجي** ، الذي يشخص اللغـــة ويعطيهـــا الوجود الخارجي وفق صياغة العقـــل الانسانـــي للموضوع والمفاهيم المشتركة ، ويتحول التفكيـــر ليظهر في انماط متعددة عندما يستخـــدم اللغـــة للاتصال الخارجي . لان اللغة نصـــف من مجموعـــة التصورات والمفاهيم والعلاقات ثم القرارات .

وتدرس عمليات التفكير لتظهر حيويتهـــا في السيكولوجية واللغـــة والادب وفهـــم النصـــوص والاحكام ، وتوضيح العلاقات الاجتماعية ، وتحديـــد المفاهيم والقيم وتغيير الدلالات وتطورها ، وعلاقـــة اللغة علاقة جدلية بالنص القرآني وفهمـــه ، وهـــو النقطة المحورية الاولى التي تدور عليها بقية المحاور.

والنص القرآني مفهوم ومحفوظ سهل الادراك لانه فطري . والفطرة هي منطلق العمل التلقائي لكل انسان ، ولهذا فالاسلام بطبيعته دين تطور على طريق Historianisme الـــذيـــن يرون أن كـــل ظـــــاهرة فـــي حالة تطور وصيرورة وتحول باستمرار . اي التطور بالزمان Diachronique أي التزامن مع الشيء.

ويقول (شومسكي) وهو من علماء البنويـــة ان هناك قوة فطرية عند الانسان عامة ومشتركة مع جميع الناس تمثل البنية الذهنية العميقة المتحكمـــة في مختلف التحويلات التي تجري بها لغتنا ، فالفطرة هي المنطـــــق الطبيعـــــي .

واذا فافكارنا فطرية سابقـــة على التجربـــة والاكتساب والتعلم ، فالحدس والايمان قبل العلـــم والفلسفة ، والايمان في الدين هو التجربة في العلم بل هو : Axium و Évidence و Postulat في العلوم.

نقطة البداية هي الايمان وهـــو الاستبطـــان ، والقلب وهو مضغة ذات منطق خاص كالمخ الذي هو مضغـــة ذات منطـــق خـــاص ايضـ ـــا .

كل انسان ذو حاجة وهي تتحول الى رغبـــة ، والرغبة الى ارادة ، والارادة الى عمل . ويبدأ التصور ايمانا مطلقا ، ثم ايمانا حدسيا ، ثم الى عقليـــة ذات تحليـــل عقلـــي موضوعـــي .

فالايمان اساس كل انطلاقة عمل ، ويسايرهـــا العقل محللا مراقبا يفاضل بين الاختيارات ، ويضع الموازين ، فهو اذا طاقة كطاقة الايمـــان ، وطاقـــة الحدس وليس بنيـــة منفصلـــة .

بينما العقل في الفلسفة الاغريقية جوهر قائم بذاته في الفكر الانساني ، وهو الذي يجري عملية التفكير ، وربما وصفوه بانه المقياس الحق وهو فوق الايمان الذي هـــو عاطفـــة مجـــردة .

وقد قسم الفلاسفـــة اليونانيـــون العالـــم والمخلوقات الى عالم العقول والنفوس ، وما يسمى بعالم الامر ، او عالم الجبـــروت . اي عالم الخلـــق والابداع . وقد يفرقون بين عالم العقل فيسمونـــه عالم الجبروت ، وعالم النفس فيسمونه عالم الملكوت.

اما في الاسلام فبناء على التعادل الاسلامـــي يعتبر العقل طاقة من الطاقـــات محكـــوم بقوانيـــن ومعادلات غريزية وطبيعية وفطرية ، فهو ليس مستقلا ولا بد من مراقبته بالايمان وتناسقه مـــع الوجدان ، وضبطه وخضوعه لقوانين الفكـــر لا لهـــوى النفس وتأثيراتها لانه حارسها ايضا من طغيـــان المصلحـــة الـــذاتيـــــــة .

ولهذا يدعو الاسلام الى عقلنة النفس بالعقل ، وإلى مسايرة العقـــل للفطرة والغريـــزة والالتحام معهـــا لئلا يعيش منفردا عن الواقع . ويجعل ميدان عملـــه عصيان الهوى وعدم العجب والغرور وابتداع المنكر اي الابتداع مع وجود نصوص ضابطة للطبيعة الذاتية، والمجتمع الانساني ، فتكون (البدعة) بذلك خروجا عن طبيعة الامور . جاء في القرءان الكريم : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير) « سورة الملك » . اي نسمع بالايمان وبالثقة بالسمعيـــات او نحلل بالعقل والمنطق . وجاء في القرءان الكريـــم : (فتكون لهم قلوب يعقلون بها) أي ايمـــان معقلن .

والانسان يحتوي العقل والايمان معا ، فكـــل انسان سوي له ايمان ذاتي وعقل ذاتي ايضا ينمو بالاكتساب.

وبذلك حدد موقع الانسان في الكون كله بأنـــه كائن ذري لا على شكل (ذرات) فيثاغورس ولا شكل (موناد) ليبنتز فهو ذرة من جنس الذرات ، ولكنهـــا واعية مسؤولة ، لها حدود اختياراتهـــا .

فالانسان انتولوجيا ، اي بالبعد (الانبثاقـــي) والتكوين الاصلي هو انسان واحد ، من تركيب آدم ، ولكنه عقائديا وسلوكيا وباختياراته قابل للاختلاف بين التعالي والتدني والتسامي والتسافـــل ، وهـــو في تركيبه الاصيل جسم وروح لا جسد جامد هو طاقة جسمية وطاقة روحية يؤمن ويتدين حيـــن يمارس الحياة ويفكر حين يلاحظ سير الحيـــاة ، ويكتشف حيـــن يعـــرف اســـرار الحيـــاة .

فالايمان والعقل في الاسلام اساسا للمعرفـــة والحياة ، والمعرفة الاسلامية اساسها التوحيـــد والعدل وهما مكونا عنصر التوتر في الفكر الاسلامي ليظل باحثا في المستغلق ، وبهذه المعرفة يتحرر ، وبهذا التحرر يعرف ليتطور دائما نحـــو الكمـــال ، والمعرفة ذاتها منضبطة بالكتـــاب اي (التنظـــري) والسنـــــة أي (التطبيـــــق) .

وهذه المعرفة المضبوطة بالوحي اصبحـــت معارف عقائدية بعد نهاية الوحي وبداية رشادة الحق وفقاهة الفكر للاجتهاد على اسس سلمية لا سبيـــل لتدخل الهوى والمصلحة والاتجاهـــات الفلسفيـــة فـــي تغييرهـــــا .

لان النص مفهوم عقلي ومعيار ثابت ومحايد وهو وحي قرآني ، وما دام وحيا فهـــو يغمـــر المؤمـــن بالاطمئنان الميتافزيكي ، ويعطي للحياة استقرارا بدل التمرد والعبث والشك ، وهو ايضا يحفظ الاسلام من السلبيات والتأويل وكل ما يغيـــر الروح الاصيلـــة للانسان ، وهو طاقة ليستطيع المسلـــم ان يجتهـــد ليسمو في التطور وفق مبادىء الاسلام ، (فلكل اجل كتاب) اي لكل مرحلة نظام ولكل جيل رؤية خاصـــة للموضوع ، ولكل حضارة خلفيات ، هـــي كتابتـــه ومنهجـــــه ومخططـــــه .

والايمان والعقل يدفعان الانسان الى تحقيـــق رغبته بالشوق والتخطيط بالايمان والعقل ، فيواجه

الانسان عالما جامدا ، وكتلة غير مطواعة لارادتـــه، اي يجد امامه (ضدا) يتخلف في العالـــم قوتـــان متصارعتان ، احداهما ايجابيـــه هـــي (الانسان) والاخرى سلبية هي (الطبيعة) ومن خلال صراعهما يتكون الانسان نفسه ، ويدخل العنصر الثالث وهو الزمان ، وحين يعمل الانسان يؤرخ ، وبدون عمل لا يمكـــن ان يخلـــق الزمـــن .

الانسان المفكـــر في الاســـلام :

ان الانسان ككائن حين يتحرك بدفع غريـــزي فطري ليحفظ حياته ويسمو بروحه لا ليكـــون مجرد حيوان لانه في الواقع ليس بحيـــوان الا بتعريـــف ارسطو ، ولعل وجود « نية » في عمله بجانب رغبته دليـــل على انـــه فـــوق « حيـــوان » .

ويؤكد الاسلام على النية في كل عمل لانها تعني الوعي ولا تجعل من العمل مجرد « عادة » ، او تقليد، وربما كان (برجسون) قريبا من المفهوم للنيـــة في الاسلام حين عبر عن الفكر الواعي بالفكر المتحرك ، وحضورها في الاسلام لدى الشخص مقرون دائمـــا بحضور الخالق والالتزام بتعاليمه فهي « مراقبة » .

والنية تلازم العمل وتخطط له بوعي ، والعمل ينصب على موضوع معقول او محسوس ، فالمعطيات الحسية هي امدادات حقيقية ترد الينـــا من العالـــم الواقعي ، وليـــست مجرد اوهام ذاتيـــة من نسيـــج العقل كما يرى اصحاب المثالية الذاتية مثل (كانط) يجعل من واقعية العالم الخارجي « بداهة مباشرة » ومهمة نقد المعرفة التي اهتم بها كانط هي العمل على تبين ما يرد الينا من الخارج . وما نضفيه نحن على المعطيات الحسية ، عن طريق ما لدينـــا من صـــور اولية (لا فطرية) سابقة على التجربة . الا ان هـــذا لا يعني ان تكون كل معارفنا مستخلصة من التجربـــة فهناك معرفة مستقلة تمام الاستقلال عن التجربـــة ، وغير مرتبطة اصلا باي انطباع حـــي ، وتلك هـــي المعرفة الاولية الخالصة المتقدمة على كل تجربة وعلى اساس تمييز المعرفة الخالصة التي هـــي اوليـــة والمعرفة التجريبية التي هي لاحقة او متاخـــرة او المعرفة الفطرية.

ووظيفة الفكر هي اولا التمثلات وهي عبارة عن تاثرات متباينة ، ولكنها لا تدخل في موضوع الا اذا قام بينها ارتباط والا اذا ركبت بحيث يتم من تركيبها موضوع ما ، فالمعرفة لا تحصل الا اذا ركبت هـــذه التاثرات والمعلومات في تمثلات مشتتة . والتركيب انما يقوم به الفكر . وبذلك نحصل على معرفـــة ، فارتباط التمثلات الحسية وهي في اصلها تاثرات – ارتباطها في موضوع وتركيبها لموضوع – هو مـــن عمـــل الفكـــر .

واذا كنت هناك فطرة ورغبه ونيـــة وعمـــل ، ومنطق لا شعوري فكيف يتحرك الفكـــر في الاسلام ليحقق اهدافه . وما هي قدرات طاقته ، وما هـــو ميكانزم هذه الآلة الفكرية والوجدانية الدافعة للانسان

الصراع بين الموضوع والقيم والانسان والمجتمع:

هناك محاور تنتمي الى ثوابـــت ومتغيـــرات الانسان ، الموضوع : المجتمع والزمكان ، العلاقات : النص الضابط ، ويندفع الانسان ليحيا هذه المحاور بالصراع المولد للحركة الدائبة ، صـــراع في ذات الانسان نفسه (لقد خلقنا الانسان في كبد) صراع بين الفرد والمجتمع ، (ولولا دفاع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الارض) صراع بين الانسان والموضوع (خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكـــم احسن عمـــلا) (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك) (وما كان عطاء ربك محضورا) صراع بين الانسان والبيئة (ولنبلونكم بـــالشر والخير فتنـــة وإلينـــا ترجعـــون) (ســـورة الأنبيـــاء) صراع بين العلاقات (ورفع بعضكم فـــوق بعـــض درجات في ما آتاكـــم) (الانعـــــام) .

ان كل صراع هو تعبير عن تناقـــض . وكـــل تناقض حركة جدلية تفضي الى حالة جديدة منظورة اكثر بالتطور ، هو نتيجة دفع في المجتمع ، ونتيجة المكابدة في الشخص ، ونتيجة التغلب على البيئـــة المكانيـــة والزمانيـــة .

الصراع تضاد . والتضاد مصـــدر الحركـــة ، فعند ما تتم المواجهة بين شيئين تظهر حركة التضاد، فيقع الانقسام والتحرك . والصراع يعقبه الاستقرار والسكون ثم يتحرك الاستقرار والسكون في مواجهة اخرى فيتكـــون التضـــاد من جديـــد .

الصراع في ذات الانسان بين فطرته المتعالية وغريزته ، ينتهي بتكامل لا يلبث ان يتصدع بالحـــاح الغريـــزة والتعـــالي، فـــالتضـــاد مستمر بين الإرادة

والرغبة ، بين العقل والهوى ، بين الفتن والريـــق ، بين الانجاب والموت كل تيار يواجه تيارا معارضا .

فالتضاد شرط كل تطور ، وهو مصدر الحركة فالضد من طبيعته ان ينفي ضده لانه لا يجتمع معه ، وكما يقول ابن عربي «حقيقة العالم تقوم على الاضداد» ويقول الامام علي كرم الله وجهه : « بمضادتـــه بين الاشيـــاء ، عـــرف ان لا ضـــــد لـــه » .

وبالتضاد يتحدد الموضوع ، وتتوضح العلاقات وتتموضـــــع الاحـــــداث .

وبالتضاد يلتحم المعقول بالمنقول ، والمحسوس بالمجرد والاستمرار بالخلق ، والصيرورة والابداع ، وما ظل العمل مستمرا الا واستمر التناقض وبقـي الزمان يتحرك من الواقع الى التطلع والمستقبل ليقع الخلق في التاريخ ويظل في ذاكرة الإنسان ولا يسقط الا خارج ذاته ، بل يظل مستمرا في العقل يمزج بين المتخيل والمحقق ، وبين الرغبة والانجاز ، ويربـط المسميات بالاسماء ليحقق وجودا عقليا سابقـا او لاحقا في جدلية الانسان مع الطبيعة وتحدياته لهـا ليخلـــق ويبـــدع .

نقطة انطلاقة الفكر الاسلامـــي :

وعمل الانسان المسلم في كل ذلك ينطلق بداية من النية الواضحة في الذهن الى الايمان والتصديق بما سيقدم عليه وفق الشريعة والفطرة . ثم تاتـي التعادلية عند المسلم بين محصلة التاثيرات الذاتية والاجتماعية التي ترتكز دوما على قاعـدة الايمـان واليقين ، لان هذه القاعدة تضبط النوايا والسلـوك والاعمال . ويستطيع المسلم بالايمان ان يتحـدى ويتجاوز المعقول، فالإيمان، طاقة إيجابية لمقاومة السلبيات ، وهو القوة الكافيـة في ذات الشخـص لمقاومة انحرافات العقل والعاطفة والمؤيدة للسلوك الصحيح ، ولهذا فالايمان والتصديـق بالهدايـة امـــر اساسي في الاسلام .

ولا يمكن ان يعيش الانسان بـدون هـاجـة الوحي ، الذي يؤكد من اعلى على التآزر والتعاطـف ولا يمكن ان يعيش دون استعمال العقل ايضا الذي امرنا باستعماله لنحقق انسيتنا ووجودنا وخلافتنا في الارض وقدرتنا على الخلق والابداع ، ولا يمكـن ان تفكر او تعي بدون موضوع وبدون جسور العلاقـات بين الذات والموضوع ، وضبطها بنص الوحي .

جدليـــة التفكيـــر الاسلامـــي :

يرعى علماء الاسلام ان الجدلية هي عمليـة بين الاثبات والنهي والاقرار والانكار ، اي عدم اجتمـاع الضدين عكس ما راى هيجل من تاليـف الضديـن والجمع بينهما لتكون اطروحة ثالثـة . لان علمـاء الاسلام يرون التضاد في الحركة وفي التكامل لا في الحركة وحدها ، ولذلك قالوا : تضـاد الموجودات الطبيعية شرط لدوام الفيض الالهي ، اذ لولا التضاد ما صح حدوث الحادثان ، لان الحـادث ينشأ عـن المضادة والحركة ناتجة عن ذلك ، فلولا التضاد مـا تدخلت العناية ولا ما صح مبدا الفيـض والمـدد المستمر الذي هو الصيرورة وتجدد الوجود بالاخراج من العدم ولئلا نتجاوز موضوع اشكالية التطور فـي الاسلام سنكتفي بنقل مختصـر جـدا عن الرازي (1149 – 1204) .

التطـــور في الاســـلام :

يفسر الرازي الصيرورة بأنها الحدوث الانبثاقي بالفطرة ، وليس الحدوث بالتدرج . اذ الحـدوث بالتدرج لا معنى له وهو مجرد خداع بصري . فمـا نظنه تدريجا يحدث دفعة واحدة ، فالحركـة هـي مجموعة اجزاء متتالية فليس هناك بدء او بداء وانما هنـاك صيـــرورة وتطـــور .

ومذهب الرازي سابق على نظرية هيجل ولكنها نظرا لطبيعتها الاسلاميـــة تختلف عنـــه ، فالفلسفة الاسلامية او الرازية ترى ان اتحاد الوجود والعدم في الصيرورة في الفلسفة المثالية وتختلف معها في مبدأ اجتماع النقيضين فتبقى مبدأ اجتماع النقيضيـــن خارج الذهن.

فالهجلية مثالية تتخذ العقل المثال المطلـق في الطبيعة والذهن وصورة واقعيـة تستنـد الى التناقض ، فهي لا ترفض مبدأ اجتمـاع الضديـن بصورة ذاته ، فالصورة في المرآة ليست هي الذات الناظرة ، لانها صـــورة على شكـل ذات الانسان ، وليست ذات الانسان ، اي ان الانسان فـي الخارج هو شيء آخر ، و س هو الانسان نفسه ، وليس هو ذاته ، بـل شكـــله المظهـــري فقـــط .

ان قضية التضاد في تفسير الحركة تبتدىء من الوجود والعدم ، ويرى الفلاسفة المسلمون ويتبعهم علماء الكلام ان جميع القضايا والافكار موجبة وسلبية ؛ وبين الوجود والعدم والسلب والايجاب رابطة وعلاقة ، فسلبية الربط ، ربط السلب ، ومصداق السلب ومصداق الايجاب واحد ، والمقابلة بينهما تولد الصيرورة والتدرج والسيلان . فامتداد الزمان الذي ادخل كبعد رابع هو امتداد للموجودات التدريجية من القوة الى الفعل ، ومن الطاقة الى البروز والظهور ، فالشيء غير الموجود هو الذي يكون في الحال ، اما الماضي فقد كان فيه الشيء موجودا ، وكذلك سيوجد في المستقبل ، وبالتمعن في هذا التحليل ترى مدى موافقة الفلسفة الهجاية لتفكير علماء الاسلام ، فهما معا يرميان ان اتحاد الوجود والعدم في الصيرورة .

وبناء على هذا التحليل فالفلسفة الاسلامية في مواجهة الهيجلية ترى ن اتحاد الوجود والعدم في الصيرورة ، كما يرى هيجل ويتنافى مع مبدا اجتماع نقيضه وهو (ديالكتيك هيجل) ، فالفلسفة الاسلامية تنفي مبدا اجتماع النقيضين خارج الذهن . وربما يرجع ذلك الى عدم وحدة ادراك المفهوم الواقعي الخارجي للمسئلة لاعتبارات مفهوم معنى العدم والوجود في الثقافتين .

غير ان الديالكتيك الهيجلي ينفي مبدا اجتماع النقيضين ، والديالكتيك الاسلامي يجمع بينهما في الصيرورة ، وهذا ناتج عن عدم ادراك او وحدة ادراك المفهوم الخارجي للمشكلة والاعتبارات اللغوية لتفسير العدم .

واذا الديالكتيك الهيجلي واضح في فلسفة مثالية تتخذ العقل المثال المطلق في الطبيعة والذهن، وصورة واقعية تستند الى التناقض ، ولهذا فهيجل من الواقع لا يرفض مبدا اجتماع الضدين بصيرورة ذاتية ، ولذلك فلا تباين بين فلسفته والفلسفة الاسلامية .

فالفلاسفة الغربيون ينطلقون من المثالية المطلقة ، والامام الرازي من التعادلية بين المثالية والحسية والموضوعية ، فاذا اتفقا في النهاية فقد اختلفا في المطلق .

وتنتهي الصيرورة والتغيير الى التولد ، اي نتائج الصيرورة ويحلل فلاسفة الاسلام أهداف التولد الجبري والاختياري ، والحرية والكسب وهدفية الحياة .

الزمان والتطور :

ويقول صدر الدين 1643 (وهو من فلاسفة المسلمين ومن شراح فلسفة ابن سينا ومؤلف كتاب (الواردات القلبية) باضافة الزمان اي البعد الرابع معبرا به بين الابتداء والآنية ، فالآن هو بداية الوجود، ومعنى ذلك ان الوجود ممتد ، وذو بعد مطاط يتطابق مع الزماني ولكنه محدود وليس بلاحد . وهذا البعد يشبه فلسفيا الى حد بعيد مذهب النسبية الذي يرى ان الفضاء رباعي الابعاد ، والبعد الرابع هو الزمان فلا يمكن ولا يتأتى قياس حركة من الحركات بالطول والعرض والعمق دون ان تضيف اليها بعد الزمان ، فالآن هو نقطة فرضية اعتبارية في الزمان مثل النقطة الهندسية التي يبتدع بها المكان . يقول في كتاب الاسفار :

الحركة والزمان من الامور الضعيفة في الوجود التي وجودها يتشابك مع عدمها ؛ ويزيد في موضوع آخر : ان المتغير يربط بالثابت ، فالثابت للتغير والتجديد ، ويدل على هذا الفهم قوله تعالى في سورة هود : «وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة»، ويفسر ذلك بان الشيء المتصل وجوده بعدمه يضم بقاؤه الفناء لان أسباب موجبات حفظة وبقاء الانسان حتما اسباب وموجبات هلاكه وفنائه . واذا فهناك اتصال الوجود والعدم في كل شيء ولذلك يجب اعتبار نشاط الذهن حول مفهوم العدم .

فامتداد الزمان الذي ادخله (صدر الدين) كبعد رابع هو امتداد للموجودات التدريجية من القوة الى الفعل ، ومن الطاقة الى البروز ، ولو أن راي النظام في الجوهر الفرد الذي قال انه يصل الى نقطة التجزء التام اي بصريح العبارة يصل الى نقطة يصبح فيها (طاقة) لكان للمسلمين السبق في نظرية النسبية وزيادة في التدليل على مفهوم الزمان ، فان الشيء غير الموجود هو الذي يكون في الحال ، اما الماضي فقد كان ، واما المستقبل فهو امر وسيكون. ولو لاحظنا فكرة الزمان في الفكر العربي لوجدنا الفعل قد يكون ماضيا او مضارعا (حاليا) ، اما المستقبل فهو الامر اي الخلق .

ولعل المثالية في فهم التطور لم تستجب للعقل التجريبي في فلسفة التطور الغربية ، فجاء سينسر ليعيدها الى الخط الاسلامي المشبع بالتجربة . ولذا فقد فسر التطور بأنه تناسق بين عملين (التفريق والتجميع) فكل كيان طبيعي ينقسم ، وكل منقسم ينفصل ثم يعود ليجتمع بمنظومة من الروابط الجدية التي تجعل منه وحدة جديدة فتكون اكثر تعقيدا ولكنها جزء من الكليات . وهذا هو قانون التطور الذي بسطه في كتابه (الفلسفة التاليفية) .

الحرية والتطور :

وبناء على مبدا الانفصال في التطور فانه كلما تطور المجتمع انفصل الفرد عن الكيان الاجتماعي وزادت حريته . وهي نفس فكرة الغزالي : « كلما اتسعت معارف الانسان اتسعت حريته » .

وربما نتتهي الى القول ان الانسان في حياته الذرية كوحدة ، وفي حياته الاجتماعية يعمل وفق قانون الطبيعة ، دون تدخل ارادته واحيانا بتدخلها فيكون طورا مسيرا وطورا مخيرا ، فاذا جهل قوانين الطبيعة كان مسيرا ، وكلما تحكم فيها كان مخيرا .

والتطور قانون طبيعي ، والتغير يجب ان يخضع لدراسة شمولية ليكون في طريق التطور دون ان يكون سبب النكسات .

ولاحظ فيه فلاسفة الغرب الخلل في بعض المقدمات والبراهين في المنطق ، واخيرا لم تجد فيه الفلسفة المثالية ما تؤيد به فلسفتها المبنية على ضرورة التناقض بين كل شيء حتى يمكن استمرار التغير .

المنطق الاسلامي :

لاحظ فلاسفة الغرب ان منطق ارسطو صوريا اي هندسة ثابتة فهو صورة جامدة ، ومنطق هيجل متتابع الصور ، الاول صورة فوتغرافية ، والثاني شريط متتابع الاحداث ، وهو مذهب تطويري يعتمد التضاد والتناقض ، وقد سبقه الى ذلك كل من النظام : الجبائي والاشعري والغزالي وابن عربي والرازي والطوسي . وقد انتقلت فلسفة هؤلاء الى الغرب عن طريق سينون ومنها الى هريجل ، فالمنطق الاسلامي له اسس خاصة في حركة التفكير وهدف الاستنتاج .

الأستاذ : حسن السائح

دور المغرب في إثراء الفكر الإسلامي يتجدد

للأستاذ محمد العربي الزكاري

كل شعب له خصائصه الوراثية، ومميزاته الفكرية، وطابعه الحضاري الخاص، وشعبنا المتوفر على مزايا نبيلة وخصائص رفيعة جعلت منه شعبا لا يتلون في سلوكه ولا يزن الأوضاع على اختلاف مستوياتها بميزان المنافع الذاتية، وإنما يكفيه الاقتناع بعدالة قضية ما لينفدفع تلقائيا لخدمتها والتفاني في نصرتها والتسامي في تبنيها والدفاع عنها والتضحية في سبيلها دون اعوجاج والتواء ومن غير مداهنة وافتراء.

ومن منطلق هذا السلوك الرفيع نلاحظ أن شعبنا بمجرد اعتناقه لعقيدة الإسلام، وإيمانه بوحدانية الله وصدق الرسالة المحمدية، تحول إلى مبشر بالفكر الإسلامي وداعية من دعاته، لا رغبة في مكسب ولا طمعا في مغنم، أو تطلعا لزعامة، وإنما هي رسالة نبيلة طوق بها جيده والتزمها تلقائيا، خدمة لدينه ورغبة في انتشاره وتطلعا لإنقاذ التائهين في صحراء العقائد الضالة من أبناء البشر.

وثبت تاريخيا أن الفكر الإسلامي وجد في ربوع المغرب الساحة الخصبة للغرس والازدهار والنماء والابتكار، واكتشف في قلوب المغاربة التربة البكر الصالحة للبذر والنمو والانتشار، ومن هنا كان سلفنا رضوان الله عليهم بي موعد مع الإشعاع الإسلامي، ومؤهلين فكريا ونفسيا للتجاوب مع الامتداد الروحي لعقيدة التوحيد في صفائها ونقائها، فوجهوا طاقاتهم الفكرية وملكاتهم العقلية وقدراتهم الخلاقة في الاتجاه الصحيح بشكل ملفت للأنظار، وترجموا وعيهم الديني العميق وإيمانهم الصادق، بتعدد معاقل البحث العلمي وتنوع مراكز الهداية الإسلامية، فأينعت شجرة الفكر الإسلامي عندنا وامتدت فروع هذه الدوحة العملاقة إلى كل مدينة وقرية، وتفيأ ظلالها القريب والبعيد، وانتشرت أغصانها إلى ما وراء الحدود...

وكنتيجة طبيعية لهذه النهضة الدينية والعلمية المباركة أبدعت العبقرية المغربية في ميدان التأليف إبداعا عظيما، وساهم الفكر المغربي بقسط وافر في إثراء الحركة العلمية بسيل من المؤلفات الرفيعة التي تزخر بها خزائننا العامة ومكتباتنا الخاصة ما بين مطبوع ومخطوط، والتي لها ـ بشهادة رواد البحث والمعرفة ـ وزنها الثقيل في حقل الثقافة العامة والميدان العلمي الواسع.

ويكفينا فخرا واعتزازا أن جامعة القرويين كانت كعبة كل راغب في الارتشاف من ينابيع المعرفة الصافية، وحلقاتها مجلسا للطلاب من جميع أصقاع الدنيا للتلمذة على جهابذة العلم وفطاحل الثقافة من أبناء أمتنا الذين ساهموا بأكبر نصيب في إثراء العلوم على اختلاف أنواعها وتعدد موضوعاتها وتشعب اختصاصاتها، وتزعموا الحركة

الفكرية عن جدارة واستحقاق، وتصدروا طليعة رواد المعرفة دون منازع، مما ساعد على بقاء الفكر الإسلامي عندنا نقيا من الدس والتزوير والتحريف، والتشويه والتدجيل والتخريف.

وللحقيقة والتاريخ نذكر أن من هذه المنارة العلمية الشاهقة امتد إشعاع الفكر الإسلامي في إطار المذهب المالكي إلى افريقيا وغيرها، بفضل ما بذله علماؤنا رحمهم الله وأجزل ثوابهم من تضحيات شخصية تعتبر مثالا حيا لنكران الذات ونموذجا مجسما للزهد بالمعنى الواسع والعميق للزهد في متاع الدنيا، حيث كان دافعهم الأساسي وهدفهم الأول يتبلور في هيامهم بأداء الأمانة العلمية والدينية، وينحصر في رغبتهم العريضة في ادخار الأجر والثواب كزاد ليوم المعاد، وتكريما لهذه المثالية وتنويها بهؤلاء الزهاد، أرى أن هؤلاء الرواد الأفاضل أول من تخلع عليهم شارة «الجندي المجهول» الذي يؤدي مهماته السامية والنبيلة بعيدا عن الأضواء...

وجدير بالملاحظة هنا أن إشعاع الفكر الإسلامي الذي امتد خارج حدودنا الجغرافية لم يقتصر على دور العلماء وحدهم، وإنما ساهم فيه المواطن المغربي العادي أثناء جولاته التجارية ورحلاته الاستطلاعية عبر مناطق نائية، بفضل استقامته وحسن سلوكه وتفانيه في أداء شعائره الدينية في حله وترحاله، مما يؤكد أن مواطنينا أخذوا العهد على أنفسهم التبشير بالإسلام والحضارة الإسلامية كواجب مقدس وبند من ميثاقهم الذي التزموه تلقائيا مع ضمائرهم لهداية الضالين إلى صراط الله المستقيم، ومن هنا يتضح أن خدمة الإسلام والفكر الديني إرث مشترك بين علمائنا ومن تخرج على أيديهم من طلاب المعرفة المختصين والطبقات الشعبية التي اقتبست من دروسهم الوعظية مزايا السلوك الفردي الرفيع الذي أهلهم ليكونوا بحق وصدق رسلا للإسلام وسفراءه بطريقة عفوية وتلقائية.

وامتدادا لدور جامعة القرويين وغيرها من المساجد، لابد من الإشارة إلى حادثة تؤكد ما أسلفنا من حقائق، ذلك أن الاستعمار الأجنبي عندما تسرب داخل حدودنا حاول التظاهر باحترامه لعقائدنا الدينية، وتعمد تغطية أهدافه الجهنمية بالبعد عما يثير غضب جماهيرنا في هذا المجال، حتى إذا ما صور له خياله المريض أنه تمكن من تخدير شعبنا واستطاع أن يحكم قبضته الحديدية عليه، تطاول على مقدساتنا وعقائدنا ولغة قرآننا بإصدار مرسومه البربري الشهير، فكان هذا الإجراء بداية النهاية لوجوده في مغربنا بفضل الإيمان الديني الذي أرساه سلفنا في أعماق ووجدان هذا الشعب الصادق في عقيدته الإسلامية إلى أبعد الحدود، وعندي أن الفضل في الانتفاضة العارمة ضد الاستعمار ومخططه الخطير يعود بالأصالة إلى الكراسي العلمية المنتشرة في ربوع المملكة المغربية شرقا وغربا شمالا وجنوبا، ففي ساحات المساجد انعقدت التجمعات الشعبية ومن رحابها انطلقت المظاهرات الهادرة ضد هذا المخطط الصليبي الذي كان يهدف القضاء على الروح الدينية في المغرب باعتباره قلعة خطيرة من قلاع الإسلام التي تقف حجر عثرة في وجه المسيحية.

ومن هنا ندرك أن انطلاق الوعي الإسلامي لم يكن إلا من المسجد، ولم ينبع إلا من الكراسي العلمية التي يتجمع حولها المثقفون، والدروس الوعظية والإرشادية التي تتحلق في دائرتها الطبقات الشعبية للتزود بما يقوي إيمانها، فالمسجد في تاريخ الإسلام اضطلع برسالة سامية منذ أن أرسى قواعده سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، باعتباره مقرا لعبادة الله، وتكوين الدعاة إلى الفضيلة، واستقبال الوفود، وإبرام المعاهدات، والتخطيط لمواجهة ما يستجد من أحداث، وانطلاق جحافل المجاهدين في سبيل الله لحماية الدعوة الإسلامية من كيد المنافقين والمشركين وعبدة الطاغوت، وصدق الله العظيم الذي يقول في كتابه الحكيم : ﴿**إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾ (1).

ونؤكد هنا أن مساجدنا ودروس علمائنا كانت امتدادا للتخطيط النبوي، وتمشيا مع النهج المحمدي الذي ابتكره منقذ البشرية من الضلال عليه الصلاة والسلام، فمساجدنا وكراسي علمائنا ومنابر وعاظنا أعطت ولله الحمد، نتائج باهرة من أهمها أن الروح الوطنية نمت وترعرعت في

---

1) سورة التوبة. (الآية 18).

المساجد، والوعي الديني في أوساط جماهيرنا استمد جذوره من منابره، ورواد الحركة الوطنية تكونوا في حلقات تلك الدروس على أيدي علمائنا رحمة الله عليهم، ومن المؤسف أن أدوار المسجد تعطلت في مجملها فترة من الزمن، وظلت مقتصرة على العبادة فقط، لأسباب وعوامل عديدة لا فائدة من الإشارة إليها ما دمنا في مجال توضيح الصورة المشرقة للمسجد.

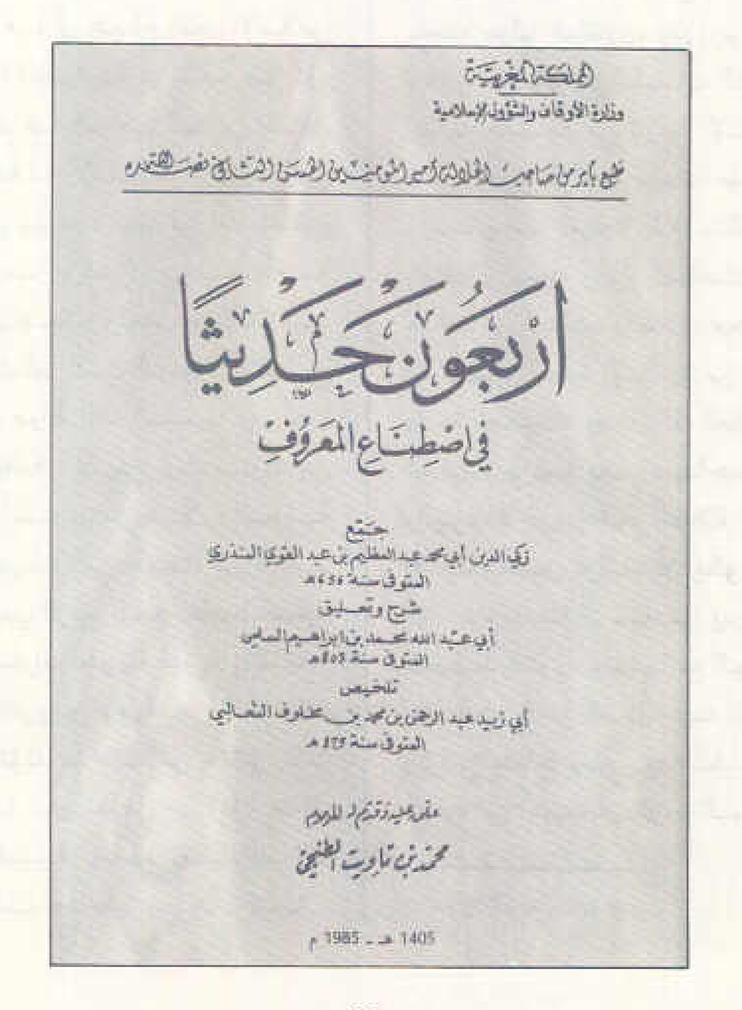
والذي يهمنا بالأصالة هو أن يعود المسجد إلى الاضطلاع برسالته من جديد، ويستعيد دوره الطلائعي لإثراء الفكر الإسلامي، ويشق طريقه في الحياة العامة للمواطنين والمواطنات، ومن تباشير إرساء قواعد هذه التطلعات تأسيس دار الحديث الحسنية التي أناط بها أمير المؤمنين جلالة **الحسن الثاني** مهمة علمية سامية، وتأتي بعدها التعليمات المولوية بإحداث المجلس العلمي الأعلى مشفوعة بتأسيس المجالس العلمية الإقليمية، وتتوج بإحياء الكراسي العلمية في أهم مساجد المملكة كمنارات مضيئة نعتبرها بحق إرهاصات لمستقبل علمي وديني يذكرنا بماضينا الزاهر، ونعدها ظاهرة صحية وإجراء عمليا لتدعيم الصحوة الإسلامية العامة وتطعيمها بالروافد التي تعززها وتناصرها وتتولى شد أزرها في الداخل والخارج.

وفي تصوري أنها خطوات مباركة سوف لا تكون بحول الله ومرده إلا امتدادا لإثراء الفكر الإسلامي وإحياء للدور الحضاري والعلمي والديني الذي يعتز به المغرب كطابعه المميز ورصيده الضخم، ومن حقنا أن نعده «عهدا جديدا» من المغرب بأنه سيظل وفيا للإسلام وملتزما بالدفاع عنه كل الالتزام، امتثالا لقول الله تعالى : **﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين﴾** (2).

محمد العربي الزكاري

---

2) سورة فصلت. (الآية 33).


المملكة المغربية
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني نصره الله

أربعون حديثا
في اصطناع المعروف

جمع
زكي الدين أبي محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري
المتوفى سنة [illegible] هـ
شرح وتعليق
أبي عبد الله محمد بن إبراهيم السلمي
المتوفى سنة [illegible] هـ
تلخيص
أبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي
المتوفى سنة [illegible] هـ

علق عليه وقدم له المرحوم
محمد بن تاويت الطنجي

1405 هـ - 1985 م

من روائع مخطوطات
خزانة القرويين

كتاب الروض المريع في صناعة البديع

تأليف أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي
المعروف بابن البناء المتوفى سنة 721 هـ

(2)

للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ

لقد تبين لنا مما سبق أن ابن البناء في كتابه هذا قد فرق بين البيان وبين صناعة البديع. ذلك لأن البيان لدني وهو متصل بالكليات رغم اختلاف موضوعاتها ولأن الصناعة وسيلة من وسائل التعبير التي يفصح بها المتكلم عن البيان الذي تفيض به القرائح والتي يظهر بها ما في نفسه بطرق مختلفة.

وقد لاحظ أن صلب المعاني والمقاصد يجب أن يكون مفهوماً وأن المصطلحات التي استعملت لذلك ينبغي أن تكون واضحة لأن الدلالة في حد ذاتها ليست محصورة باللفظ الخارجي وإنما هي محصورة بالقصد الذي يشرح به الواضع لفظه بحيث إذا استطعت أن تجعل للبديع مصطلحات لها مفهوم مشترك بين قصدك وبين الالتقاط منك فإن ذلك لا يضر الجوهر مادام التواصل قد حصل بينك وبين من يسمعك ولهذا فإننا قد نجد المعنى الواحد قد يعبر عنه بمصطلحات مختلفة لكن باعتبارات مختلفة وهذا الاختلاف اللفظي لا يؤثر في المقاصد إذا اتضحت الدلالات.

وعلى هذا الأساس بنى المؤلف طريقته واختصر مجال كلياته وأدمج كثيرا من الأساليب في عموميات مشتركة قرب بها هاته الصناعة وجعلها في متناول علماء النقد ورجال البلاغة.

ولقد سبق لنا أنه ربط مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود في مجموعات أربعة هي الخروج من شيء إلى شيء وتشبيه شيء بشيء وتبديل شيء بشيء وتفصيل شيء بشيء.

وسنخصص ما ننشره داخل هذا العدد للقسم الأول من هذه المجموعات المتعلق بالخروج من شيء إلى شيء :

قال ابن البناء : (ص 6).

«فأما الخروج من شيء إلى شيء فقد يخرج من وصف شيء إلى وصف شيء آخر إمّا تصريحاً ويسمى الخروج قال الله تعالى : ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، (سورة النمل

23 ـ 24 ـ 25 ـ 26) وإمَّا تَضْميناً وَيَتَمَثَّل الإدْمَاج كقول الشاعر :

أبى دهرنــا إسعــافنــا في نفـوسنــا
وأسعفنــــــا فيمن نحب ونكرم
فقلنــا لــه نعمــاك فيهم أتمهــا
ودع أمرنــــا إن المهم المقـــدم

واكتفى هنا بالمثال دون أن يوضح صورة الإدماج اعتماداً على ذكاء القارئ وعلى شهرة هذا المصطلح بين البلاغيين الذين يذكرون أن الشاعر كان يهنئ في البيتين أحد أحبائه وخرج من تلك التهنئة ليبرز حالته وليبدي شكواه وليجعل هذه الشكوى مقصداً من المقاصد التي أدمجها في كلامه إدماجاً يوهم فيه المستمع أنه غير مقصود (انظر خزانة الأدب للحموي ص 457).

وبعد ذلك تحدث عن أنواع الخروج وعن المصطلحات المتصلة به وحاول أن يخلق انسجاماً بين صفات متقاربة وأن يجعل منها وحدة حسب منظوره وتصوراته سواء كانت تلك المصطلحات موافقة لرأي الجمهور أو كانت مخالفة لهم.

فمن المصطلحات التي أدخلها في الخروج المصطلحات الآتية وتنحصر فيما يأتي :

أولا ـ التفريع :

وهو الخروج من وصف لغيره مع جعل أحد الوصفين أهم من الآخر كقول القائل كلامه أخدع من لطفه ووعده أكذب من طيفه (1).

ومن المعلوم أن هذا المصطلح يطلق عند بعض البديعيين على شكل آخر من التعبير وصفه ابن حجة الحموي في كتابه خزانة الأدب وجعله أسلوبا خاصا بالكلام الذي يبدأ بما النافية خاصة دون غيرها ويكون ذلك النفي متسلطا على اسم موصوف بأحسن أوصافه جمالا أو قبحا ثم يتفرع عن هذا الاسم جملة من جار ومجرور متعلقة به تعلق مدح أو هجاء أو فخر أو نسيب أو غير ذلك ثم يخبر عن ذلك الاسم بأفعل التفضيل فتحصل المساواة بين الاسم المجرور بمن وبين الاسم الداخل عليه ما النافية لأن حرف النفي قد نفى الأفضلية فتبقى المساواة.

ومثل لذلك بقول الأعشى :

مــا روضــة من ريــاض الحسن معشبــة
غنــاء جــاد عليهــا مسبــل هطــل
يضــاحــك الــزهر منهــا كــوكب شرق
مـــــؤزر بعميم النبت مكتهــــل
يــومــا بــأطيب منهــا طيب رائحــة
ولا بـــأحسن منهــا إذ دنــا الأصــل

وقد يجيء الفرع والأصل في بيت واحد كقول أبي تمام :

مــا ربــع ميــة معمــورا يطيف بــه
غيــلان أبهى ربى من ربعهــا الخرب
ولا الخـــدود وإن أدمين من خجــل
أشهى إلى نــاظري من خــدهــا الترب

فذكر في البيت الأول الأصل والفرع وكذلك في البيت الثاني (خزانة الأدب للجموي ص 414).

ثانيا ـ الاستطراد :

وهو الخروج لشيء مقصود بصورة أنه غير مقصود ثم بعد ذلك يعود المتكلم إلى الشيء الأول ومثاله قول السموأل :

ونحن أنــاس لا نرى القتــل سبــة
إذا مـــا رأتـــه عـــامر وسلــول
يقرب حب المــوت آجــالنــا لنــا
وتكرهـــه آجــــالهم فتطــول

فقول الشاعر إذا ما رأته عامر وسلول استطراد ولوضوحه لم يشر إليه ابن البناء وإنما اكتفى بالاستدلال فقط في حين نرى بعض الكتب التعليميــة لا تكتفي بالإشارة وإنما تذكر المقصود مثل ما فعل أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين أثناء تعرضا للبيتين المذكورين (ص 399).

---

1) في الأصل كلامه أخدع من لقظه ووعده أكذب من طيفه وقد حورنا ذلك إلى ما ذكرناه ليكون الإنسجام حاصلا بين الصورتين.

ثالثا ـ التجريد :

وهو الخروج من إثبات الشيء إلى نفيه بالقوة أو بالفعل كما قال تعالى : ﴿**فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾ (المدثر 14).

قال المؤلف : «معناه لا شفاعة لهم فتنفعهم فليس المراد إثبات شفاعة غير نافعة بل نفي الشفاعة لهم ومن المعلوم أن هذا المصطلح لا يطلق على هذاالمعنى في أغلب كتب البلاغيين.

رابعا ـ الاستدراك : (2)

وهو الخروج من نفي الشيء إلى إثباته هو وغيره مبالغة ومثل له بقول الشاعر :

قف بالديار التي لم يعفها القدم
بلى، وغيرها الأرواح والديم

وهذا الخروج هو المعروف عند بعض علماء البديع بالرجوع وهؤلاء يطلقون الاستدراك على شيء آخر يتعلق بتوكيد ما يخبر به المتكلم وبتقرير ما يأتي به وذلك كقول الشاعر :

وإخوان تخذتهم دروعا
فكانوها ولكن للاعادي
وخلتهم سهاما صائبات
فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صفت منا قلوب
لقد صدقوا ولكن من ودادي

خامسا ـ الاعتراض :

وهو الخروج في أثناء الكلام إلى شيء يعن له في قوله ومثل له بقول الشاعر :

ألا زعمت بنو عبس بأني
ـ ألا كذبت ـ كبير السن فأني

وقد ورد هذا البيت عند المؤلف مخالفا لما هو عليه في كتاب الصناعتين فقد نسبه أبو هلال العسكري للنابغة الجعدي ورواه على الشكل الآتي : (ص 394).

ألا زعمت بنو سعد بأني
ـ ألا كذبوا ـ كبير السن فأني

سادسا ـ الالتفات :

ويقال له خطاب التلون وهو خروج من حضور إلى غيبة أو عكسه كقول امرئ القيس بن عابس الكندي أحد الصحابة :

تطاول ليلك بالاثمد
ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة
كليلة ذي العابر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني
وخبرته عن بني الأسود

ولقد أشار بطرس في كتابه أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام إلى أن هذه الأبيات قد تنسب خطأ إلى امرئ القيس بن حجر الكندي مع أنها لامرئ القيس بن عابس واعتمد في ذلك على كتاب معاهد التنصيص على شواهد التلخيص تأليف الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي المتوفى سنة 963 هجرية.

سابعا ـ الاعتماد :

وهو الخروج في آخر الكلام إلى معنى لم يبن القول عليه ومثاله قول الشاعر :

متى كان الخيام بذي طلوح
سقيت الغيث أيتها الخيام

وهكذا جمع ابن البناء في باب الخروج بين هذه المصطلحات وربط بعضها ببعض وقرب بين معانيها ومقاصدها.

ولعل الذي يتأمل هذه الطريقة فسيجد أنها بنيت على أساس تعليمي يهدف إلى خلق ترابط بين الأشياء المتقاربة ليسهل حفظها واسترجاعها معتمداً في ذلك على

---

2) مكان هذا المصطلح كان الأصل بياضا وقد أثبتناه من نسخة أخرى كانت بيد الأستاذ رضوان ابن شقرون الذي قدم رسالة جامعية حول هذا الكتاب ولقد يسرنا له الاطلاع على نسخة القرويين والاطلاع على بحثنا هذا قبل نشره.

أحسن الدلالات وأقربها إلى الذوق السليم والاستشهاد القويم.

وبهذه المصطلحات أنهى الحديث عن المجموعة الأولى المدمجة في الخروج من شيء إلى شيء لينتقل بعدها إلى المجموعة الثانية المتعلقة بتشبيه شيء بشيء وهي التي سنجعلها مدار مقالنا المقبل إن شاء الله وسنساير فيها المؤلف في خطواته لنعرف من خلال ذلك قيمة منهاجه في النقد الأدبي وطريقة اختياره لمصطلحاته المستعملة التي ظلت إلى الآن تصور مجهوده الذي بذله من أجل وضع كتاب في صناعة البديع يسلك مسلكا عقليا غير متنافر مع الذوق السليم ولا خارج عن حدود الفن الجميل.

- 3 -

لقد أوضحنا فيما سبق منهجية المؤلف في تحديد قواعد صناعة البديع، وذكرنا أنه جمع كثيرا من المصطلحات في كليات تسهل على الأديب طريقة التعبير وتعينه على انتقاء أجمل الأساليب. ولقد استطاع أن يربط مطابقة الكلام لمقتضى الحال بأمور أربعة هي الخروج من شيء إلى شيء وتشبيه شيء بشيء وإبدال شيء بشيء وتفصيل شيء بشيء قدمنا ما يتعلق بالأمر الأول ونتحدث الآن عن **الأمر الثاني وهو تشبيه شيء بشيء.**

بين المؤلف عند الحديث عن هذه النقطة أن وجه الشبه يجب أن يكون واضحا في المشبه به وأن يكون متميزا لشرفه أو سبقه أو لعلة من العلل البلاغية وذكر أن هذا الاعتبار هو الذي يجري عليه مدار هذا الأسلوب ولذلك إذا ما تخيل الشعراء أو الكتاب أن صفة من الصفات تصبح راجحة في ممدوح ما مثلا فإنهم بهذا الاعتبار يباح لهم أن يستعملوا التشبيه العكسي وهو المعروف عند البلاغيين بالتشبيه المقلوب ومثل لذلك بقول الشاعر :

في طلعة الشمس شيء من محاسنها
وفي القضيب نصيب من تثنيها

وهذا البيت الذي استدل به متداول في كتب الأدب وهو للبحتري إلا أنه يروى بشكل آخر فقد جاء صدره في الديوان على الرواية التالية :

في حمرة الورد شيء من تلهبها
وفي القضيب نصيب من تثنيها

وبعد ذلك جره الاستطراد إلى التمييز بين الحكمة والشعر وقرر أن الغلو والكذب الذي يجوز في التعبير الشعري لا يسمح به في الكلام العقلي المنظم البعيد عن المغالاة.

والسبب في ذلك مرجعه إلى ربط الشعر بالمحاكاة في التشبيه. ولهذا لم يكن للشاعر الحق في أن يتجاوز حدوده ويخترع مما ليس بموجود لأنه بعمله هذا يخرج من حدود المحاكاة إلى الاختراع والخلق.

وانطلاقا من هذه العلة عابوا على الشاعر الذي يقول : (ص 9).

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

وقالوا إن الصواب يكون في تبديل هذا البيت بالصيغة التالية :

فأمطرت بردا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالدرر

من حيث إن إمطار اللؤلؤ غير مشاهد ولا معروف فهو قد حاكى الدمع في انسكابه على خدها بشيء غير موجود ولا معلوم إلا من عنده.

وأشار بعد ذلك إلى القول الذي يرى أن للشعراء الحق في الجموح بخيالهم إلى محاكاة الموجود أو إلى اختراع الصور لأن القوة الشعرية تجعلهم قادرين على ذلك.

وبعد عرض الرأيين تدخل للفصل بينهما فقال : «والقول الأول أنسب لصناعة الشعر والثاني أنسب لمعناه».

ثم تحدث عن أنواع التشبيه فذكر أنه قد يكون بغير حرف فيدخل في باب تبديل شيء بشيء وقد يكون بحرف وهو حينئذ قد يكون مفردا وقد يكون مركبا.

فالمفرد كقول الناظم :

أرى الليل يمضي والنجوم كأنها
عيون الندامى حين مالت إلى الغمض

وأما المركب فكقول الشاعر :

رأيت الحميا في الزجاج بكفه
فشبهتها بالشمس في البدر في البحر

وكقول الآخر :

كـأن قلـوب الطير رطبـا ويـابسـا

لـدى وكرهـا العنـاب والحشف البـالي

وقد لاحظ أن هذا التشبيـه قـد يخضع للتنـاسب والترابط نظرا لاشتباه النسب التي يقوم عليها.

ولم يكتف بتـوازي النسب المـوجـودة في التشبيـه المركب بل ربط بهذا الموضوع كل أنواع التناسب البديعية التي يـدمجها البـلاغيـون في المقـابلـة وفي اللف والنشر المرتب وغير المرتب وكان في هـذا الموضوع معتمـدا على الجـانب العقلي وعلى المـوازنـات المنطقيـة والمعـادلات المعنـويـة المنسجمة مع ثقـافتـه العلميـة ومعرفتـه بعنـاصر التقـابل الريـاضي وحرص مـا أمكنـه أن يـأتي بـالأمثلـة الموضحة التي تبين أغراضـه وتشرح مقـاصده وقـد نبـه في كثير من المناسبات أن الهـدف البلاغي هو ربط المقـاصد بالألفاظ الموحية بها سواء كانت تلك الألفاظ مصطلحات عـامة أو كـانت موضوعة وضعا جديدا يتلاءم مع سياق الكلام.

وهذا مثل للتشبيه المركب المتناسب بقول الله تعالى في سورة الجمعة (5) : ﴿مَثَلُ الـذين حُمِّلُوا التوراةَ ثم لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمار يَحْمل أسفاراً﴾ وقوله تعالى في سورة العنكبوت (41) : ﴿ٱلذين اتَّخَذُوا من دون الله أولياءَ كَمَثَلِ العنكبوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً﴾.

وأما ما يتعلق بـالمـدمجـات في التنـاسب فقد أدخل فيها المقـابلـة وجعلها تشمل المقـابلـة المعهودة عنـد علمـاء البديع كمـا تشمل مـا يعرف عنـدهم بـاللف والنشر المرتب. كما أدخل فيها اللف والنشر العكسي وسماه برد الأعجاز على الصدور كما أدخل فيها اللف المختلط وسماه بـاللف دون أي وصف آخر لأنـــه لا يعتبر المرتب والعكسي مصطلحين مستقلين بذاتهمـا في تصوره. إلا أنـه في الأمثلـة استشهـد ببعض ما يستشهدون به فقد استدل للمقـابلـة كمـا تصورهـا بقول الله تعالى في سورة النبأ (10 ـ 11) ﴿وجَعَلنا الليلَ لِبَاسـاً وَجَعَلْنَـا النَّهَـارَ مَعَاشـاً﴾ وبقول الله تعـالى في سـورة القصص (73) : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِـه جَعَـل لَكُم اللَّيْـلَ والنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ولِتَبْتَغُوا مَنْ فَضْلِـه﴾ ومثل لرد الأعجاز على الصدور بقول الله تعالى في سورة آل عمران : (106 ـ 107) ﴿يَوْمَ تَبْيَضّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمـانِكُم فَـذُوقُوا العَـذَابَ بِمَـا كُنْتُم تَكْفُرون، وَأَمَّـا الَّـذينَ ابيضت وُجُوهُهُم فَفِي رَحْمَةِ الله، هُمْ فِيهَا خالِدُون﴾.

ومثـل للف بقولـه تعـالى في سـورة البقرة : (214) ﴿وَزُلْزِلُـوا حَتَّى يقـولُ الرسـولُ والـذينَ آمنـوا مَعَـهُ متى نَصْرُ الله ؟ ألا إن نَصْرَ الله قريب﴾.

وقد بين بعد ذكر هاته الآيـة الأخيرة العلاقـة النسبيـة المـوجـودة فيهـا وهي دقيقـة ينبغي تـأملهـا وربط مقـالهـا بمقامها قال المؤلف :

«فنسبة قولـه تعـالى متى نصر الله إلى قولـه والـذين آمنوا معه كنسبة قوله ألا إن نصر الله قريب إلى قولـه حتى يقول الرسول، فـالـذين آمنوا يقولون متى نصر اللـه والرسول يقول ألا إن نصر الله قريب لأن القولين المتباينين يصدران عن مقامين متباينين».

ومعنى ذلـك أن الضجر بلغ حـدا كبيرا جعـل الـذين آمنوا يتسـاءلـون عن النصر متى يكـون فـإذا بـالرسـول ﷺ يثبتهم ويبين لهم أن النصر قريب.

ولقد حاول ابن البنـاء بهـذا التـأويل ألا يجعل الضجر يتسرب إلى الرسـول ذاتـه إلا أن أغلب المفسرين لا يرون في هذه الآية لفا لأنهم يجعلون المقولة واحدة يشترك فيهـا الرسول ومن معـه إظهـارا لهول مـا وصل إليـه المرسلون من قبل معـارضيهم ومـع ذلـك كـان النصر حليفهم لأن النصر لا يأتي إلا بعد الصبر على المشاق والمكاره.

ومن المعلوم أن هاته الآية من سورة البقرة قد جاءت بعد ذكر ما قاساه الأنبياء والذين آمنوا معهم من الشدائد في اتباع أوامر الله بحيث لوقيس ما لاقوه بالذي يقاسيـه أتبـاع سيدنا محمد ﷺ لكان ما يقاسيه هؤلاء قليلا بـالنسبـة إلى ما قاساه أولئك ولهذا جاءت الآية لتقويـة عزيمـة المومنين ولرفع همتهم ولإشعارهم بأن النصر سيكون حليفهم كما كان حليف السابقين.

ولعـل الـدافـع الـذي جعـل المفسرين يـوثرون جعـل المقولـة غير متبـاينـة هو تعظيم الأمر وتهـويلـه إلى درجـة جعلت الرسـول والـذين آمنـوا معــه يستبطئـون النصر ويتسـاءلون عنـه في حين أن ابن البنـاء لم يرد أن يـدخـل

الرسل في هذا الضجر والخوف وإنما أراد أن يجعله خاصا بالأتباع ولكل وجهته التفسيرية التي ارتآها ما دامت تلك الاختيارات لا تتنافى مع أهداف التبجيل والتعظيم (1).

ولم ينتقل المؤلف من هذه الجزئية حتى أضاف إليها شرحا وافيا يتعلق بالتناسب وما يجب أن يتوفر عليه من مشاكلة النظم وهذا هو السبب الذي دفعه إلى الحديث عن جزئية طالما تعرض لها النقاد بالتحليل والتفسير والتوجيه والتعليل وهي الجزئية المتصلة بوضع الشيء مع لفقه وما في ذلك من الجمال الحاصل من مشاكلة آخر الكلام لأوله.

وهو في هذه الجزئية لم ينسق مع المعارضين وإنما انساق مع ما يتلاءم مع مقتضى الحال ولهذا قال : «ولا بد في ترتيب المناسبة من مشاكلة النظم كما جعل امرؤ القيس الشجاعة مع الكرم لأنهما مصاحبان في الوجود وقرن بين مركوبين للذة : الجواد في الصيد والكاعب ذات الخلخال في المتعة وذلك في قوله :

كأني لم أركب جوادا للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال
ولم أسبإ الزق الروي ولم أقل
لخيلي كري كرة بعد إجفال

ولو بدل عجز كل بيت منهما بعجز الآخر لاختلت المشاكلة وفسد نظام التناسب ومن الطريف في هذه الملاحظة أننا نجد المشاكلة التي اعتد بها ابن البناء قوية جدا لارتباطها بالمفهوم الاجتماعي الذي كان يسود العرب نظرا لاعتزازهم دائما بالشجاعة والكرم وهو في هذا الاعتبار كان أقوى من الذين كانوا يظنون أن البيتين خاليان من المشاكلة في وضعهما الحالي لأنهم توهموا أن المشاكلة إنما تقع بركوب الخيل مع كرورها وبذكر الخمر مع ذكر الكواعب ولهذا قالوا لو قرئ البيتان السابقان على الشكل الآتي لكان ذلك أحسن وأشكل أي إذا قرئنا على الصيغة التالية :

كأني لم أركب جوادا ولم أقل
لخيلي كري كرة بعد إجفال
ولم أسبإ الزق الروي للذة
ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولعل القارئ للبيتين في وضعهما الثاني سيعمل بكل جهده على تنحيتهما من مسامعه ليعود مرة أخرى إلى وضعهما الأصلي الذي يمثل وضعا أدبيا رائعا اشتهر به امرؤ القيس في الأدب العربي.

ومن أدق ما استدل به المؤلف في باب التناسب قول الله تعالى في سورة طه : (118 - 119) ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى، وَإِنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾.

فهو قد عمد في تحليله إلى إبراز الجوانب البلاغية التي يمكن مراعاتها في إيضاح السر البياني المتجلي في اقتران الجوع بالعري والظمإ بالضحى وما في ذلك من الانسجام التجانسي الذي لا يظهر إلا بالتأمل العميق، بحيث لو لاحظنا ما وصف به آدم عليه السلام في هذه الآية لرأيناه سلبا للصفات المذكورة وإقرارا لنقيضها الذي هو النعمة الحاصلة بالطعام والشراب واللباس والمكن ولا تحصل هذه النعمة إلا بالاعتدال في التناول وعن طريق هذا الاعتدال حاول المؤلف أن يبين وجود التنافر في الوجود بين الجوع والظمإ وألا يجعلهما منسجمين، على خلاف ما نراه عند بعض الذين يتحدثون عن وجود الانسجام بينهما لأنه يقول إن الذي يتسبب في العطش هو الشبع لا الجوع ويرى أن ذلك هو السبب الذي أدى إلى الفصل بين الجوع والظمإ. فالاتصال إما أن يكون جمعا بين متآلفين وإما أن يكون جمعا بين متنافرين لكن لا يجمع بين متنافرين إلا لعلة ظاهرة في باب الطباق تتجلى في قصد البيان أو فيما تجد النفس في ذكرهما مجموعين من اللذة لأن اللذة في التقاء الضدين.

ومعنى هذا أن ربط الظمإ بالجوع لا يكون في التأدية البلاغية شبيها بربطه بالشبع، وخشية من أن نكون قد أخللنا بشرح نظريته فأني أرى أن الاستعانة بجزء من قوله ضرورية في هذا الباب وذلك لنستشف من كلامه

1) اقرأ نموذجا من كلام المفسرين في الكشاف للزمخشري ج 1 ص 100 وفي تفسير أبي السعود محمد بن محمد العمادي ج 1 ص 164 ليتبين لك الفرق بين تأويلهم وتأويل ابن البناء.

ثقافته المنطقية المنظمة الدالة على استيعاب ما يقول فقد ذكر بعد هذه الآية قوله : (ص 9).

﴿قرن بين الجوع والعري وجعل سلبهما مضافا لآدم وقرن بين الظما والضحا﴾. وصفه بسلبهما عنه ومتى كان السلب صفة فهو غير بسيط بل يراد به إثبات ما يناقضه فتكون العبارة عن أحد النقيضين بسلب الآخر لأنهما لا يرتفعان معا فالذي لآدم حتى لا يجوع ولا يعرى هو نعيم المأكولات ونعيم الملبوسات والذي وصف به هو اعتدال كيفياته فلا ينحرف إلى سبب العطش والضحا فهو في ذاته معتدل الكيفيات لا تضاد فيه ومنعم لا يتغير واقتران الجوع مع الظما متنافر في الوجود ألا ترى أن الظما إنما يصيب الشبعان أو من به الضحا وأما الجائع فلا يجمع في المناسبة بين المتنافرين لأنهما بمنزلة الأول والرابع والثاني والثالث الذين لا تناسب بينهما، ومتى جاء الجمع بين ضدين فلمعنى آخر : لقصد البيان فإن بضدّها تتميز الأشياء وهو المسمى طباقا، ولما تجد النفس في ذكرهما مجموعين من اللذة لأن اللذة في التقاء الضدين، ألا ترى أن من أصابه العطش فإن الري لما كان ضده كان إذا شرب الماء وجد له لذة لملاقاة العطش الري ثم لا يزال الري يستحكم والعطش يضمحل إلى كمال الري وذهاب العطش فيكف عن الشرب وإنما كانت اللذة أعظم ما كانت عند الالتقاء ثم لم تلبث أن أخذت تضعف قليلا قليلا حتى يبلغ الري فتتخلص لذته وتنقضي ولو تمادى في الشرب بعد ذلك لا نقلبت اللذة ألما، فموضع اللذة موضع الالتقاء من الضدين فتتمثل النفس ذلك في القول أو الاعتدال في اجتماعها فتستطيبه. فالطباق جمع متنافرين والمتناسبة جمع متلائمين».

وعلى ما يظهر فإن ابن البناء أحس وهو يبرز قيمة التناسب بضرورة شرحه شرحا كافيا ليميز فيه بين ما هو من التناسب الائتلافي وبين ما هو من التنافر الهادف إلى خلق اللذة في النفس عند الاستماع. ورأى أن التطرق إلى ذلك ضروري أثناء الحديث عن التناسب في التشبيه المركب.

وبذلك أنهى الحديث عن العنصر الثاني من عناصر الصناعة لينتقل بعد ذلك إلى تحليل العنصر الثالث المتعلق بإبدال شيء بشيء.

- 4 -

لقد بينا فيما سبق أن المؤلف حاول أن يفرق في كتابه هذا بين البيان وبين صناعة البديع باعتبار كون البيان إلهاما إلهيا يودعه خلقه ويبرزه فيهم متى شاء. أما صناعة البديع فهي التي تحتاج إلى التعلم والتعهد والبحث عن الجزئيات المتصلة بها.

وذكرنا أن هذه الجزئيات أدمجها ابن البناء في كليات عامة وجعلها في مجموعات مختلفة تضم كل مجموعة منها أساليب متعددة تعين على الإفصاح وتساعد على البيان.

المجموعة الأولى تتعلق بخروج شيء من شيء.
المجموعة الثانية تتعلق بتشبيه شيء بشيء.
وقد سبق لنا شرح ذلك.
المجموعة الثالثة تتعلق بإبدال شيء بشيء.
المجموعة الرابعة تتعلق بتفصيل شيء بشيء.
وسنتحدث عنهما في هذا المقال :

إن المجموعة الثالثة المتعلقة بالإبدال كانت مكثفة ويمكن لمن يمعن النظر فيها أن يجدها متضمنة لأشياء متداخلة ولأساليب متنوعة جمعها علماء البلاغة في أبواب متعددة كالتشبيه البليغ والاستعارة بقسميها وكبعض أنواع المجاز المرسل ولكن المؤلف كعادته لم يتقيد بمدلول هذه المصطلحات في كل أحوالها فهو قد استعمل بعضها استعمالا متلائما مع ما هو متداول وأدمج بعضها في باب الإبدال دون أن يدخلها في باب المصطلحات الجارية.

كان مدخله لهذا العنصر يرتبط بقاعدة عامة وهي أن الإبدال كله داخل في باب المجاز سواء كان متصلا بالتناسب أو كان متصلا بالمشابهة المجردة الخالية من التناسب.

فمن إبدال التناسب قولك الإيمان نور والكفر ظلمة لأن الذي يقول ذلك يرى نسبة الإيمان إلى الكفر كنسبة النور إلى الظلمة فيبدل اسم الأول وهو الإيمان باسم الثالث وهو النور ويبدل اسم الثاني وهو الكفر باسم الرابع وهو الظلمة.

وعن طريق هذا التناسب يكون الإبدال ولعل الذي يتذكر ما قيل في التشبيه البليغ من أقوال وهل هو داخل في باب الحقيقة أو في باب المجاز سيعلم أن المؤلف أدمجه في المجاز باعتبار كون الاستعارة لا ينفرد بها التشبيه الذي حذف أحد طرفيه بل يدمج فيها ما يعرف عند بعض علماء البلاغة بالتشبيه البليغ وهو الذي حذفت منه أداته وحذف منه وجه الشبه في آن واحد.

ولا يكتفي المؤلف بتحديد معنى الإبدال في الاستعارة وإنما يشترط أن تكون الاستعارة متضمنة لمناسبة قريبة جذابة واضحة الأهداف ولهذا قال : (ص 11) «وجميع الاستعارات إنما هي إبدالات في المناسبة... ومتى لم يكن ثم مناسبة أو كانت ولكنها بعيدة أو ركيكة أو ساقطة كانت الاستعارة فاسدة كمناخر البدر وكماء الملام وكحلواء البنين وككلب الوصال وغير ذلك مما وقع للشعراء من الاستعارات الفاسدة الباردة...

وأدخل في الإبدال ما يتعلق بالكناية وما يعرف بالإرداف والتتبيع ومن المعلوم أن الكناية والإرداف متقاربان ويتعلقان معا بذكر كلمات أو تعابير لا تكون مقصودة لذاتها وإنما يراد بها ما يلزم عنها ويفهم منها وذلك كقول امرئ القيس.

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فإن المراد بذلك أنها مرفهة لا تخدم نفسها.

وأدخل في الكناية بعض الأمثلة التي يدمجها البلاغيون في الاستعارة التمثيلية. وذلك كقولهم الصيف ضيعت اللبن فإنه عند الاستعمال لا يقصد به أصل وضعه وإنما يراد به تشبيه الحال الذي استعمل فيه عند التمثيل بالحال الأصلي الذي وضع فيه إذ الغاية من استعماله هي إشعار المخاطب بأنه فوت على نفسه فرصة وأضاع مصلحة تكاد تكون شبيهة بالفرصة التي ضاعت لمن قيل في حقها هذا الخطاب.

وتحدث بعد ذلك عن إبدال الشيء بضده كقول الله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ (الدخان 49).

كما تحدث عن إبدال الجزء بالكل والكل بالجزء وعن إبدال السبب بالمسبب وعكسه حسب ما هو معروف في باب المجاز المرسل. وأشار إلى نوع يقال له الاستثناء كقول الله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ (الحج 40).

قال ومنه قول الشاعر :

ولاعيب فيه غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب

ويدمج البلاغيون هذا البيت في إبدال المدح بما يشبه الذم ولم يتعرض المؤلف لذلك مع أنه أشار بعد هذا البيت إلى إبدال الذم بما يشبه المدح واستدل عليه بقول الله عز وجل : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ وهو نفس المثال الذي استدل به على إبدال الشيء بضده.

ومثل له أيضا بقول الشاعر :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة
ومن إساءة أهل السوء إحسانا

وأدخل في هذا الموضوع إبدال الخبر بصورة الطلب كقول الله تعالى : ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ (مريم 75) وقوله تعالى : ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ (طه 39) وقوله تعالى : ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ (مريم 38).

كما أدخل عكسه وهو إبدال الطلب بصورة الخبر كقوله تعالى : ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (البقرة 233) قال المؤلف فدلالة السياق قطعت على أنه أمر لا خبر كأنه قال ليرضع الوالدات حولين كاملين (ص 12).

وبعد ذلك تحدث عن إبدال الشيء بما كان عليه أو بما يؤول إليه مثل للنوع الأول بقول الشاعر :

إذا عاش الفتى مائتين عاما
فقد ذهب المسرة والفتاء

وللنوع الثاني بقول الله تعالى مخبرا : ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ (يوسف 36) والمقصود إنما هو العنب سماه بما يؤول إليه.

وفي هذا الباب تحدث عن إبدال التأنيث بالتذكير كقولهم إمرأة عاقر وعن إبدال التذكير بالتأنيث كرجل علامة كما تحدث عن إبدال المشتق بالمشتق منه كقولهم امرأة زور ويريدون أنها زائرة ومما ينبغي التنبيه إليه أن المؤلف يطلق على المشتق منه اسم المثال الأول.

وعند حديثه عن الإبدال تعرض لجزئية بلاغية قيمة تتعلق بكون الأمر قد يبلغ من العظم حالا لا تستطيع الكلمات الإفصاح عنه فتختار جانبا من الإبهام يكون في الدلالة أقوى من التعبير المباشر ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ (1 2) وقوله عز وجل : ﴿فغشيهم من اليمّ ما غشيهم﴾ (طه 78) وذكر أن المحاجات واللغوز والتورية داخلة في هذا الباب.

وهنا ذكر أن البلاغة تقتضي خلق التوازن بين الألفاظ والمعاني وربط الدلالات بوسائل التعبير واستغلال القرائن التابعة لسياق الكلام وهو ربط القول بالغرض المقصود وليس هناك سبيل إلى تحديد القرائن إلا العرف وما يتبعه من قوانين الأخلاق وأهداف التربية الدينية.

وبهذه الملاحظات أنهى الكلام عن المجموعة الثالثة فانتقل بعدها إلى الحديث عن المجموعة الرابعة المتعلقة بتفصيل شيء بشيء وهنا أدمج أشكالا مختلفة منها ما هو واضح في التفصيل ومنها ما هو تعبدي لا يظهر أثر تفصيله إلا في مضمونه الدلالي الذي يجعل الكلمات الموجزة حاصرة للمعاني قابلة للتأويل المختلف قادرة على التأثير الكبير.

أما التفصيل الواضح فقد جمع فيه المصطلحات الآتية :

أولا : التقسيم :

وهو إما تقسيم من جهة الحكم فقط كقول الشاعر :

لقد كان فيها للأمانة موضع
وللكف مرتاد وللعين منظر

وقول الآخر :

وصالكم هجر وحبكم قلى
وعطفكم صد وسلمكم حرب
وأنتم بحمد الله فيكم فظاظة
وكل ذلول من مرامكم صعب

وإما تقسيم من جهة الحكم والمقسم كقول الله تعالى : ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَالَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ، وَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة 200 ـ 201).

وقد نوع التقسيم إلى أشكال مختلفة وقرر أن البلاغة إنما تتجلى في صحته وحسن تجزئته وعدم تداخل عناصره بحيث لو سار الذين يؤلفون الكلام على قوانينه لكان كلامهم مقبولا ومعقولا ومثل لذلك بأمثلة حية واستدل باستدلالات واضحة قال : (ص 14).

ومن الغاية في ذلك قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم، وَأَرْجُلَكُم إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ، وَإِن كُنتُم جُنُباً فَاطَّهَّرُوا، وَإِن كُنتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنَ ٱلْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُم وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ (المائدة 6) ثم صار يشرح التقسيم الموجود هنا فقال :

«في هذه الآية خمسة أشياء :
المكلفون
والحدث
والطهارة
وما به تكون الطهارة
وكيفية العمل فيها.

فقسم المكلفين : إلى حاضر ومسافر.

وقسم الحدث : إلى الأكبر وهو الجنابة وإلى الأصغر وهو على ثلاثة أقسام : نوم وما يخرج من السبيلين معتادا ولمس النساء.

وقسم الطهارة : إلى الكبرى والصغرى والصغرى وضوء وتيمم.

وقسم ما تكون به الطهارة : إلى الماء وإلى الصعيد الطيب.

وقسم كيفية العمل في الطهارة الصغرى : إلى كيفية الوضوء وإلى كيفية التيمم وأيضا إلى غسل ومسح.

فهذه سبعة عشر قسما مذكورة بأحكامها على أبلغ ما يكون من بديع الذكر استيفاء وإيجازا.

ثانيا ـ التشكيك : كقوله تعالى : ﴿وأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات 147).

ثالثا ـ التجاهل : كقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا وَإِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ 24) إذ من المعلوم أننا على الهدى وأن الكفار في ضلال مبين ولكن الكلام أخرج مخرج الشك للتجاهل والمسامحة وقطع النزاع بأهون سعي مع أنه لا شك في الحقيقة.

رابعا ـ الاتساع :

وهو أن يكون اللفظ يحتمل معنيين فأكثر إما من جهة الوضع وإما من جهة احتمال اللفظ للإفراد والتركيب أو احتماله تركيبين مختلفين وقد مثل لكل نوع من ذلك.

فمثاله من حيث الوضع قول الناظم :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة
ورجل رمي فيها الزمان فشلت

فهو يحتمل ثلاثة معان :

المعنى الأول : أنه تمنى أن تضيع قلوصه فيجد سبيلا للمقام عندها فيكون من إقامته عندها كذي رجل صحيحة ومن ذهاب قلوصه التي تحمله وانقطاعه عن سفره لأجلها كذي رجل سقيمة ويدل عليه قبل ذلك.

فليت قلوصي عند عزة قيدت
بحبل ضعيف غر منها فضلت

فكأنه قال فليت قلوصي ضلت وليتني كنت كذي رجلين.

المعنى الثاني : أنها لما عاهدته ألا تحول عليه ثم حالت عليه وثبت هو على عهدها صار كذي رجلين رجل صحيحة وهو ثباته على العهد ورجل شلاء وهو تحولها عن عهده ويدل عليه قوله في القصيدة :

وكنا عقدنا عقدة الوصل بيننا
فلما توافقنا شددت وحلت

المعنى الثالث : أنه بين خوف ورجاء وقرب وثناء.

وأما مثاله من حيث احتمال اللفظ للإفراد والتركيب فكقول القائل : كل امرئ مستودع ماله فإن ماله يحتمل أن يكون اسما واحدا مضافا إلى الضمير وهو المال ويحتمل أن تكون ما موصولة بمعنى الذي.

وأما ما يحتمل التركيبين فكقول الله تعالى : ﴿وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (القصص 82).

فمذهب الخليل وسيبويه أن وي اسم سمي به الفعل في الخبر وهو بمعنى التعجب كأنه قال أعجب ثم قال مبتدئا كأنه لا يفلح الكافرون ومذهب أبي الحسن أن وَيْك بمعنى أعجب أنه لا يفلح الكافرون فعلق أن بما في وَيْك من معنى الفعل وجعل الكاف حرف خطاب لا محل له.

خامسا ـ التضمين :

ويراد به المعاني التي توخذ من مفهوم القول ودلالته العقلية لا من ملفوظه فتكون هناك للنظ معان يدل على بعضها بملفوظه وعلى بعضها بمفهومه وعلى بعضها بمعقوله كقوله تعالى : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء 11) يدل بملفوظه أن حظ الذكر مساو لحظ الانثيين ويفهم منه أن حظ الانثيين هو بين الاثنين بالسوية لأجل الإطلاق ويعقل منه أن للذكر مثلي حظ الأنثى وأن للأنثى مثل نصف حظ الذكر.

وبهذا القسم أنهى الحديث عن التفصيل الواضح المتجلي في إطار التقسيم والمقابلة والتحديد وانتقل بعده إلى التفصيل الذي أدمجناه في إطار التعبد وهو الذي سماه بالتوضيح وهو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك ولا يكون إلا بالأفصح والأجلى من الألفاظ وبأحسنها إبانة ومسموعا وسنتعرض لذلك وسنضيف إليه ما تولد عنه من الحديث عن الإيجاز والإطناب والمساواة وبذلك سنختم هذه السلسلة من المقالات التي خصصناها للتعريف بكتاب الروض المريع وللتعريف بمناهجه المتبع في الصناعة البديعية التي نتمنى أن نكون قد أوضحناها على قدر الإمكان.

- 5 -

لقد بينا أن المؤلف قسم التفصيل إلى قسمين :

تفصيل واضح وقد أدمج فيه التقسيم والتشكيك والتجاهل والاتساع والتضين حسب ما شرحناه آنذاك وتفصيل لا يظهر أثره إلا في مضمونه الدلالي وهو الذي أدمجناه في الإطار التعبدي والذي سماه بالتوضيح وقد تقدم لنا أنه إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك وأنه لا يكون إلا بالأفصح والاحلى من الألفاظ وأحسنها إبانة ومسموعا ويعرف هذا النوع عند الرماني بحسن البيان قال المؤلف : وهذا النوع عمود البلاغة ومادة أساليب البديع وإنما جعلته في التفصيل لأن الله سبحانه وصف كتابه بأنه بيان للناس وبأنه تبيان كل شيء وتفصيل كل شيء..

ويشير بذلك إلى قول الله تعالى في (سورة آل عمران 138) : ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وإلى قوله جل ذكره في (سورة النحل 89) :﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، وقوله في آخر (سورة يوسف 111) : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَابِ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ، وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

وقد أكثر من الاستدلالات لهذا النوع وبين ما في القرآن الكريم منه وما في الأحاديث النبوية وما في الخطب البلاغية مع إبراز النكت البلاغية المتجلية فيما استدل به.

فمن ذلك قول الله تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة 179) وعقب على هاته الآية بقوله فهذا من البيان الموجز الذي لا يقرن به شيء.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَن يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، (يس 78 ـ 79) وقد عقب على هاتين الآيتين بقوله : هذا أبلغ ما يكون من الإيجاز.

ومن ذلك قول رسول الله ﷺ، «اَلْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ» فهذا أبلغ ما يكون من الإيجاز.

ومن ذلك قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في بعض خطبه : «أيها الناس والله ما فيكم أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف من القوي حتى آخذ الحق منه».

وعلى نسق هذه الأمثلة كثرت استدلالاته واختار ما يناسب المقام من الكلام الفصيح الدال على حسن اختياره ورقة ذوقه وجمال تصوره.

وأدخل في التوضيح ما يعرف بالتفسير كقول الشاعر :

فَتىً كَالسَّحَابِ ٱلْجُونِ يُرْجَى وَيُتَّقَى
يُرَجَّى ٱلْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى ٱلصَّوَاعِقُ

وحيث إن هذا النوع من البيان قد يبنى أحيانا على التفصيل الحقيقي وقد يبنى أحيانا على الإيجاز الموحى فقد انتقل المؤلف بعده إلى الحديث عن الإيجاز والإكثار وبواعثهما وعما يستفيد الكلام منهما سواء كان الأمر يتعلق بالحذف أو بالتكرار.

إن صناعة البيان تقتضي أن يكون الكلام مفصحاً عن الأغراض بأحسن الألفاظ وأن يكون معربا عن المعاني بوسائل تعبيرية قد تحتاج إلى الإكثار والتكرار وقد تحتاج إلى الحذف والإيجاز والاختصار.

ولما كان هذا الهدف البياني لا يتحقق إلا بتحديد وسائله وبذكر نماذج جمالية تتبلور فيها طرق البيان حرص المؤلف على توضيح ذلك وتفصيله ونقل ما يمكن أن يكون مساعداً على تفسيره وتيسيره وجزأ الحديث فيه إلى قسمين : يتعلق الأول بالإيجاز ويتعلق الثاني بالإكثار.

لقد أشار في القسم الأول إلى الاكتفاء وإلى الحذف والمراد بالاكتفاء أن يكتفي بأحد المتلازمين عن الآخر فيحذف الجواب في الشرطيات كقوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (الرعد 31) كأنه قال لكان هذا. وكقوله

تعالى : ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، (التكاثر 5) كأنه قال لأقلعتم عن باطلكم أو نحو ذلك من الجواب.

قال المؤلف (18) : «ويكتفي في الأشياء المتناسبة بذكر الطرفين ويحذف الوسطان، يكتفي بالمقدم من إحدى النسبتين وبالتالي من الأخرى لأن الطرفين حاصران للوسطين ويدلان عليهما لأجل ارتباط المتناسبة. والتي يكتفي بمقدمها ويحذف تاليها هي الأولى أبداً في مشاكلة التناسب وإن كانت متأخرة في الخطاب، كما قال الله تعالى : ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾، (الأنبياء 5) فنسبة إرسال سيدنا محمد ﷺ، إلى إتيانه بآية كنسبة إرسال الأولين إلى إتيانهم بالآيات فاكتفى من المقدمة الأولى المتقدمة في الذكر بتاليها ومن الثانية بمقدمها فيجب من المشاكلة في التناسب أن تكون الثانية في الخطاب هي الأولى في التناسب لثبوت مقدمها وهو الطرف الأول وتكون الأولى في الخطاب هي الثانية في التناسب لثبوت تاليها وهو الطرف الآخر».

ولقد أكثر من الاستدلالات في باب الاكتفاء واستخدم عناصر القياس والبرهان على اختلاف أشكالها ثم انتقل بعد ذلك إلى الحذف وهو الاقتصار على عمدة الكلام وحذف ما كان يُعد فضلة أو كالفضلة لدلالة السياق عليه. ومواطنه كثيرة وأسباب استعماله متعددة ولقد استدل على ذلك ببعض الآيات القرآنية نذكر منها على سبيل المثال قول الله تعالى : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (التكاثر 3) فالواقع عليه العلم متروك كأنه قال عاقبة أمركم لأن سياق القول التهديد والوعيد.

وأما في القسم الثاني المتعلق بالإكثار فقد أشار فيه إلى مصطلحات مختلفة منها.

أولاً ـ الإظهار :

وهو كلام مؤلف من جزئين أحدهما يجري مجرى المقدمة والثاني يجري مجرى التكملة بحيث يستقل القول دون تلك التكملة.

ومنه الصفات التي تأتي لإضافة معنى من المعاني.
ومنه ما تكون التكملة فيه جارية مجرى الحجة على كلام سابق ويعرف ذلك بالتذييل (ص 20) كقوله تعالى : ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ، وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ. وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر 14) فقوله تعالى ولا ينبئك مثل خبير حجة على ما تقدم من الخبر وهو تذييل.

ومنه ما تكون التكملة مثلا ويسمى المثال كقول الشاعر :

هاجَتْ نُمَيْرٌ فَهاجَتْ منك ذَا لَبَقٍ
وَاللَّيثُ أَفْتَكُ أَفعالاً من النمر

ومنه ما تكون التكملة فيه لغير الاحتجاج كقوله تعالى : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ، لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً﴾، (الإنسان 8 ـ 9) فقوله تعالى على حبه تتميم.

ومنه ما يقال له التسوير وهو مركب من كل وبعضه توكيداً ومبالغة كقوله تعالى : ﴿مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾، (البقرة 98) فقد ذكر جبريل وميكائيل مع أنهما داخلان في عموم الملائكة المذكورين قبل ذلك وهو أسلوب كثير الاستعمال ويأتي على عكس ذلك بتقدم الجزء الخاص وتأخر الجزء العام كقوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ. يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، (النحل 10 ـ 11) فالجزء العام هنا هو قوله تعالى ومن كل الثمرات والجزء الخاص ما سبق ذلك.

ومنه ما يقال له المرادفة كقوله تعالى : ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، (فاطر 27)، وذلك أن الجبل الغربيب هو الجبل الأسود ويجمع بين اللفظين معاً للتوكيد ويمكن استيعاب ذلك من سياق الآية قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا، وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، أي من الجبال ما هو مخطط ذو جُدد ومنها ما هو على لون واحد.

ثانيا - التّكْرير :

وهو إما تكرير في اللفظ والمعنى واحد ويعرف بالمواطأة وإما تكرير في اللفظ والمعنى مختلف ويسمى بالمشاركة.

وقد أشار في المواطأة إلى عيوب التكرار إذا لم يكن لغرض بلاغي أو إذا لم يكن الكلام محتاجا إليه واستدل على ذلك بأمثلة مختلفة تعين في صناعة البديع.

فمن التكرار القبيح قول القائل :

لو كنتُ كنتُ كتمتُ الحب كنت لما

كنا نكون ولكن ذاك لم يكن

ومن التكرار المفيد ما يراد به استقلال الصفات وإبراز قيمة كل صفة على حدة كقول الله تعالى : **﴿قل اعوذ برّب الناس، مَلِكِ الناسِ إله الناسِ من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾.**

ومنه ما يكون للتقرير كقول الله تعالى في سورة الرحمن : **﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾.**

ومنه ما يكون للتوكيد كقوله تعالى : **﴿إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا﴾.**

وبعد تفصيل الحديث عن تكرار المواطأة انتقل إلى الحديث عن تكرار المشاركة (ص 23).

وهو أنواع كثيرة :

منه المشترك حقيقة كالخال يطلق على أخي الأم وعلى النقطة في الوجه.

ومنه المنقول كالكلمة التي يصبح لها معنى اصطلاحي يشرك المعنى الأصلي وذلك كالسبب مثلا فهو في الحقيقة الحبل وفي اصطلاح العروضيين عبارة عن حرفين متحركين أو على متحرك وساكن. ومنه المجاز وهو المنقول لأجل مناسبة أو مشابهة ومنه التجنيس بمختلف صوره.

وقد تحدث هنا عن إمكان اختلاف المصطلحات البلاغية المعبرة عن المقاصد المحدودة لأن العبرة بالصناعة في حد ذاتها لا في المصطلحات المعبرة عنها.

وينبغي أن تبنى هذه الصناعة على أصول تعين على التعبير الجميل الجامع بين حسن المعنى وصلاحه وبين حسن اللفظ وصلاحه.

قال المؤلف : «وحسن معنى الكلام وصلاحه وصحته إنما هو ببنائه على الصدق وقصده إلى الجميل وظهوره بالبرهان. وحسن اللفظ وصلاحه إنما هو بالقصد إلى المستعمل في زمان الخطاب من اللغة وعند أهل موضع الخطاب وعلى قدر من يخاطب والإيضاح على أحسن ما يقدر عليه من التسهيل والتقريب ولذلك كان أفصح الخلق لا يقول الشعر».

وبعد هذا التحليل المركز الذي جعله المؤلف شرحا لصناعة البديع ذكر أن ما قدمه صالح لكل أنواع البيان شعرا أو نثرا حسب الحاجيات التعبيرية المشتركة.

وأما ما كان من صناعة الشعر كشعر وذلك ما يتعلق بالعروض والقوافي أو مما يتعلق بالشعر من حيث كونه شعرا فهو ليس من موضوع هذا الكتاب وأشار إلى أنه قد سبق له أن ألف مقالة تتعلق بالكشف عن حقيقة النظم والنثر والتميز بين الحكمة والشعر وبيان ما يتعلق بهما يحسن جمعها إلى هذا الكتاب لمن شاء ذلك.

ولعلنا بعد هذا العرض المتعلق بشرح مضمون الكتاب والمبين للمجموعات المتجانسة لتحقيق الدلالة من خلاله وبعد النقول الكثيرة التي اقتبسناها منه نكون قد أسهمنا إسهاما عمليا في التعريف به وفي إظهار وجه آخر من ثقافة ابن البناء الذي نعلم عنه الكثير فيما يتعلق بالفلك والمنطق والرياضيات ولكن لا نعلم عنه في الجانب الأدبي إلا الشيء القليل.

ومع ذلك فإن آثار المعادلات الفكرية المنطقية قد تجلت أثناء تحليله لأصول قواعد صناعة البديع مع عدم الإخلال بالجوانب التطبيقية العملية الشيء الذي جعل من هذا الكتاب صورة أدبية رائعة لا تنسى أصول العلم وصورة علمية دقيقة لا تنسى أصول الأدب فكان كتاب علم وأدب في آن واحد يهذب الذوق ويصقل الفكر ويعين على التأمل ويفتح مجال المعرفة أمام الراغبين في تذوق الأساليب العربية وأمام الراغبين في الإطلاع على أصول بنيتها إفرادا وتركيبا وحقيقة ومجازا.

فاس : محمد بن عبد العزيز الدباغ

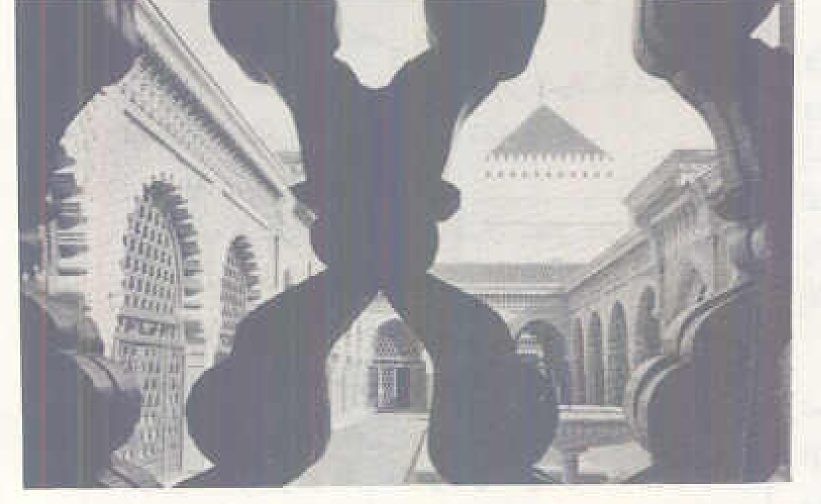
الزخرفة المعمارية وفنون الصناعات التطبيقية

بمسجد ضريح محمد الخامس



2

للدكتور عثمان إسماعيل



تمهيد :

يقول الأستاذ روم لاندو في كتابه عن العلويين (1) : إن جلالة الملك الحسن الثاني كان أمام أحد اختيارين، فإما أن تكون البناية عصرية وإما أن يتبع ثقافة وطنه وتقاليده الفنية ويختار طرازا ينسجم مع شخصية وخلفيات ومقومات واتجاهات الملك الراحل، وهنا اختار الملك الحسن الطراز الوطني الذي نما وازدهر عبر أجيال مغربية متعاقبة من البنائين والصناع والفنيين.

وقد أفصحت منجزات الفنون التطبيقية هنا عن ملكة فنية لا تضاهى عن طريق تلك الطرافة المبدعة التي أتقن بها الصناع المغاربة النماذج الزخرفية المتجلية على معالم

(1) ص 38.

البناية بالنحوت الخشبية أو الجبصية أو فيما يخص بدائع الرسوم بالزليج... والابتكارات الفنية التي حرمت فيها كل أنواع التشخيصات الصورية... ولجأت إلى التعبير بواسطة عناصر معمارية وهندسية وزهرية أو حتى بواسطة الرسوم الكتابية التي تشكل وحدها وبحد ذاتها ينابيع إلهامية لا ينضب معينها (2).

حقا، لقد كان ليقظة الملك المؤسس، ومهندس وفناني الضريح، إلى موقف الإسلام من فني النحت والتصوير فيما يتعلق بالتشبيه بخلقة الخالق للمخلوقات الحية من إنسان وحيوان أكبر الأثر في نجاة ذلك الأثر الديني من تهمة التشبيه بالخالق، لقد أوضحت موقف الإسلام من فنون النحت والتصوير التي تجم المخلوقات الحية من حيوان وإنسان وآراء العلماء بعد تخصيص دراسة مدققة لآيات الكتاب الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وذلك بالجزء الأول من كتابي : «تاريخ العمارة الأثرية»، وأوضحت نتائج موقف الإسلام من ذلك الفن وقدرته على تطوير فنون الزخرفة النباتية والهندسية وفنون الكتابة العربية التي ازدهرت على نحو لا تعرفه فنون العالم الأخرى.

وسوف نحاول هنا على ضوء الدراسة الميدانية بعين المكان مع أكبر معلمي الصنعة شهرة بالمغرب من منفذي فنون تلك الصناعات أن نقوم بعرض لأهم الخصائص الفنية والتقنية لعدد من الصناعات الإسلامية للفنون التطبيقية الموجودة على عدة مواد بمسجد محمد الخامس مثل الحجر والرخام والزليج ثم الجص والخشب وغيرها.

أولا : الحجر

تتجلى أشغال الحفر والنقش في الحجر بمسجد محمد الخامس أكثر ما تتجلى في موقعين بارزين : الأول، وهو الواجهة الشمالية للمسجد، والثاني هو واجهات الصحن الرئيسي للمسجد وهي حائط بيت الصلاة الشمالي (من الخارج) وحائطي الزيادتين الشرقية والغربية وحائط الزيادة الشمالية، وجميعها واجهات متميزة بنقوشها الحجرية المنحوتة مباشرة بعين المكان.

ويضاف إلى ذلك واجهات الصحون الجانبية للمسجد بينه وبين الضريح شرقا ثم بينه وبين المتحف الوطني غربا، وتبقى بعد ذلك واجهة المسجد الجنوبية خلف جدار القبلة وتستمد حليتها من التردد في خط التنظيم الهندسي.

الواجهة الشمالية للمسجد :

إنها الواجهة الرئيسية لعمارة المسجد الخارجية وزخرفتها وهي المطلة على صحن مسجد حسان العتيق.

وبناء على الدراسة الميدانية بنفس المكان صحبة المعلم (الباديشي محمد) المتخصص في فن البناء والنقش في الحجر، وبنفس الموقع الذي عمل به بنفسه مع معاونيه بناءً وزخرفةً توصلنا إلى تمييز نوعين من الحجر بتلك الواجهة وعرفنا خصائص كل نوع وموضع استخدامه ونعني بذلك حجر سلا وحجر الرباط.

ويبلغ طول الواجهة الشمالية للمسجد في أقصى اتساعها ابتداء من حدود الحائط الذي يفصلها عن واجهة الضريح شرقا والحائط الذي يفصلها عن واجهة المتحف الوطني غربا (95 م) خمسا وتسعين مترا، مع ملاحظة وجود تراجع طفيف في تلك الواجهة يبلغ طوله (12 م) إثنى عشر مترا من كل جانب من جانبي الواجهة شرقا وغربا، وبذلك يظل القسم الرئيسي الأوسط بطول (71 م) واحد وسبعين مترا.

وتتميز هذه الواجهة بالتناسق المعماري والتقابل والتناظر الهندسي، إذ يشغل القسم الرئيسي المتوسط البالغ طوله (71 م) مكان الصدارة ويشتمل على ثلاثة أبواب بارزة بارتفاع واحد أوسطها على محور العنزة والمحراب ثم باب عند طرف القسم الأوسط من جهة الشرق وآخر من جهة الغرب وتتصل جميعها بالزيادة الشمالية للمسجد.

---

2) كتاب مهندس الضريح ص 29.

ويشتمل هذا القسم المركزي على ثلاث دخلات (Recess) شرقا بين المدخل المحوري والمدخل الشرقي أوسطها سقاية مزلجة، ونرى مثل ذلك بالجهة الغربية كما نجد دخلة واحدة بين المدخل الشرقي ونهاية القسم المتوسط شرقا ومثل ذلك تماما يوجد جهة الغرب. وبالإضافة إلى هذا، يجدر بنا ملاحظة وجود ثلاث سقايات تتوسط القسم المتراجع شرقا تتميز أوسطها بكبر المساحة عن الأخريتين، ويوجد مثل ذلك جهة الغرب ناحية المتحف الوطني.

وتتفق جميع مواد بناء هذه الواجهة الرئيسية للمسجد في لون الحجر الوردي، غير أنها تختلف في مادته ومصدره، وهكذا يوجد حجر سلا بالمواقع ذات الزخرفة المعمارية المنحوتة في الحجر، بينما يوجد حجر الرباط في (المدات المسرحة) وهو اصطلاح في الصنعة المغربية يعني المواقع العاطلة من الزخرفة المعمارية التي يستمر فيها تركيب الحجارة المنجورة تركيبا معماريا مجردا من النتوءات أو البروزات الزخرفية.

ولهذا السبب يمكن تعليل وجود حجر سلا في (الشواوف) أو (الشّوافات) ومفرده (شواف)، والشواف هو الدخلة الهندسية المزخرفة على جانبي السقاية المزلجة.

وتكمن العلة في استخدام حجر سلا في تلك الشوافات في كونه (رطب) بمعنى (ناعم) سهل النقش والنحت بخلاف حجر الرباط فهو (حرش) بمعنى صلب لا يصلح للنقش والحفر، ولهذا نراه يستخدم في (المدات المسرحة) كما أسلفنا.

ونتعرف الآن على وصف بعض هذه العناصر وهي المدخل والسقاية والشواف :

1 ـ المدخل الرئيسي ومثله المدخلان الجانبيان :

تتفق الأبواب الثلاثة بالواجهة الرئيسية المطلة على صحن مسجد حسان في الارتفاع والعمارة والنظام من القاعدة إلى القمة وهي الشرفات العليا. وكل هذه المداخل من النوع البارز عن مستوى الجدار وقد نفذت بالبناء من الحجر الوردي المجلوب من الرباط في (المدات المسرحة) ومن حجر سلا في مواقع الزخرفة المعمارية مثل البنيقات بأعلى فتحة المدخل.

ويعرف قوس الباب في الصنعة المغربية باصطلاح (سدابي مشوك) ويعلوه البناء بحجر سلا لسهولة نقشه بزخارف التوريق بينما نجد بجانبي الباب شبكات المعينات التي تعرف في هذه الصنعة باسم (كتف ودرج).

وترتكز رجل العقد في كل من الجانبين على نموذج من العنصر المعماري أصلا المتطور إلى الغرض الزخرفي والمعروف عند مؤرخي الآثار باسم (العنصر الثعباني) وأصله هنا (حنش) يعرف جزؤه الأسفل باسم (غلالة) ويظهر أعلاه على هيئة (رأس الحنش).

يقول المعلم الباديشي محمد صاحب الاختصاص ومنفذ زخرفة الباب إن هذا العنصر هو (تمام الخرسنة بالمهماز) و(الخرسنة) هي فصوص العقد المفصص (Lobée) و(المهماز) هو ازدواج الفصوص.

أما التوريق فنلاحظ فيه هنا زيادة عرض الورقة لتملأ الفراغ وتتحمل المقاومة لعوامل التعرية على مر الزمن بالنسبة لكونها زخارف مكشوفة للشمس والهواء لا غطاء لها كما أنها ليست زخارف منفذة على جدران داخلية.

وتعرف القوقعة باسم (الكَفُ) مثل (كَفُ السبع) وهي اليد، كما مر تعريف زخرفة المعينات المتجاورة باسم صنعة (كتف ودرج).

ولعمود هذا المدخل زخارف نراها هنا في (قاع السارية) وهي عبارة عن زخارف نباتية على هيئة (الموزات) ويحمل تاج العمود زخارف من الأوراق الأندلسية.

أما الشرفات العليا وتعرف في الصنعة باسم (الشّرافة) فهي نوع من الشرفات يعرف لدى المهتمين بالصنعة التقليدية باسم (شق منشار).

وتبقى ملاحظة أخرى بالنسبة لحجر الأبواب والواجهة وهي كون الواجهة كلها لم يكن يصلح لها حجر وادي عكراش لأنه متخصص في حمل الأثقال وليس بجميل المنظر، وإذا كان حجر الرباط ومثله حجر سلا يعيبهما شرب الماء خاصة وأن المحل مكشوف، غير أنهما بعد شروق الشمس يجفان ولا ضرر من جراء ذلك.

2 ـ السقاية :

نعرف من تصميم الواجهة الرئيسية سواء بالرسم أو المعاينة وجود سقايتين على جانبي المدخل المتوسط الواقع على محور المحراب وتفصل كل سقاية عن المدخل المذكور مساحة من الزخرفة المعمارية بدخلة غائرة تعرف باسم (الشواف).

وهذه السقاية قد فرشت وزينت بأنواع وألوان الزليج لكن تصميمها العام يدخل تحت إطار متميز كبير المساحة والحجم من الحجر بحيث يدخل القوس الأصلي لواجهة السقاية المزلجة داخل هذا الإطار الحجري وهو إطار زخرفي عبارة عن مثال من الزخرفة المعروفة باسم (شبكة المعينات المتجاورة) منقوشة في الحجر وتغلف عقدا كبيراً من الحجر ينقسم بدوره إلى دلايات حجرية تلفت النظر بحجمها على غير المألوف في الدلايات المعروفة في الجص أو الخشب حيث تكون عادة دقيقة ورقيقة ورشيقة.

3 ـ الشواف :

يسيطر على تصميم الشواف قوس رخوي والجوانح (معمر كتف ودرج) ولا يمكن زخرفته بالمقرنصات لأن المحل متسع ومكشوف.

والشواف كله أرضية وعقدا هو عبارة عن دخلة في الواجهة اتخذت جميعها من الحجارة المتجانسة مع حجارة الواجهة الرئيسية.

4 ـ السقاية الجانبية :

نلاحظ بالحائط الخارجي الفاصل بين عمارتي المسجد والضريح شرقا ومثل ذلك غربا ناحية المتحف الوطني وجود سقاية جانبية متناظرة مع مثيلتها بالجهة المقابلة، وهذه السقاية الجانبية أصغر حجما وأقل زخرفة بالنسبة لموقعها الجانبي، وتتلخص زخرفتها المعمارية في إطار حجري مربع داخله إطار من زخرفة نباتية محورة عن الطبيعة ثم إطار عريض داخله بالوسط عقد أرضية زليج، وحول الزليج المذكور عقد مفصص من الحجر وهو مزدوج في نفس الوقت وتظهر بالبنيقات زهرة حجرية وزخارف نباتية كبيرة الوحدات.

5 ـ الحجر بالصحن الرئيسي والصحون الجانبية :

المعلوم لدى المشتغلين بالآثار والفن الإسلامي أن باب بلاط المحراب المطل على صحن المسجد يعرف بالعنزة التي تشير إلى المحراب الخشبي الصيني الذي يوضع بهذا الموضع من البناء، لكن المعلم الباديشي محمد صاحب أشغال الحجر، أدلى أثناء دراستنا الميدانية في عين المكان بمفهوم آخر حيث يعتبر هو أن الباب الخارجي للمسجد الواقع على محور المحراب بالواجهة الرئيسية هنا وهي الواجهة الشمالية المطلة على صحن مسجد حسان يعتبر هو موضع العنزة وليس موضع فتحة بيت الصلاة على الصحن بالبلاط المحوري وهو بلاط المحراب، ليس ذلك فحسب، بل إنه يسمى بلاط المحراب باسم (العنزة) وقد أوجبت الأمانة العلمية إثبات ذلك.

ويشير المعلم الباديشي محمد إلى أهمية النقش في الحجر الذي نفذه في باب الزيادة الشمالية المطلة على الصحن الرئيسي، وهو باب منقوش في الحجر من الخارج أي اتجاه الصحن وهذا طبيعي وضروري لمقاومة عوامل الطبيعة من شمس ومطر بينما نراه منقوشا في الجص من الداخل جهة بيت الصلاة، ويقول المعلم الباديشي انه (لم يسبق له أن صنع مثل تلك النقوش على طول حياته الفنية

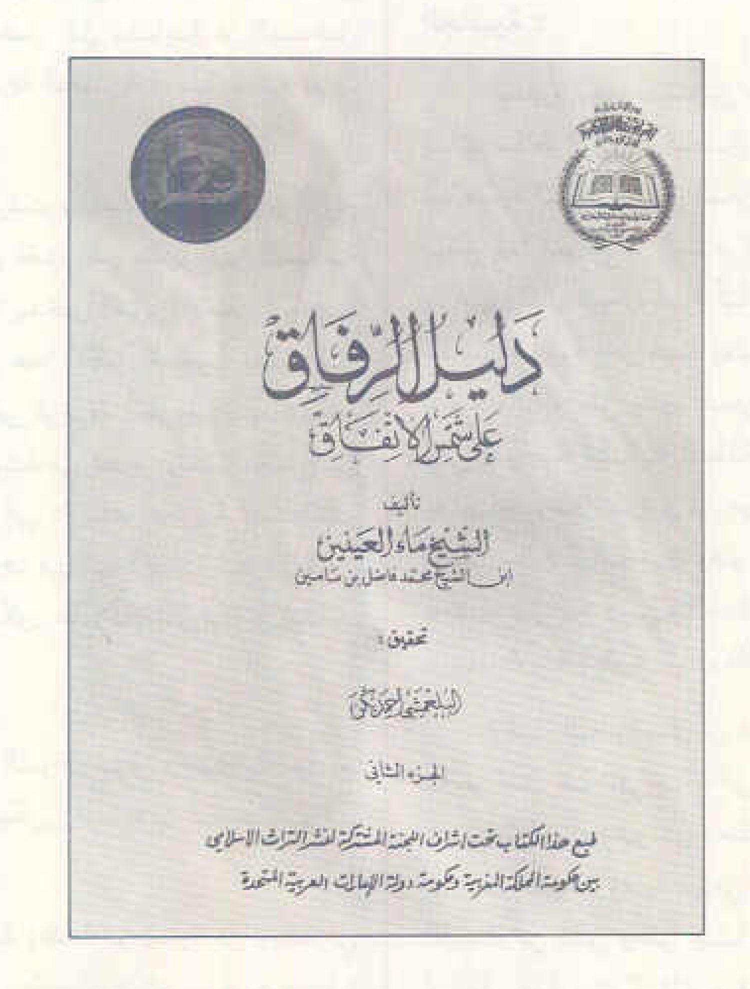
وكثرة إنتاجاته التقليدية، لأن مثل تلك الزخارف لا تكون إلا في الخشب لكنه نفذها هنا في الحجر لأول مرة نظرا لأهمية العمل الفنية والتاريخية وما استلزمه من تضحيات بالوقت والمجهود الفني...)

ويلفت نظرنا هذا الصانع الفنان المبدع إلى أن الورقة النباتية هنا توجد بأجنحة العقد (مكرشة) بمعنى أنها (مشرشرة) فهي ليست (مطلوقة) أي (بسيطة أو سادة) مثل أوراق الباب الخارجي المطل على صحن مسجد حسان.

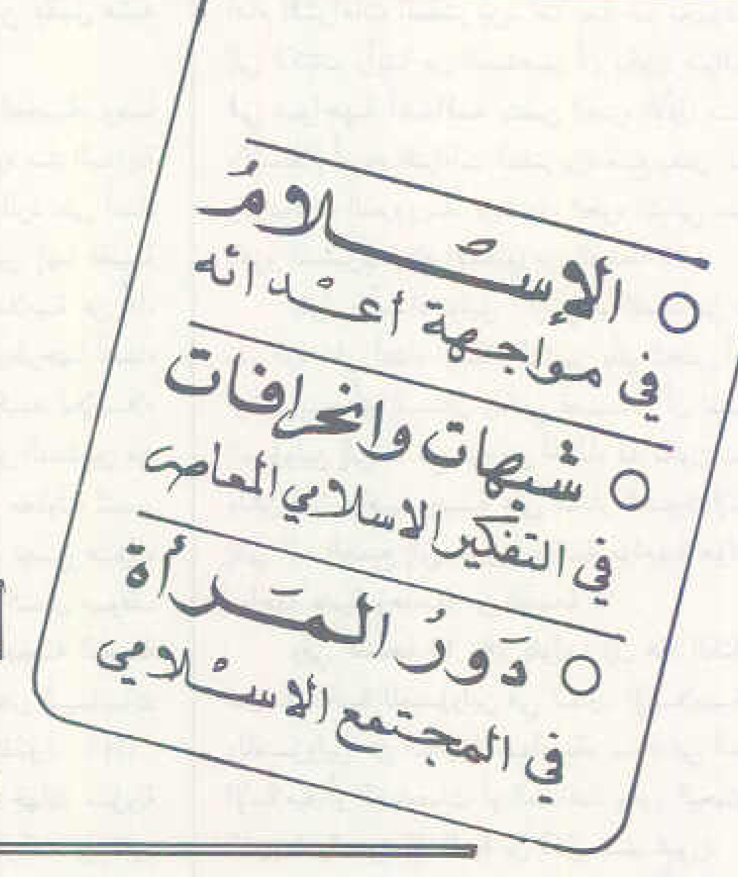
أما بالنسبة لسوء زخرفة الجص بالصحن الجانبي على الحائط الذي يفصل بيت الصلاة عن ذلك الصحن فمرده إلى وجود اتساع في المساحة المراد زخرفتها مع عدم وجود ارتفاع مناسب لتصميم الأشكال الزخرفية وتنفيذها على الوجه الأمثل.

الرباط

الدكتور عثمان عثمان اسماعيل



كتاب في مقال:



للأستاذ توفيق علي وهبه

عرض وتقديم : محمد بن إبراهيم بخات

لا أستطيع أن أعبر عن اغتباطي الفياض الذي غمرني حينما تسلمت مجموعة الكتب الثلاثة تلك التي بعثها إلي الأخ الأثير والكاتب المعروف الأستاذ توفيق علي وهبة (1) مع كلمات الإهداء من سيادته، والتي تعتبر أي المؤلفات الثلاثة من قمم التأليف الإسلامي المعاصر (2) لأن محتواها في المستوى المطلوب، فهي ليست تكرارا لما سبق أو اجترارا لما هو متداول، علاوة على أنها معالم في الثقافة الإسلامية الأصيلة والتفكير الإسلامي الصحيح. وأقول من جديد بأن تلك الكتب الثلاثة هي بحق من معالم التميز بين الحق والباطل والخطأ والصواب والغث والسمين في ميدان التأليف الإسلامي قصد التصحيح والتصويب، هذا التأليف الذي عد نوعا من أنواع الجهاد بالقلم واللسان.

وفي هذا الشأن وجد كتاب «الإسلام في مواجهة أعدائه» إنه جهاد ونداء، دعوة ومواجهة دعوة للحق ومواجهة لأعدائه، وجهاد في في سبيل الدين الحق **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده...﴾** وهو نداء واع واق لأمة الإسلام حتى لا تؤخذ على غرة من جديد وحتى تكون على بينة مما يدبر ويحاك ضد وجودها ويخطط ويرسم لتنصيرها وعرقلة أي محاولة لأسلمتها. وليس غريبا ذلك منهم لأنهم أصلا أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه، فذلك ديدنهم المعهود الوحيد الفريد منذ القديم، وقد فضحهم الله وحذرنا من محاولاتهم وأساليبهم في الكيد والمكر :

﴿يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾.

﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله

بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

وقد جعل الأستاذ توفيق شعار كتابه الآية 85 من سورة آل عمران :

﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾.

ثم استهل بذكر قصة الكتاب المثيرة العجيبة، ومما قال عن هذه القصة وهو بيت القصيد (.... أود منذ البداية أن أوضح أن القضية ليست قضية نشر كتاب للرد على أعداء الإسلام، ولكن القضية أخطر من ذلك بكثير إنها قضية تقاعس المؤسسات المسؤولة عن الدعوة الإسلامية عن أداء دورها، وبعدها عن القضايا الخطيرة التي يطرحها أعداء الإسلام والتي يطمعون من ورائها إلى الكيد للإسلام والمسلمين وتشكيك أهله فيه، وتنفير غير المسلمين من اعتناق الدين الإسلامي، بل والأكثر من ذلك محاولة تنصير بعض المسلمين وارتدادهم عن دينهم، وقد نجح هؤلاء الأعداء فعلا في تنصير البعض... فماذا كان موقف المسؤولين عن الدعوة الإسلامية من هذه الهجمة الشرسة على الإسلام ؟ لا شيء ! اللهم إلا إصدار بعض البيانات والاحتجاجات، بينما الآخرون يخططون وينفذون...) (3).

هكذا بعد محاولات منه وعروض على جهات مسؤولة في مصر وغيرها من بلاد الإسلام لم تقدر حركته ولم تقيم عمله بما يستحق قدر الإتجاه إلى المغرب المسلم في شخص مجلة **دعوة الحق** وهذا الذي يشرف مجلتنا الرائدة، وهذا سبق لها وحدها ويذكر بخدمتها للإسلام ودعوته الخالدة لأن الاستجابة الأولى والتلبية الفورية كانت منها للأستاذ توفيق وكيف لا وهي **دعوة الحق.**

يقول الأستاذ توفيق في هذا الصدد في الصفحة 12 من كتابه (... وفي عام 1392 هـ قمت بإرسال الجزء الأول منه إلى مجلة «دعوة الحق» التي تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب الشقيق فوصلني خطاب رقيق من الأخ الفاضل الأستاذ محمد بن عبد الله رئيس تحرير المجلة في ذلك الوقت يرحب بنشر الرد وبأي ردود أخرى وفعلا نشر الجزء الأول الذي كان يقع في أكثر من أربعين صفحة من حجم الفولكاب في عددين متواليين بالمجلة فقمت بإرسال باقي الردود حيث نشرها تباعا. كانت تلك هي قصة الكتاب وقصة الاستجابة الأولى لنشر جزء منه، أما الثانية فكانت من طرف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض التي أصدرت الكتاب بعنوان **الإسلام أمام افتراءات المفترين.** أما بعد ضم مجموعة الوثائق إلى الكتاب رأينا من المستحسن أن يكون عنوانه **الإسلام في مواجهة أعدائه** يتضمن الجزء الأول منه كتاب «الإسلام أمام افتراءات المفترين» مع بعض التنقيحات والزيادات الضرورية، ويشتمل الجزء الثاني على وثائق الغزو التبشيري لبلاد الإسلام) من الصفحة 15.

يقول الأستاذ توفيق : (إنني لم اقصد من شرح قصة نشر الرد على أعداء الإسلام التشهير بأي شخص أو أي جهة أو تجريح أي إنسان ولكني قصدت أن أنبه هؤلاء المسؤولين إلى ما تقع فيه من أخطاء قد تكون بدون قصد ولكن لها عواقب وخيمة على مسار الدعوة الإسلامية... إنني انبه الجميع إلى ضرورة دراسة مواجهة هؤلاء الأعداء مواجهة علمية وحاسمة) من الصفحة 15.

وفي الصفحة 15 و16 يقول : (إن هذا الكتاب بمثابة صرخة عالية للمسؤولين في الدول الإسلامية عامة، وللمسؤولين عن الدعوة خاصة، سواء في المؤسسات الإسلامية أو الجامعات أو المعاهد ودور البحث وكليات الشريعة والدعوة الإسلامية بل لكل مسلم غيور).

وفي المبحث الأول من الفصل الأول عن الرسول والرسالة باب بشارات الكتاب المقدس **التوراة أولا والإنجيل ثانيا** أورد الأستاذ توفيق بشارة إنجيل برنابا : **يقرر إنجيل برنابا صراحة رسالة محمد ﷺ الخاتمة، ولكن المسيحيين لا يعترفون بهذا الإنجيل على الرغم من اكتشاف مخطوطات وجدت حديثا في الفيوم وطور سيناء عام 1958 وأحد هذه المخطوطات كتب بمعرفة القديس مرقس وتؤيد الكثير من إنجيل برنابا.** يقول برنابا على لسان السيد المسيح : **فلما كان الناس قد دعوني الله وابن الله على أني كنت بريئا في العالم أراد الله أن يهزأ الناس بي في هذا العالم بموت يهوذا معتقدين أنني أنا الذي مت على الصليب كيلا تهزأ**

الشياطين بي في يوم الدينونة وسيبقى هذا إلى أن يأتي محمد رسول الله الذي متى جاء كشف هذا الخداع للذين يؤمنون بشريعة الله. من الصفحة 47.

ولي ملاحظة على الأستاذ توفيق تتعلق بإنجيل «برنابا»، فنظرا لأهميته القصوى لما يشتمل عليه من بشارات واضحة صريحة، كنا نود من الأستاذ المؤلف أن يزودنا بمعلومات مفصلة عن هذا الإنجيل وصاحبه الذي يعد عند الصليبيين وأعداء التوحيد إنجيلا مزيفا ولا أساس له من الصحة أو كان عليه أن يرشدنا إلى مصادر عنه لنستقي منها معلومات وفيرة إلى آخره (4).

ومن الوثائق المهمة التي ختم بها الأستاذ توفيق كتابه وثيقة سرية خطيرة من إثيوبيا توضح حرب الشيوعية ضد الإسلام والأديان السماوية مستخدمة مختلف الوسائل اللا أخلاقية ضد المسليمن والمسيحيين بواسطة الكنائس والمساجد. (من الصفحة 557، 558، 566، 569).

وقبل الملحق وخاتمة الكتاب، أشار الأستاذ توفيق بتفصيل إلى المخطط الشيوعي في أفغانستان الذي يعلن بأن الإسلام دين مقدس ويجب استئصاله من المجتمع، ولابد من مواجهته لأنه أكبر واجب، فحسب مفهوم المخطط محاربة الإسلام أكبر واجب علينا حتى من الرأسمالية والمثالية (من الصفحة 571) وقد يقال بأن مواضيع الكتاب قد تطرق إليها ودرسها وفندها قديما وحديثا ورد عليها زمرة من العلماء والكتاب المسلمين، ولكن الحقيقة أن الكاتب الفاضل توفيق كان موفقا وفريدا في مواجهته، ويكاد يكون كتابه جامعا يغني عن غيره جعله الله من حسناته التي لا تنقطع.

ويأتي دور الحديث عن الكتاب الثاني للأستاذ توفيق وهو **شبهات وانحرافات في التفكير الإسلامي المعاصر** في طبعته الخامسة، هذا التفكير الذي نلاحظ عليه كما نلاحظ في ميدانه كثرة الأقزام الذين ماهم في الحقيقة إلا جهلة أو أنصاف مثقفين أو أدعياء، وهم مع الأسف متطفلون على ميدان تفكيرنا الإسلامي المعاصر، ونقول بامتعاض هم من الصنف الذي يهرف بما لا يعرف، أو يلقي الكلام على عواهنه، أو من الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يحسبون على الإسلام، وهو منهم براء، أو من الذين يقولون ما لا يفعلون، أو من الذين يفهمون الإسلام كما يحلو لهم، أو من الذين يفسرون الإسلام حسب هواهم، أو من الذين ينظرون إلى الإسلام بمنظار الواقع السيء لأهله، أو من الذين يجاملون على حساب الدين الحق.

وقد جعل الأستاذ توفيق شعار الكتاب الآية 125 من سورة النحل.

﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾.

والحديث النبوي : **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم إلى قيام الساعة».**

والكتاب يحتوي على تسعة أبواب :

الباب الأول عن التأويل الفاسد والفهم الخاطئ للكتاب والسنة.

الباب الثاني عن الإسلام في مواجهة التحديات.

الباب الثالث عن المباح والحرام في الإسلام.

الباب الرابع عن بدعة الاحتفال بليلة النصف من شعبان.

الباب الخامس الأسرة المسلمة : مشروعان حول قانون الأحوال الشخصية.

الباب السادس، المرأة المسلمة : محاولات إفسادها وهدمها.

الباب السابع الدعوة إلى الله بين الإرهاب والموعظة الحسنة.

الباب الثامن دعوة مريبة : اقتراح هدام من زعيم مسيحي.

الباب التاسع شبهات وأخطاء في رسائل جامعية.

ومن صوره تبيانه لوجه الصواب ولحض المفاهيم الخاطئة لكتاب الله، قوله في الصفحة 27 ـ 28 و29 من الكتاب : (تحدث أحد رجال الفكر الإسلامي في حفل ديني في مصر تعرض أثناء كلمته لتفسير الآية الكريمة : **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله**

ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾.
الآيتان 100 ـ 101 من سورة آل عمران.

قال سيادته : إن معنى إيمانكم : **أي وحدتكم** وكافرين : **أي متفرقين.** وهذا الذي ذهب إليه في معنى الآية لا يوجد له أي دليل لغوي أو شرعي، فالإيمان لغة : هو الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة.

والإيمان شرعا : هو الاعتراف بوحدانية الله والتصديق برسالته، فكما جاء بالحديث الشريف الإيمان هو : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر (أي قبول الشريعة وهو المعنى المعروف لغويا).

والكفر شرعا هو جحود وحدانية الله أو النبوة ويقال كفر فلان إذا اعتقد الكفر، فمعنى الكفر (لغة وشرعا ضد الإيمان) وبعدما ذكر سبب نزول هاتين الآيتين... قال ومعنى : أن الله سبحانه وتعالى يحذر المؤمنين مما يثيره بعض أهل الكتاب من شبهة قائلا : إن تطيعوا بعض أهل الكتاب فيما يبثونه من الشبه في دينكم تعودوا إلى الضلال بعد الهداية ويردوكم جاحدين بعد الإيمان... ومن الإيضاح لسبب نزول الآيتين 100 ـ 101 من سورة آل عمران يتبين أن ما ذهب إليه السيد المتحدث لا يوافق معنى الآيتين لغة أو شرعا. وكان يغني سيادته عن ذلك أن يأتي بآيات صريحة تدعو إلى الوحدة وهي كثيرة ولا تحتاج إلى مثل هذا التأويل الذي جاء في غير محله) (5).

إن كتاب شبهات وانحرافات... يدل بوضوح على أن حصوننا مهددة من داخلها، مهددة من المحسوبين على الإسلام، وهذه الحصون في حاجة ماسة وملحة إلى من يحميها ويدافع عنها من الغيورين على هذا الدين المخلصين له، وهم موجودون والحمد لله ومن أمثالهم الأستاذ توفيق علي وهبة من الكتاب الإسلاميين الذين تتوافر لديهم العقيدة والإخلاص والغيرة على الإسلام.

وفي الباب السابع الخاص بالدعوة إلى الله بين الإرهاب والموعظة الحسنة يقول الأستاذ توفيق : (مهمة الدعاة إلى الله، مهمة إنسانية أخلاقية، ويجب أن يدعو الداعي إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمر القرآن الكريم. تكفير صاحب الرأي المخالف ليس من هدي الإسلام، ولا من خلقه. العنف في الدعوة إلى الله والتعصب للرأي ينفر ولا يفيد إلا أعداء الإسلام) من الصفحة 195 ومن الأمثلة على ذلك : (كتب أحد الكتاب مقالا بمجلة الدعوة السعودية، عن حجاب المرأة يرد به على كاتب آخر سبق أن كتب في نفس المجلة عن موضوع الحجاب ولم يعجبه فعنفه في هذا الرد وتطاول عليه كثيرا إلى أن انتهى إلى تكفيره)، (كتب كاتب آخر في مجلة الهدي النبوي المصرية وانتهى فيه إلى أن من قال غير هذا الرأي من الكتاب والمفسرين فهو كافر وخارج عن الدين) من الصفحة 199 وأقول متأسفا ومتحسرا بأن السلسلة من هذه الأمثلة عريضة وطويلة ومتكررة بين الدعاة والكتاب، فتكفير المؤمن لأخيه المؤمن بسبب اجتهاد في الرأي أو خلاف في الفهم عن حسن نية أي بالنسبة لصاحب هذا الاجتهاد أو الخلاف إتهام خطير جدا لأنه إخراج من الدين، فمن رمى أخاه المؤمن بتلك الكلمة فقد باء بإثمها كما جاء في الحديث الشريف. وليت المرضى أو الذين يجدون نشوة بترداد تلك الكلمة من المحسوبين على الدعوة (وما هم إلا أدعياء) يأخذون الدروس والعبر من صحابتنا الأجلاء وعلمائنا الأعلام ودعاتنا الجهابذة الذي كانوا حقا وأصلا أصحاب الدروس والأساليب الناجحة في الدعوة لأنهم كانوا حكماء ومتبصرين ويرون ـ وهم مصيبون ـ بأن الاختلاف في الفروع والجزئيات رحمة بهذه الأمة ولها، فكانوا لا يسارعون إلى تكفير العصاة والمنحرفين بل يتحببون إليهم ويتقربون ويعالجونهم بالتي هي أحسن، يقومون اعوجاجهم بالحسنى مع تمام الحكمة لأن الخطأ والعيب في أعمالهم لا في أشخاصهم وهم إنما يبغضون أعمالهم لا أنفسهم لأنهم بحكم الدين إخوان لهم كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه. وعلى هذا الأساس فمن انحرف أو أساء التصرف أو فهم عن جهل أو خطأ يجب أن أبصره بالحقيقة وأدعوه بالحكمة وبذلك أصلحه لأكسبه، فإن لم أحسن التصرف معه أخذته العزة بالإثم وتمادى في غيه لأني كنت عون للشيطان عليه وبذلك يضيع ويضيع الغير معه فأكون السبب وأنا المسؤول.

ويأتي دور الكتاب الثالث : (دور المرأة في المجتمع الإسلامي) ومثل هذا الكتاب ما كان ليصدر لولا مزاعم وأباطيل لا أساس لها من الصحة يروج لها ناس ويروج لها

بشتى الوسائل تدعو إلى تحرير المرأة المسلمة وتدعي بأن لا دور لها ولا قيمة في الإسلام رغم أن الله كما جاء في كتابه الكريم جعلها في القمة كالرجل وشرفها وخلد ذكرها في الكتاب الحكيم ﴿... **لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض...**﴾ ويكفي شرفا للمرأة أن كتاب ربنا أشار إلى الشهيرات من النساء وهن كثيرات اللواتي يصلحن للاقتداء والاهتداء مثل (آسيا) المثل الحي في الإيمان و(مريم) في العبادة، ويكفي فخرا للمرأة أن هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم حملها مسؤوليات تناسبها كما حمل الرجل بما يناسبه بحكم خصائصها وخصائصه. إن تحرير المرأة هذه الدعوة الجاهلية ما هي إلا تخريب وهدم وامتهان لها، أما تحرير الإسلام لها هو الذي يجب أن يفهم ويسود بأنه إنقاذ وتكريم وتحقيق لدورها الأصيل المقدس في المجتمع كما أراه الله ودعا رسوله الكريم، ولكن قومي يجهلون ويصرون على البقاء في جهلهم بل ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون. أرادوا لها المساواة بالرجل فترجلت فعلا وشاركت الجنس الخشن في كل ميدان بسبب دعوة التحرير والمساواة المزعومة الجاهلية ولكن لا يمكن أبدا ولا يعقل أن تصير ذكرا أو تتحول إلى رجل وهكذا أفهم المساواة التي يتبجحون بها ويدعون إليها. ويكفي كبرهان واحد - والبراهين كثيرة - على تكريم القرآن للمرأة وجود سورة من سوره وهي **سورة النساء** مما يدل على عظمة المنزلة للمرأة في الإسلام، هذه السورة التي تنظم المجتمع الإسلامي لو كانت هي الوحيدة الموجودة كقرآن منزل لكفت وأغنت.

وللذين يتغنون ويتلذذون بذكر كلمة المساواة أسوق لهم هذين القولين من الحديث الشريف : «**إنما النساء شقائق الرجال**»، «**الناس سواسية كأسنان المشط**».

وفي ميدان العلم والتعلم أشير إلى الرسول الكريم : **طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**، والآيات والأحاديث كثيرة في هذا الصدد، وبيت القصيد ليس في إيرادها وترددها وإنما مصيبتنا في التجاهل والانحراف عن هذا الدين والتنكر له والكفر بقيمه وحقائقه والتأثر بالجاهلية العصرية والإيمان بدعواتها الهدامة هذه كلها هي التي جعلت طائفة من المحسوبين على الإسلام أو المنتسبين إليه إما وربما تؤمن بدعوة تحرير المرأة ومساواتها بالرجل في كل شيء وتروج لها بحرارة، وما أعظمها من خيانة لهذا الدين وإجرام في حقه !! هذه الخيانة التي تتجسم في دعوة التحرير تلك لكونها ظلما وامتهانا لها، هذه الدعوة إنما يجب أو كان يجب ترويجها وتحقيقها في البلاد التي فصلت الدين عن الدولة هذه البدعة الجاهلية التي كانت من بركات - (مع الاعتذار لاستعمال كلمة بركات) - قيام الجمهورية في فرنسا وبسبب تصرف الكنيسة وسوء استعمالها للسلطة الدينية، إنه مما لا يحتاج إلى تدليل فتلك البلاد هي التي كانت تشك في إنسانية المرأة وحينما أرادوا تحريرها ضلوا الطريق وأخطأوا الصواب الخ....

أما في الإسلام فلا يوجد في بلاده منذ عهوده الأولى مثل ما حدث في بلاد أوروبا شرقا وغربا فهو الدين الوحيد الذي كرم المرأة وشرفها واعترف بها إنسانا كالرجل، وجعل لها حقوقا وعليها حقوق مناسبة بحكم أنوثتها كما جعل للرجل حقوقا وعليه حقوق ملائمة بحكم رجولته، ولكن رغم ذلك ادعينا وزعمنا بأن الإسلام ظلم المرأة بسبب ظلم المسلم لها في المعاملة والتصرفات، ونحن بهذا الادعاء نكون خاطئين وواهمين لأن الإسلام بريء من ذلك، وإنما العيوب في المسلمين ولا يمكن بحال من الأحوال تفسير الإسلام بواقع المسلمين السيء، لأن المحاسبة يجب أن تكون للمسليمن الذين أساءوا في التصرف وانحرفوا في التصور وأخطأوا في الفهم مما جعل حيل دعوات التحرير والمساواة تنطلي على طوائف من المسلمين فيهم الجهلة والمثقفون وما هم في الحقيقة إلا أنصاف المثقفين، والغرابة هنا هي اعتقاد أن تلك الدعوات أتت بجديد وما الجديد فيها ؟

عيد الأم، ويوم المرأة العالمي وو...الخ.

لا جدال في أن الإسلام أكرم المرأة طوال حياتها منذ الصغر وحتى قبل الزواج وبعد الزواج، وأوصى بها خيرا زوجة وأما : (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)، (استوصوا بالنساء خيرا). ديننا ولله الحمد والمنة أكرمها وكرم آدميتها في كل الأيام وليس بتخصيص يوم واحد في العام، وإنما أوصى بها خيرا على الداوم كما في الحديثين

الشريفين السابقين، فحديث رسول الله أو وصيته الإنسانية العظيمة عليه الصلاة والسلام (استوصوا بالنساء خيرا) وصية خالدة لها ولصالحها، وصية متداولة ومتوارثة حتى تعيش المرأة عليها في ظل الإسلام معززة ومكرمة حتى يوم القيامة.

وحينما أمر ديننا بحسن صحبتها وهي أم فهذا أكبر وأعظم تكريم لها، وبفضل الإسلام تعتبر أيامها أعيادا، وما العيد إلا تعبير عن الاهتمام والشعور بالفرح، وبهذا المفهوم علمنا إسلامنا أن نحتفل ونهتم ونحتفي بها طيلة حياتنا وطوال عمرها.

وعلى هذا الأساس فلا يقبل الإسلام تخصيص عيد لها في 21 مارس من كل سنة ثم ينساها الأبناء ويهملونها بعد ذلك العيد. إن أكبر تكريم لها وتشريف هو أن أخشى الله فيها وأعبده العبادة الحقيقية التي لا تكون مقبولة عند الله ما لم يصاحبها الإحسان إلى الوالدين والبر بهما إظهارا لقيمة الوالدية وتعظيما لها خصوصا وروح الوالدية تتمثل وتتجسم بالدرجة الأولى في الأم، وصدق الله العظيم : ﴿اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا﴾.

وقد اشتمل كتاب «دور المرأة في المجتمع الإسلامي» على عشرة فصول وأربعة ملاحق وهي : الإسلام والمرأة، كرامة الإنسان عند الله، المساواة بين الرجل والمرأة، الإستثناءات الواردة على مبدأ المساواة، الحجاب، الإسلام يحرم الإضرار بالمرأة، المرأة والجهاد، مجالات عمل المرأة، دور المرأة في تربية أولادها، دور المرأة في المجتمع.

أما الملاحق فموضوعها وضع المرأة في المجتمعات المعاصرة مع شهادات من الغرب ودعوات لإنقاذ المرأة منها أولا : البريطانيون ينادون : المرأة مكانها البيت. و«أجاثا كريستي» ضد المساواة والتي قالت : (إن المرأة الحديثة مغفلة لأن مركز المرأة في المجتمع يزداد سوءا يوما بعد يوم. نحن النساء نتصرف تصرفا أحمق لأننا بذلنا الجهد الكبير خلال السنين الماضية للحصول على حق العمل والمساواة في العمل مع الرجل. والرجال وهم غير أغبياء شجعونا على ذلك معلنين أنه لا مانع مطلقا من أن تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج، إنه من المحزن أن نجد نحن النساء (الجنس اللطيف الضعيف) أننا قد أصبحنا اليوم نتساوى في الجهد والعرق الذي كان من نصيب الرجل وحده. لقد كانت المرأة في الماضي تعمل في الحقل وفي المنزل من أجل إرضاء الرجل ونجحت المرأة بعد ذلك في إقناع الرجل أن مكانها في المنزل وضعفها الجسماني لا يسمحان لها بالجهد والنضال، كما أقنعت الرجل أنها في حاجة دائمة لعطفه وحنانه طالبة منه تدليلها وإرضاءها دائما. وفي عهد الملكة فكتوريا كانت المرأة في أسعد حالتها وما يقال عكس ذلك كذب. كانت المرأة في هذا العهد تحترم الرجل ورجولته ومسؤوليته تجاه منزله العائلي واضطرت المرأة إلى الاعتراف بتفوق الرجل حتى لا تهينه أو تجرح كرامته. كانت الحياة سعيدة عندما كان الرجل سيد البيت والمسؤول الأول عن رفاهية الأسرة أما اليوم فالمرأة تطالب بحريتها وحصلت على حريتها وأصبحت مضطرة إلى العمل المضني والتنافس مع الرجل في جميع الميادين وبذلك فقدت سعادتها المنزلية وفقدت أنوثتها التي كانت تسحر الرجل في الماضي).

من الصفحة 254 ـ 255

وبعد مناقشة الأستاذ توفيق للشبح الذي تخافه المرأة المعاصرة وهو عمل البيت، قال حفظه الله بعدما حلل معالجا لهذه المشكلة والقضية (ونعود إلى مشكلتنا وهي تتلخص الآن بعدما عرضته من حقائق في سؤال هام هو : الهروب من أعمال البيت، وهذه الأعمال بفضل الأجهزة العصرية لم تعد شاقة بل أصبحت أشبه بالنزهة ! ألا يكون من الأفضل لها ولبيتها ولأولادها أن تعود إلى البيت ليعود إلى الأسرة التماسك وللأطفال التنشئة السليمة، ولو سمح لي المتحاورون حول هذه القضية فإني أطالبهم بالإصرار على إعادة المرأة العاملة إلى بيتها. فالفائدة ستتعدى حدود الأسرة إلى المجتمع كله. ففي عصر الازدحام الذي نعيشه هذه الأيام في كل مكان في العالم... الازدحام ف

الطريق... الازدحام في العمل... الازدحام أمام الفرص وسط المنافسة الشديدة مع تزايد أعداد البشر يجب على المرأة أن تعود إلى بيتها فتسهم في تخفيف حدة هذا

الازدحام إلى جانب أنها تشغل الفراغ الذي تركته في البيت بخروجها وتملؤه فربما تعود بذلك الحياة إلى شكلها الطبيعي مذاقها الحلو البعيد عن العديد من المشكلات التي لم تعرفها الأجيال السابقة).

من الصفحة 259 ـ 260

وأقول مؤيدا الأستاذ توفيق في كلمة مركزة، إن دعوته كمسلم هي الدعوة الأم، هي العلاج، هي الدواء، هي الحل، وقد فطن إليها وتنبه لها عقلاء الغرب، والحقيقة أن سعادة المرأة ومكانها الأصلي الأساسي في البيت لأنها كانت ويجب أن تبقى **ربة بيت كما أطلقه رسول الله ﷺ على أم المؤمنين خديجة، إنه لقب الواقع وللواقع، ولا غرابة في ذلك لأن الإسلام دين الواقع الذي يشرف كما يصوره ويشكله ويريده ويحققه هذا الدين.**

إن دعوة المؤلف للمرأة العصرية لا يمكن أن تتحقق إلا بتعاون مع الرجل ولكن بعودة واعية لهذا الدين الذي يعيش المنتسبون إليه في عجز وجهل، فهل من استجابة إيجابية : **﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾.**

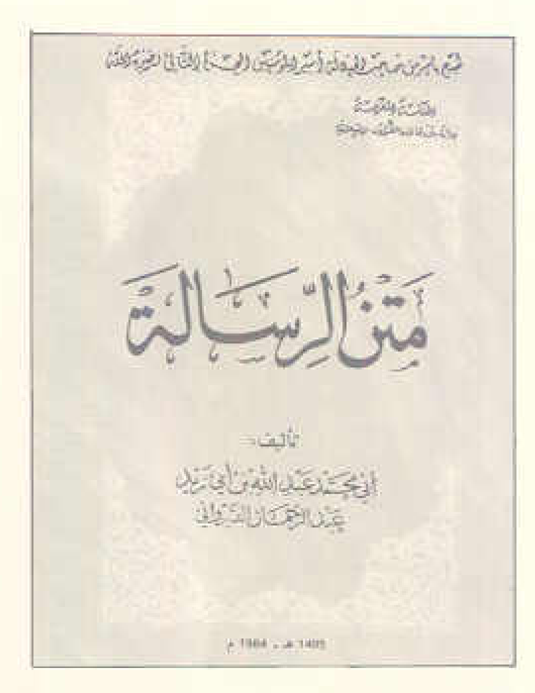
1) المستشار القانوني لمصلحة السجون بالرياض.
2) هذه المؤلفات الثلاثة صدرت عن دار اللواء للنشر والتوزيع بالرياض.
3) الإسلام في مواجهة أعدائه الصفحة 7 ـ 8.
4) أشير هنا إلى الكتاب القيم للشيخ العالم محمد أبو زهرة «محاضرات في النصرانية» حيث فصل القول وأجاب في موضوع (إنجيل برنابا) من الصفحة 56 إلى الصفحة 67، إذ أتى بالبراهين الدامغة على صحة «إنجيل برنابا»، ط ـ 3 ـ 1381 ـ 1961.
وهنا أجدني مضطرا من أجل إفادة القراء إلى تزويدهم بمعلومات إضافية في موضوع الإنجيل على لسان الشيخ محمد الراوي رئيس قسم التفسير بكلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض : (إن إنجيل برنابا موجود فعلا، وقد قام بترجمته الدكتور خليل سعادة، وقام بنشره السيد محمد رشيد رضا. وهذا الإنجيل كانت نسخته بمكتبة البابا (سكتس) في روما واختلسها أسقف يقال له (فرامرينو) حين عثر عليها مصادفة فقرأها واعتنق الإسلام وذلك في أواخر القرن السادس عشر.
وقد قال ناشره السيد محمد رشيد رضا في مقدمته : «لم نقف على ذكر لإنجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا (جلاسيوس الأول) في بيان الكتب التي تحرم قراءتها. فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا، وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد... أي قبل بعثة نبينا محمد ﷺ».
وفي هذا الإنجيل تكذيب لكثير من معتقدات النصارى وتبشير برسالة أحمد كما جاء في القرآن الكريم (ومبشرا برسول يأتي من بعدي إسمه أحمد) الصف 6.
ولعل هذا هو السبب في عدم اعتراف الكنيسة به ومحاربته وإنكاره. وبرنابا هو من أتباع المسيح المواظبين على نشر دعوته وكان من الموثوق بهم ثقة تامة ومن تلاميذه الإثني عشر كما جاء في إنجيله.
وتوجد نسخة من هذا الإنجيل في «المتحف البريطاني» ولعل بعض المؤسسات العلمية المعنية تعمل على تصويره وترجمته ترجمة حرفية حتى يقف طلاب العلم والباحثون على ما جاء فيه) عن مجلة «الفيصل» العدد 16 من السنة الثانية، صفحة 157.
5) كتاب شبهات وانحرافات... صفحة 27 ـ 28 ـ 29.

محمد بن إبراهيم بخات

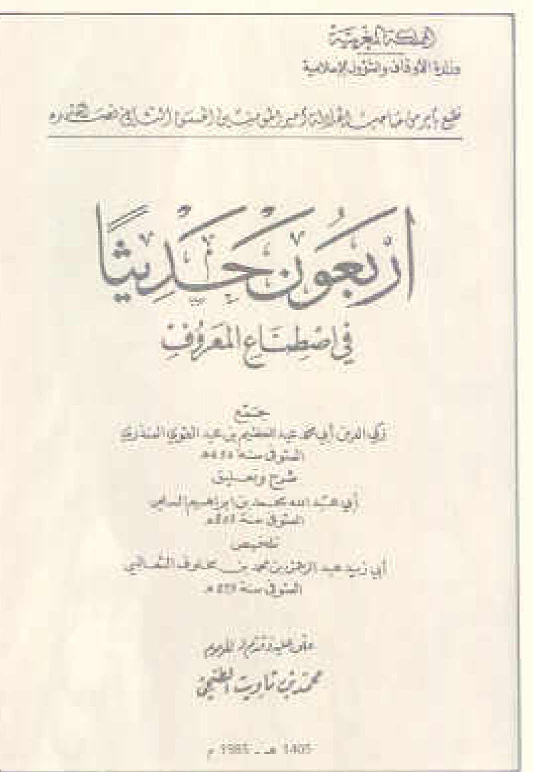


مطبعة فضاله . المحمدية . المغرب
رقم الايداع القانوني 1981/3

من مطبوعات
وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية









التوزيع : مكتبة الأوقاف، 5 زنقة بيروت، ساحة المامونية، الرباط

ضريح محمد الخامس